

أثر الفراشة

أثر الفراشة

رواية

تأليف :

هدى عبد المنعم

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

محمد حمدي



رقم الإيداع: 2016/22452

الترقيم الدولي: 4-003-820-977-978

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

©جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

هدى عبد المنعم

أثر الفراشة

رواية

إهداء

إلى قرة عيني؛ ابني: (مالك رائف حياتي)
كُن ما تريده أنت لنفسك لا ما يريده الآخرون لك

شكر خاص

ماما: أودُّ لو أوفيكِ حقك!
رائف حياتي: إيمانك بي هو الأجل.
هبة عبد المنعم: ممتنة للأبد.
مايا الطرابيلي: هل شكرتك كفاية؟

تمهيد

لرفرفة جناح فراشة في الهواء الأثر على ضرب إعصار لمنطقة
ما من العالم!

تعبير مجازي عن حدث ما ينجم عنه سلسلة من التأثيرات
المتوالية، فتفوق حجمه الأول بمراحل.

أثر الفراشة - نظرية الفوضى

الفصل الأول

لا شيء يُعَدُّ مقبولاَ قدر ما نولَدُ فنجدُه من حولنا

هشام مطر

مُدَّت أسلاك عدة تحمل إضاءات مطلية بالألوان على طول منزل آل المهدي المؤلف من طابقين في حي توريل بالمنصورة. تصدح من مكبر صوت رديء تشكيلة أغاني الرفاف، ثم وصلة زغاريد تهز الطابق الثاني حيث شقة أم العروس؛ تعلن عن وصول المأذون. تُمايل الجارات والمعارف على بعضهن البعض في تبجح واستهزاء، يتضحكن ويتشاركن الهمزات واللمزات:

- آصال وقعت واقفة. بنت المحظوظة!

- بختها نادٍ. من كان يصدق؟

تسمعن نادرة، فتمصص شفاهها في حسرة لا تحاول أن تخفيها، وتتنظر إلى العروس شذراً وتغرها مزموماً، غير راضية، وترد بابتسامة وقحة، مُعَيَّرَة:

- أخي بخته ماييل. الله أعلم ماذا أعجبه في هذه الإبرة الكالحة! جلد على عظم.

(أريد أن أترك لحالي الليلة، هذه الليلة بالتحديد)

راحت آصال تلهو بالخصلات الشاردة من تصفيفة شعرها المرتخية، بينما خاطبها الجالس إلى جوارها يوزع ابتساماته وإيماءاته المُرحبة بالمدعويين من حولهما، وينظر لها بود من حين لآخر؛ فتنصرف عنه عيناها، وتجولان بضيق متصاعد على السقف المزخرف لشقتها كأنما تكتشفه لأول مرة! في محاولة يائسة لشغل نفسها عن الفرحة المزعومة حولها، والابتسامات

الفارغة على وجه العريس ووجوه الحاضرين.

- في هذه الليلة المباركة نعلن ميلاد أسرة؛ نسأل الله تعالى أن ينبتها نباتًا حسنًا ويرزقها الذرية الصالحة.

تمسكت أصال بمقعد الصالون الذهبي الذي تجلس عليه،
تعرض بلغة جسد متصلب وامتلأ الشفتين الغليظتين بالرفض،
تتعالى بتقوس حاجبيها الرفيعين، ويشمخ أنفها المستقيم، أما
عينها اللتان لم تنطبع عليهما لمحة واحدة من الشفافية،
غامقتان كحبر طافح على ورقة بياض وجهها النحيل؛ فلا تكفان
عن التحديق بعقارب الساعة الكبيرة التي علت جدار الصالة
بتوعد؛ لأنها ستلقنها درسًا إن تباطأت عن ملاحقة الوقت بسرعة
تنتهي الليلة، لتلتحف حياتها الخالية من المواءمات والتظاهر
كما اعتادت أن تحبها.

- نبدأ بقراءة الفاتحة والصلاة على نبي الله ومصطفاه...

تعرض على شفتها بندم، وتغمض عينيها لبرهة على غلالة
رقيقة من الدموع، تحبسها في مقلتيها، وتنفس في مشقة؛ تحاول
ألا تحمل نفسها فوق طاقة بالكاد تسع كل شيء آخر، فلا
تنقصها. تحاول تحميل كل ذي ذنب ذنبه؛ تنجح أحيانًا وتفشل
في أحيان أخرى.. وفي كل الحالات تكره بالجملة.

(أكرههم، وأكرهني، وأكره هذا المكان، والحضور أمامي في
صفوف متراصة؛ شهود على أمر لست أقل كرهًا له!)

أرعى المأذون محرّمًا أبيض على يدي خاطبها ووكيلها
المتعاقدين على القران؛ وردد الأخير وراء المأذون:

- زوجُكَ موكلتي ابنة أختي الأنسة البكر الرشيد أصال قاسم
أبو زيد زواجًا شرعيًا على كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه
وسلم، وعلى الصداق المسمى بيننا...

اغتمت عينا آصال بسواد حالك، ومضى العقد على مرأى ومسمع منها ومن الشهود، يطعننها في السر والعلانية دون رحمة بها. تهز رأسها في استهانة؛ تعهدات جوفاء راح العريس يرددها وراء المأذون.. إرث من العادات والتقاليد الجائرة ستحكم زواجهما، ويأتي يوم مثقل بالتجني؛ تنسى فيه الأذن وينكر اللسان، ويتلظى القلب وحده بفرحة لا تدوم العمر كله كما يقتضي الوعد!

- بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير...

دوت صفارات صاخبة وقام القعود مهئين في خضم الزغاريد المجلجلة، اتجهوا جميعًا إلى العريس بالمصافحة والأحضان وحمله بعضهم على الأكتاف، وانخرطت أمها في تقبيل النساء، وشد خالها قامته في وسط الرجال مستقبلاً التهاني بينما انتحت نادرة إلى جانب ممتعة، ولكزت ابتها حسناء المبتهجة دون سبب، لتلزمها بعدم التحرك من جوارها بالقوة.

لم يلق أحد بالآصال على نحو أثار حفيظتها؛ يباركون للبائع والشاري، وتجلس بعد في مقعدها قطعة أرض جامدة؛ البيعة لا تهم. أخيرًا تملصت أمها من حشود النساء وعانقتها في راحة غامرة، وتذكر خالها مشكورًا أن يقبل رأسها في ود روتيني وهو يسلمها لزوجها؛ لتأبط ذراعه على مضض وينقبض كفها المتخشب حول ساعده القوي، استعدادًا للمغادرة إلى فندق مارشال ليقضيا ليلة الزفاف ومن ثم يسافران في الصباح إلى القاهرة حيث بيت الزوجية.

كانت آصال قد أحجمت باستماتة عن إقامة عرس واكتفت بعقد القران في بيت جدها لأمها الذي ترعرت فيه؛ تكره تلك العادات التي لا تزيد عن كونها مظاهر باهتة مكررة؛ فلا تكاد تُفرق بين واحد والآخر: مهرجان محلي لألوان الملابس، زينة

وجوه متكلفة، رقص أشبه بزار شعبي لنفض الروح، ومراسم مقلدة بالحرف والمغنى والحركة والترتيب، وإن تكن العروس مغصوبة على الزيجة أو العريس مسلماً أمره لأهله!

لم تمهلها أمها الرفض ذاته لثوب الزفاف الأبيض؛ فألبستها إياه عنوة، وهي تكاد تجن لمحاولتها ادعاء البساطة والتهرب منه، وهي البكر!

- ماذا ليقول الناس عنا؟ ألا يكفينا شر ألسنتهم لعدم إقامتنا لحفل وأنت لم يسبق لك الزواج، وزوجك ليس معوزاً لئلا يفعل؟!!

تبهها أمها إلى حقيقة الناس فتكرههم أكثر! وترجوها وضعهم خارج الاعتبار؛ فلا يهملها ما قد توسوس به صدورهم ناحيتها. ثم تحاول ترضيتها وإعفاءها من الحرج، بحجة معقولة تكف عنها ألسنتهم التي تُسيّر الحيوانات؛ فهو قد سبق له الزواج! لكن لم يبدُ تبريرها كافياً لإقناع أمها؛ فإذا بها تواجهها في شراسة:

- قد تكرهين نميمة الناس وتدخلاتهم يا أصل، يحق لك. لكنك تخادعين نفسك حين تدعين عدم الاهتمام بهم؛ أنت تهتمين يا حبيبتي، وهذا طبيعي، ليس بعيب. تتصرفين في كثير من أمورك على هذا الأساس، وأقرب شيء الحادث الذي تخفين حقيقته إلى الآن عن المقربين منك، حتى جلال لم تفتاحيه بشأنه رغم أنه معني به!

- ذلك لأن حياتي ليست مشاعاً؛ ليس من حق أيّا كان التدخل بكل بساطة في شأني.

- لكنني أحللتك من الوعد، قلت لك مراراً تكلمي لعلك ترتاحين. لكنك تخشين أحكامهم ونظراتهم؛ أي تهتمين.

- صدقيني، لا أهتم بأحد غيرك يا روحية، لهذا لبّيت لك

رغبتك.

تقربها أمها إليها في حنان لم تعهده من سواها، وتسألها:

- هل لديك شك يا حبيبي أني ما طلبت منك ذلك إلا لمصلحتك ؟

التوت شفتا آصال في امتعاض، مجيبة:

- لا أشك في نواياك الطيبة يا ماما، لكن أشك أن هذا الزواج في مصلحتي.

تنهدت روحية وسكتت بعض الوقت، ثم قالت كأنما لم تسمع جملة ابنتها الأخيرة:

- كل ما أود قوله يا آصال إننا لا يمكننا الشذوذ عمن حولنا دون أن يصيبنا ضرر، ولا أتحمل أن يمسسك سوء يا حبيبي.

(لو أن الأمر يخصني وحدي؛ سأتحمل كل السوء الحاصل عنه، لكن لأجلك، أرخيت القبضة والحبال.. مجدداً يا أمي!)

تتفرس عينا جلال ببطء وتلذذ في شفتي زوجته الغليظتين، تعلق بهما بقايا حُمرَة شاحبة. يداعب أنفه حبيبات النمش البنية الصغيرة على أنفها وحول حدوده أعلى وجنتيها، راحتاه تجولان على ثوبها المحكم على قدها الرشيق بضيق هائل، منسدل بخط مستقيم صارم؛ فالفرجة تنورة واسعة! استغلّت آصال تفرق نظراته وانشغاله عن عينيها لتتخطف ملامحه؛ تمر حدقتها بسرعة على تشابك حاجبيه الكثين، انبعاج أنفه الطويل، ترقق شفتيه، وتضاؤل ذقنه في مواجهة عرض جبينه. ثم ما لبثت أن أقلعت عن مطالعة قسّمات وجهه، متحاشية النظر بالأخص إلى عينيهِ العسليتين العميقتين، تنفّادي محاولتهما إعادتها إلى أيام

لا تود تذكرها. وعلى عكسها، بقي جلال لفترة آيًّا إفلاتها؛ يلاحق سكناتها وحركاتها، ويحسب أنفاسها بين الزفير والشهيق، مستفزًا من فتورها التام. ولما تعاضم شوقه البائن عندما التقت بالكاد نظراتهما؛ نكست آصال وجهها سريعًا وأجلت أحبالها الصوتية المنهكة من الغصة، متممة:

- لا تأمل في الليلة.. أرجوك.

تلاقى حاجباه في استغراب سكن عينيه لكنه لم يفرج عنه وهو يسأل بابتسامة متشككة:

- هل أنت متعبة؟

تصلبت ولم يبدر منها جواب، ليتسلل اسمها من بين شفثيه الرقيقتين يحمل طابع صوته الأجش، مداعبًا أذنها بخفة قصدها وهو يضمها إليه في رفق:

- آصال. لا تخشي شيئًا، سأكون رقيقًا.

عضت على شفثها بقدر يجبرها على البقاء بين ذراعيه دون آهة نفور، وقالت برجاء مستتر:

- أرجوك، دعني.

- ما خطبك يا آصال؟ ظننتك ستكفين عن تباعدك بعدما تصيرين حلالي!

تململت أمام سؤاله المباشر، فيما طالع خواء نظراتها باستفهام ملح:

- ما الأمر؟ لماذا تحاولين التهرب مني؟

ظلت ملامحها جامدة دون أن يغادر شفثيه المضمومتين بقوة حرف واحد، فأفلتها وقال ممتعضًا:

- أتفهم حياء العذارى، لكن أدرك جيدًا أنه ليس السبب.

دلف إلى الحمام الملحق بغرفة الفندق في انفعال مكبوت، بدل
ملابسه على عجل، وعاد ليخلع عويناته على الكومود ويعتلى
الفراش، مديرًا لها ظهره؛ فغادرها الهدوء الذي اجتهدت طيلة
الليلة لإبقائه على خطوط وجهها، وأولته ازدراءها الذي شمله
من قمة رأسه حتى أخمص قدميه المتدثرتين بالغطاء، وبقيت
واقفة في ثوب لم يمس بياضه، في منتصف غرفة تجمعها بواحد
لم تظن أنها ستنتهي معه، بعدما أفرطت في الهرب.

- سأشترط عليه شرطاً في العقد يا ماما.

خبطت روحية على صدرها بيدها في فزع، وهتفت في تحذير
مبالغ فيه، مخافة تهور من ابنتها تضرب به عرض ما تقول؛
كعادة بعض أفعالها.

- هل جنتِ؟ إياكِ. البنات المحترمات لا يطلبن توقيع أزواجهن
على شروط! هذه قلة أصل لا تليق ببناتنا. لا تتسبى بفضيحة
لنفسك وله، لن ينسى الناس فعلتك، ولن يسامحك عليها أبداً.

صاحت آصال في عصبية محفوفة بالغضب:

- ما هذا التهويل؟ إنه حقي الشرعي!

- حقك مصون، سيحافظ عليك دون قيد أو شرط.

هدرت في تجلد:

- مثلما حافظ عليك غيره، أليس كذلك؟

عاتبتها أمها بعينيتها في رفق، وهي تلين القول:

- جلال من خيرة الرجال يا آصال، وأنت من دمه، لن يسيء
إليك.

رنت ضحكة آصال ساخرة في قلبها المجوف:

- ماذا رأييت أنت بالذات لتحسني الظن؟

- تشردين كثيرًا يا آصال! بالكاد سمعتني بعد المرة الخامسة التي ناديتك فيها.

طالعت آصال زوجها في حدة إثر انتباهها إلى قوله، فيما فضحته عيناه موفرتين عليها السؤال الذي همت بإلقائه عليه؛ فأسرعت بالتمنع قبل أن يكشف عن غرضه، لكنه لم يعفها من الحرج هذه المرة:

- صبرت عليك كثيرًا يا آصال! ليس كل الرجال مثلي لو تعلمين.

تقلبت عينها ببطء في محجريهما الضيقين، واجتاحت الغرفة حرارة مباغتة بزفرة حانقة منها وهي تسأله في تهكم:

- هل تعلم أنت قول الله تعالى «وعاشروهن بالمعروف»؟ هل المعروف أن تأتيني على غير رغبة مني؟

قطب حاجبيه في انزعاج من يستعصي عليه الفهم:

- هذا ما أريد فهمه! لماذا لا ترغبين؟

أخفت ارتعاضها من حديثه، وأجابت في هدوء:

- أنا لست مثلك، أرجوك تفهم الفرق.

زمجر وهو يشيح بكفه في وجهها ويغادر الغرفة غاضبًا:

- لا يمكنني أن أكون أكثر تفهمًا، تفهمي أنتِ.

تتهدت بعمق، ودعكت جبينها بقسوة تدرك سببها. تدمدم: (لن ننتهي حتى ينال مراده!) وتتمنى لو أنها قادرة على منحه ما يريد لإعفاء كليهما من الحرج، لكن الأمر ليس هيئًا عليها؛ ليس بعد كل ما جرى! تستطيع ممارسة كل شيء مع الرجل أو حتى ضده، إلا الحب! هذا النوع بالتحديد من الحب.

والآن، تنظر إلى رقدتها على فراشه، وتفكر جدياً في ضرب رأسها في جدار البيت الذي جمعها به. ويل لها! ربطت قدميها بحجر ثقيل وألقت بنفسها في اليم، مُنْهية أنفاسها القليلة المتبقية في مقاومة لم تبذل فيها الجهد قاصدة! ورقدت في القاع، مُسلمة الروح لذنبها الوحيد وفرحها الأوحْد؛ أمها. لتتزوج بابن خالها الأربعيني المطلق؛ أفضل ما تستطيع الحصول عليه في هذه السن! بشهادة الجميع وهمسات النساء الملحوظة ليلة عقد القران وحسرتهن البائنة على حظه المتواضع؛ فقد كان بإمكانه أن يحظى بمن هي أصغر وأحلى وأكثر أنوثة منها: هي النحيلة، طويلة القامة، عادية الملامح، ولو كانت سمراء أيضاً لانتهى أمرها!

(كُلي، ارجعي إلى مقعدك وكُلي عليكِ اللعنة، هذه وجبة فأر! أطعميها يا امرأة، إنها طويلة ونحيلة كنخلة، لن ينظر إليها رجل؛ ستبور، وأموت وأحزن في قبري، دون أن يُصان شري)

ألجمت دموعها المقهورة، وتمتمت بصوت خافت؛ لئلا يسمعها جلال الذي عاد إلى الغرفة بعدما أغلق زر الإضاءة:

- فلترتج في قبرك يا أبي، النخلة تسترت وصانت شرفك.

- ماذا تقولين؟.

سألها جلال وهو يضجع إلى جوارها، فتقلبت على جانبها واقتربت من حافة الفراش أخذة أضيق حيز ممكن، مغممة:

- تصبح على خير.

حركة خفيفة إلى جوارها، انكشمت بعدها لملمس شفتيه المفاجئ بمحاذاة ثغرها. جثم عنوة مستغلاً عامل المفاجأة؛ يعانقها في شوق ويهمس برغبة محتدمة:

- لم أطفئ النور لننام.

أفرزت مسام جلدها مزيجًا فورًا من القرف والدهشة لديها، تكاد تنبعث منها رائحة نفاذة كعرق الجسد المُر. عيناها متباعدتان عنه عن عمد، وحركتها هامدة إلا من انقباض يديها على الملاء بشدة وذُعر كدجاجة مُساقاة للذبح، ووعيتها بين الصدمة والقرار؛ يجبرها لإراديًا على التسليم لأشرس كوابيسها (إنه زوجك!) لا تجوز المقاومة (لا أطيع كلينا في ذات اللحظة) ذاك حقه يأتيه متى يشاء (لن أغفر له الغدر والإتيان بالقوة!) بأي طريقة أخرى كان ليتم الأمر؟ هل كانت لتسلم أبدًا لو لم تُؤخذ عنوة؟ هذه زاوية مناسبة للنظر إلى الأمر، حجة فعالة لتقبله.

أطبقت فمها في قوة تمنع الاستغاثة، وودت لو تدس الوسادة في وجهها؛ تقي عينيها شر المنظر وتكتم أنفاسها المتلاحقة. يطغى عليها شعور ثقيل بالاشمئزاز من ريقه على مواطئ جسدها، ثقله في انكبابه عليها، تعريته لها من ستر ملابسها.. حياتها، حرمة جسدها! ليس من السهل التخلي عن الطهر، وبلا ترضية؛ لن تبلغ إلا ذروة الألم.

طفق جلال يهمس مستلذًا:

- لا تخافي، لا تخافي، هيا، لا تتخشي يا أصال. ساعديني، ستكونين بخير.

سددت نظراتها ناحيته ببطء وحدة، طالعها في بادئ الأمر متفهمًا، لكن سرعان ما استشعر أن هذه ليست سحنة امرأة همها الألم أو الخوف! جمدت حركته ولاح ارتبأكه لبرهة وقد زم شفتيه في تردد؛ كأنما كان يتحدى كبرياءه أن يقوم من فوره عنها! غير أنه باشر مهمته في الفض سريعًا كالمتنمر، بهمة عظيمة، غيظًا أو احتجاجًا، أم ربما تنكيلًا بها؟ لا تعرف لكنها رجحت

القسوة.

استلقى أخيراً إلى جانبها بأنفاس متقطعة وجسد مُشبع ونفس غير راضية. ثم قرب وجهه من وجهها النافر، وطبع قبلة آلية على جبينها المتعرق، ممعناً في قرص وجنتها، وقد ندت عنه غمغمة رقيقة لا تخلو من جمود:

- أحسنت. مبارك يا عروس.

تجفف شعرها بعناية وروية، ثم تتمهل في إحاطة عينيها الضيقتين بكحل أقل قتامة من النظرة التي تنعكس منهما! وتزيد العينين ضيقاً بتقطيعة الحاجبين، ثم تضبط هندامها على جسدها الذي عرف الطريق إليه - وبرضاها - رجل! فأخلف عليه لمساته وشهقاته المكتومة وماءه. تفعل كل شيء على مهل، في تراخ، لعلها تشغل بالأشياء الظاهرة فيها، مُحاولة الالتئام بها عن الأشياء الراقدة تحت جلدها: الحواس التي غفت في الدقائق الفائتة؛ تخشى إن صحت وعرفت كيف أخذ منها ما أخذ! لو صحت، ربما لتموت في الحال! لتكتفي بكونها آلة كما تعامل معها، وقد أدت الآلة مهمتها كما اتفق، الآلة لا تفكر أو تشعر. هذا مريح.

إلى أي مدى كانت تتوقع أن يصل صبره؟ وأن ما حدث لن يحدث؟ لكن الأهم: إلى متى سيظل يحدث؟ تخشى أنها قد لا تحجم شعورها بالانتهاك والمهانة في مرة أو مرات، فتصدده بالغضب وتدفعه عن عرضه! كيف ستعيش مع الهتك الحلال؟ تخبيئ ثدييها تارة وتضم ساقها تارة أخرى، وترتبك يداها ولا تصلان لكل ما تودان تخبئته، فتفلتها عنها، وتلتصق بجائط الحمام؛ يعافر كتفاها لإفساح مكان لها داخله، عله يستر ما لم يستره القماش على جسدها.

مسحت بخار الماء العالق بالحائط باحتكاك ظهرها عليه،
لاختلال قدميها عن حملها، وهوت في عنف ودموعها تسابق
وقوعها على الأرض الباردة؛ أسراب متدافعة من الماء المالح
تنهمر على وجنتيها في قوة وإيحاء الشلالات! طفقت تمحوها
ويأتي المد في سرعة وشدة، كأن شيئاً لم ينمَح! كانت تزداد كلما
أدركت أنها تملأ وجهها دون استجابة لشعور ما منها. لا تحس
بشيء، صار الإحساس عصياً.

أحكمت أصال غلق باب الشقة بإرهاق بادٍ بعد تغييبها لساعات في الخارج. كان جلال قد عاد قبلها على غير العادة، وقف في استقبالها وهو يتفحصها بتعجب، مطلقاً في أثر خطواتها تجاهه صغيراً منغمّاً، لتمرّق بسمّة عفوية على شفيتها، تلاشت فورما استوعبت تهكمه الذي ظنته غزلاً في بادئ الصغير.

- ليتكِ تتجملين هكذا لأجلي كما تتجملين للناس.

ردت في تحفز:

- أنا لا أتجمل لأحد.

- لكن هذه الملابس التي تخصصينها للخروج تشي بأنوثه ورقة تقضي عليهما منامات البيت وجواربك الملونة السمكية.

تأذت من تلميح الساهر وابتسامته الماكرة، تستطيع أن تتزين وتدير رأسه بسهولة لكن لا تعنيها الطريقة التي ينظر بها إليها، ولن تجتهد لنيل إعجابه. حاولت أن ترد له الإهانة؛ فلم تتحجج أو تتدل، بل أكدت على تعمدها ذلك، متتهدة في راحة:

- لا أكاد أصدق العودة إلى المنزل لأبدل بملابس العمل تلك السراويل والسترات القطنية المريحة.

- قولي لي شيئاً لا أعرفه! وتعودين أيضاً مرهقة وغير رائقة المزاج. لو تركتِ العمل ستجدين حينها وقتاً وبالاً للكثير من الأشياء التي تهملينها بسببه.

طالعه في استغراب لتذمره الواضح وهذيانه حول ملازمتها

للمنزل؛ ستروقه حقًا! طموحها أقل من المئة والخمسين مترًا مربعًا مساحة الشقة!

- ليكن في حسابك: هذا شيء لن يحدث أبدًا. أنا أعمل منذ نعومة أظفاري، العمل صار جزءًا من روحي، لا يمكنك انتزاعه مني.

- لم يهملك حتى أن تسألني عن إهمالك!

تكره أعمال المنزل المتكاثرة دون أمل في فوائدها، لطالما تركتها على كاهل أمها إلا قليلًا، لكنها أخذت تبذل جهدًا مضاعفًا على غير عاداتها منذ زواجهما، تفاديًا للسماح بأن يؤخذ أي مأخذ عليها، لينعتها هو الآن بذلك بكل بساطة واستنكار!

- من فضلك لا تقل عني مهمة، لستُ مقصرة في المنزل. أقوم بواجباتي على أكمل وجه.

- فليحرق المنزل! هل هذا هو مفهومك عن الزواج؟ أنتِ حتى لا تدعين بعض الاهتمام بي أنا، مهمة في حقي أنا، لا تقومين بواجباتك على أكمل وجه نحوي أنا. أنا!

طالعه بنظرة جانبية طويلة، تستوضحه في تعالٍ عن شكواه، ليلوح بكفه في نزق:

- أستغرب والله أن العروس التي رفضت الاحتفال بزفافها، لا تطلب كذلك إجازة زواج، بل وتباشر عملها في شهر العسل الذي لم تهتم أيضًا بالسفر لتقضيته في أي مكان، كأنها سفيرة أو وزيرة لا غنى عنها! هل هذا طبيعي؟ لماذا تتعاملين مع زواجنا كأنما هو يوم وانتهى قبل الصباح التالي؟ كيف لا تدركين أنه حياة جديدة يجب أن تستقبلها وتتعاملي معها بشكل آخر أبعد ما يكون عما تفعلينه هذا؟ لا أحب أن يفوق اهتمامك بي أي شيء أو أي شخص. اتركي عملك هذا الذي يشغلك ويملاً حياتك إلى هذا

الحد، اهتمي بي وببيتك.. حياتك الحقيقية هنا.

- أنت مُصرِ إذن! لماذا؟ لماذا يا جلال ترى أني ما دمت تزوجتك
فلا حاجة لي لشيء سواك وسوى خدمتك؟ لماذا ترى أن منزلك
كافي لي لتقضية بقية العمر؟ أي فكر رجعي هذا؟!
- انتبهي إلى كلامك يا آصال.

أشار بسبابته في وجهها محذراً، فلانت لهجتها لإرادياً:

- قل لي لماذا إذن؟ ألأن بعض إناث غايتهن عريس أو طفل؟
هذه ليست غايتي ولا يفترض أن تكون غايتهن، كلنا مدعوون إلى
الكدح، كلنا، ذكوراً وإناثاً.

شدت على كلمتيها الأخيرتين فتلاقى حاجباه في استغراب،
وقال:

- لست بحاجة إلى الكدح، أنا أعولك. هل طلبت شيئاً لم ألبه
لك؟

التوت شفتاها بنصف ابتسامة؛ لا تدع له فرصة ليفعل
ويتصدق عليها بمصروفاتها الشخصية؛ ليملكها ويسيرها ويعايرها!
راتبها تزايد به على سلعة لا ترغب في بيعها لقاء ماله، تقايض
به استقلالها وعوزها؛ تعلمت أن المال مذل عندما تصل المرأة
إليه عن طريق صاحبه.

- الكدح ليس مرادفاً للمال يا جلال. ثم ما أدراك أن هذا هو
همي الوحيد؟ لماذا تعتقد أني لست من الغرور البشري بحيث
أريد أن أشكل فارقاً وأترك بصمة، أن أتميز؟ هذا حق مكفول
للإنسان على حد علمي.

- يمكنك أن تترك بصمتك على أشياء أخرى، أكثر أهمية لي
ولك.

- مثل ماذا؟

أطرق رأسه لوهلة في تردد طفيف، ثم رفعها ليجيب بثقة؛
الإجابة الأبعد عن مخيلتها، إجابة لم تكن في انتظارها، عندما
عقدت ساعديها أمام صدرها وسألته بتحدٍ!

- طفل. سيغنيك ويلهيك عن العمل.

- طفل! ومن قال إني حينها سأكتفي بذلك؟ هل يمكن أن نكتفي
بأسرتك لو لم تكن بحاجة إلى المال كما تريد مني أن أفعل؟

- دعينا لا نضع الوقت في جدل مراهق؛ الأمر مختلف..

توقعت أن يدافع عن مهنته؛ رسالة سامية لا يزاولها من أجل
المال فحسب، واستعدت لتقليله من شأن فنّها؛ باعتباره لا يرقى
إلى مقارنته بالطب! حينها لن تسكت، ستدافع عن عملها وشأنها.
(أنا فنانة!) ليست بمرضة أو طبيبة امتياز تكتفي بمشاهدة
الجراح العظيم يفعل كل شيء، وينحصر دورها في مده بالأدوات
اللازمة لذلك وتجفيف عرقه! لكنه في الواقع لم يتطرق لهذا
قط؛ كانت لديه أسباب أخرى، اختصرها في كلمة صريحة ونافذة:
- أنا رجل.

حاولت التماسك بدون جدوى، لكن قطرت كلماتها حقداً
دفيئاً، متحدية الماضي والحاضر:

- وماذا بعد؟ لماذا لم تكمل حديثك؟ طبعاً لست في حاجة إلى
ذلك؛ كونك رجلاً يتر كل الأحاديث فعلاً! يفترض أن أضع لساني
في فمي الآن وأسكت، أليس كذلك؟ لا مجال للمقارنة بالفعل!

لم يرد، ممثلاً نفسه بالثبات، فسكتت بدورها والتقطت نفساً
عميقاً، ثم قالت في تصميم:

- أياً كان يا جلال، لن أترك الورشة، ليس دوامها يومياً على أية حال، وقد كنت واضحة معك في هذا الشأن، وأنت وافقت - تابعت بصبر نافذ - يكفي أنني تركت عملي بينك المنصورة.

- حسناً، ما دمت ستمكنين من التوفيق بينها وبيننا.

استجاب لها بسهولة لتومئ في ثقة، حائرة في الوقت نفسه من استخفافه الواضح.

- بالتأكيد.

استدرك: وما دمنّا سنوقف وسيلة منع الحمل التي نستخدمها.

يستثير أعصابها المرهقة فلا تستطيع التماسك:

- جلال! هل تحاول لي ذراعي؟ لم يفت على زواجنا شهر واحد! وقد اتفقنا على تأجيل الإنجاب لفترة ممتدة لا تقل عن سنة حتى نتأكد من رغبتنا في العيش معاً دون أن نكون مدفوعين بطفل؛ لماذا غيرت رأيك؟

- نحن لسنا صغاراً لنتنظر كل هذه المدة. أعرف أنك خائفة وقلقة من المسؤولية، لكنني...

تدلى فكها بطريقة فجأة من الصدمة، وصاحت في اندفاع:

- عمّ تحدث؟ يا إلهي! ألم تكن تعرف أعمارنا عندما سايرتني ووافقت بينما تضمّر الرفض؟ تظنني طفلة تضحك على عقلها ولا تأخذها على محمل الجد! لماذا لم تتناقش معي وتبد رغبتك هذه؟ هل تتصور أن التأجيل تحصيل حاصل؟ افهم. لا أريد أن أتسبب لطفل بالحرمان من حياة طبيعية سوية بين أبويه؛ لأنني لن أتنازل لو لم تنجح زيجتنا، لن أضحي بنفسي، هل تفهم؟ لن أفعل؛ لا أخشى الطلاق ولن أتردد فيه.

قطب حاجبيه في ضيق، وارتفع صوته وهو يقول:

- لا أريدك أن تنطقي هذه الكلمة مجددًا، أتفهمين؟

لوحث بكفها بلا مبالاة متعمدة، وقالت في حدة:

- لا، لا أفهم، أنا لست كغيري من النساء سأنطوي تحت جناح رجل. لن أدعك تسيّر حياتي كما تشاء، بيننا اتفاق ولا يصح أن تتراجع عنه، احترم الوعد الذي قطعتَه على نفسك.

أطبق جفنيه لبرهة وهو يزفر في حنق:

- كفى! اصمتي تمامًا.

- ماذا يعني هذا؟ لن...

- صه، إنه خطئي. لا أصدق كيف تفكرين! هذا الموضوع لن يُفْتَح ثانية.

حاولت الاعتراض فألزمها الصمت، وهو يستطرد بقرف لم يحاول أن يخفيه:

- اتفاقنا سارٍ، سألتزم بكلمتي، هل استرحتِ؟

- نعم.

لم تخف بدورها تنهيدة هائلة أغاظته، وإن أبدى غير ذلك بقوله الفاصل:

- عظيم.

قامت أصال بتثبيت قماش سميك مبتل على إطار خشبي، وأخذت تشده ليتخذ شكل سطح الطبلية بدبايس الضغط، ثم عزلت القماش بوسط مائي؛ دهنته بشكل أفقي ثم بشكل عمودي. ولمدة ساعة - حتى يجف تمامًا وتبدأ في الرسم - أخذت تحرك أناملها في الهواء، بثغر مضموم، وعينين مبجلقتين، وفتحتي أنف متسعيتين عن آخرهما، وأنفاس متسارعة؛ تبصر في مخيلتها ما ستكون عليه لوحاتها هذه المرة، ثمة صورة من ذاكرتها تتحرق شوقًا لارتداء ألوانها الزيتية، ووحدها روحية سترى في المرأتين المتعانقتين بحب؛ مُنتهى البُعد والقسوة!

- لا تتعبي نفسك معي يا ماما، قلت لا يعني لا. يا لطول بالك! ألا تياسين يا روحية؟

ابتسمت روحية في ترغيب وغمزت بعينها:

- هذه المرة الأمر مختلف؛ إنه جِلْجِل. الدكتور جلال المهدي على سن ورمح.

ضحكت أصال في استخفاف:

- وفيم يختلف إن شاء الله؟ ليس أفضل من تقدموا لي على أي حال؛ هل تذكرين ذاك الطيار الوسيم؟

- هذا كان حين كنتِ في عشريناتك يا أصال - استدركت مرتبكة - مصيرك أن تزوجي يا حبيبتى مثل كل البنات؛ وخيرهم جلال.

اربد وجه أصال:

- مصيري! رَغْمًا عني؟ - أردفت بلهجة قاطعة - أنا وحدي أقرر مصيري .

- تفهمين قصدي. لا بد أن توافقي طبعًا.

لوحث في عصبية:

- لماذا؟ أَلَسْتُ أَنْتِ موافقة والناس موافقون وجلال موافق بالطبع؟ هيا إذن، خير البر عاجله، توكّلوا على الله. بالرفاء والبنين... افهمي، أرجوكِ افهمي، لا يهمني إن كان خيرهم أو الأَخِير على الإطلاق، رفضي لم يكن بسبب أبيهم وهو ليس استثناء؛ لستُ راغبة في الزواج وحسب. أريد أن أعيش معكِ أنتِ، هل تستكثيرين عليّ أن أعيش هانئة ومرتاحة؟ العيشة مؤذية مع شخص ينصب نفسه سلطة عليا على شريك حياته.

قبلت روحية يد ابنتها بشفاه لاهجة ودموع مسترسلة، فسحبت الأخيرة يدها في جزع، وجثت تحت قدميها، ملتاعة، غارقة في الدمع، ينفطر قلبها على اثنتيهما.

- يا ماما، حرام عليكِ! لماذا تفعلين بي وبنفسك هذا؟

تعالى نحيب روحية:

- سأموت قبل أواني عالمة أن ليس لكِ غيري، وستبقين بطولك بعدي، سينهشونك ولن يوقفهم أحد يا أصال، أنا مرتعبة، وأشعر أن أجلي يقترب.

رفعت أصال عينيها إليها في لوعة:

- بعد الشر عنكِ يا ماما. أتحسبين أنني أستطيع العيش يومًا واحدًا بعدك؟ ربنا يجعل يومي قبل يومك.

- اسكتي! لا تقولي هذا، لا تقولي هذا ثانية.

أخذت آصال تضرب على فخذي أمها، وتقول بينما رأسها مدفون في حجرها:

- يا ماما لماذا لا تفهمين؟ لن يعوضني أحد عنك ولن يحل أحد محلّك، خصوصًا لو كان رجلًا. أفهمي! ألحت عليها:

- لكن جلال رجل طيب، والله رجل طيب؛ سيحفظك ويحميك من كل شيء، ويطمئن قلبي عليك في مثوأي، وليكن حتى من أجل ولد أو بنت؛ ترتكني إليه ويطمئنني عليك. طيلة هذا الوقت لم يحيني سواك يا آصال، فلا تميّتيني عليك الآن يا حبيبتى. لأجلى يا نور عيني، لخطري.

حاوطت آصال ساقَي أمها بذراعيها، وألصقت جانب وجهها إليهما في خنوع ووجل. عيناها تفيضان بالدمع، وقسماتها لا تسكن في حنق وقهر على نفسها وأمها.

(هذا المجتمع اللعين ورّث زواج بناته قسرًا حتى لو لم يدعهن إلى ذلك سبب أو رغبة!)

لا تود تتبع العادات كالخراف في قطيع لو لم تكن وجهتهم مقصدها، وهي لم تكن بأي حال؛ ليست واقعة في حب أحدهم ولا تحسب أن بإمكانها ذلك لو أرادت، ولا تود أن تكون أمًا، لا تشعر بأدنى رغبة في الأطفال؛ كم يخيفونها! لا تريد أن تتخذ شريك في حياتها سوى هذه المرأة التي ترقد تحت قدميها؛ لماذا قد تتزوج إذن؟!

لعقد ويّف تشددت وتخلفت عن ركوب الموجة السائرة، بلا اهتمام أو خوف أو تمسح في رضا الناس، حتى مع السنوات الخمس اللاتي بلغتهن بعد الثلاثين. صرفت نظرها وبقية حواسها عن اللقب الذي تعرف حق المعرفة أنهم يطلقونه عليها خلصة

في الجلسات المغلقة. يلمحون به في حضورها في صورة أماني ورجاءات غليظة، نمطية (كالهراء الذي يسكن في أمخاخمهم ولا يفسح مكانًا في نفوسهم للفهم والرحمة).

وبدورها حاولت أمها تليين عشريناتها، مرارًا دون يأس، وبلا استجابة مقابلة، متحجة أبدًا أنه لم يسبق أن جمعها بيت برجل سوى أبيها، فأثَّ لها أن تحكم على بقيتهم ولم تجمعها بغيره تجربة؟! لكنها كانت في غنى عن هذه التجربة حتى ولو أثبتت شيئًا آخر؛ حلم بعيد كانت تظنه في يوم ما لا يعدو كونه حقيقة، كان يراودها مرات في زمن سابق، ولم يعد كذلك.

هدأت زلزلة جسديهما، فرفعت روحية ذقن ابنتها وأبعدت وجهها عن ساقبيها، ثم نزلت على الأرض بحملها من الخوف واللهفة، ورقدت إلى جوارها محتضنة إياها لتبادلها آصال الضمة، حتى كادت تكسران عظام بعضهما البعض.

تُحط آصال عناق المرأتين بالقلم الرصاص، ثم تحدد مواضع الأضواء والظلال. (لو قالت لي أمي: «ألقي نفسك في البحر». لفعلتُ). تتقل لأرضية اللوحة والمساحات الكبيرة، بينما يتسارع نبضها وتنفسها. تكشف الألوان بسكين الرسم؛ ضربات واضحة وبارزة عن اللوحة. (لشد ما تحملتُ هذه المرأة! بقيتُ سجينتي وهي الحرة الطليقة). تلون الخطوط البارزة والتفاصيل الدقيقة بفرشاة صغيرة، يرتفع ضغط دمها وتتورد وجتها ورقبتها. تمزج الألوان بزيات الكتان بقدر ضئيل لتصير أغمق وأغلظ وأقل شفافية. تنتهي؛ تبلل شفيتها بلسانها، تنهد في راحة منتشية، تجف جبينها وجانبي عنقها المتصبين عرقًا، تتباطأ سرعة تنفسها، ينتظم معدل ضربات قلبها، وتغمض عينيها مستلذة!

راحت آصال تمسح فرشها الواحدة تلو الأخرى على قطعة قماش مستعملة، ثم باشرت بغسلها بالترتيب بصابون سائل تحت ماء الصنبور مستخدمة قعر يدها، حريصة على ألا تتفرق الشعرات أو يتبعثر منها توزيعها، فيما كان جلال يناديها مرة تلو الأخرى؛ طالبًا كوبًا من الماء. ضغطت على طرف الشعر في رفق، كما لو أنها تستعمل الفرشاة للرسم على اللوحة، وقد أخذ يرفع من صوته أكثر بعد كل مرة لا تجيب نداءه، وتشتد نبرته كلما أتاه صمتها. تنهدت في عمق؛ حصلت أخيرًا على رغوة بيضاء غير ملوثة.

- يا آصاااااااا!

مسحت الريش جيدًا بالقماش حتى تزول الرطوبة عنها، ووضعت الفرش مقلوبة؛ اتجاه الشعر لأعلى في كأس خصصته لها، وخلعت المريولة الملطخة بالألوان، ثم اتجهت إليه بخطوات عفيفة، مصرة على ألا تمرر طلبه ككل مرة سبقتها واستجابت فيها بنية حسنة، غير مدركة الصورة التي تكونها في عينيه وجل ما هي عليه؛ غانية وشغالة! تعاملها كان أطيب من اللازم مع وكالته لها كل الأعمال دون أن يحرك ساكنًا أو يكلف خاطرًا. تتميز غيظًا كون من تؤمن أنه أفضل الخلق كان يخدم نفسه دون تفضل منه على أهل بيته، رغم تعبها وانشغاله بأسمى رسالة في نظرها. فكيف برجل سليم معافي ذي قدرة مذهلة، لكنه يضعها في حنجرته عوضًا عن قدميه الممددتين بعبث على الأريكة في غرفة الجلوس الملائقة للمطبخ! لتعلمنه إذن أن صنف النساء اللائي يقضين اليوم في تلميع الأواني الفضية ودعك أقدام أزواجهن

بالماء المالح، قد انقرض.

قابلها بتجهم:

- ألا تعرفين أي أكره أن أناديك فلا تردين عليّ؟

(وماذا عما أكرهه أنا؟)

سألته في حدة ما إذا كانت أخته نادرة قد ساهمت في تحوله إلى عاجز؛ بتلييتها كل طلباته وتصرفاتها الأقرب إلى تصرف الخادمت! لينتفض في جلسته ويهب واقفاً في منتصف جملتها، حتى إنها أنهتها بارتباك. النظرة التي سددها إليها كانت كفيلة بأن تقتلعها من مكانها، وترجعها إلى الوراء بضعة خطوات، مع اقترابه منها في غضب جلي.

- كم مرة سأتغاضى عنك واضعاً في اعتباري أن والدك لم يكن موجوداً ليحكمك ويريك ويعلمك كيف تتحدثين إلى رجل؟ كم مرة؟!

أدركت متأخرة تجاوزها لكن تنكرت له استياءً من معايرته لها بأبيها الغائب وذم تربية أمها لها.

- لا أسمح لك!

جز على أسنانه، محاولاً تمالك أعصابه:

- لا تسمح لي لنفسك أولاً، ولتعلمي أنني لن أستطيع معك صبراً طويلاً، ولن أكون رحيماً بك لو أسأت الأدب مرة أخرى.

هزت رأسها بغير تصديق، فتناثر شعرها على كتفيها بدون ترتيب في حركة عنيفة موحية بالدهشة:

- رياه! بالله عليك هل ستقبل لو أردت شيئاً أن أناديك من مكاني وأتزعك من أي ما كنت تفعله، ولا يهم سوى أن تأتي إليّ

بمجرد النداء لتأخذ طلبي وتحضره لي؟ بالطبع لا، أليس كذلك؟
ولا تقل إنك متزوج لهذا الغرض خصيلًا - رفعت هامتها في إباء
- أنا لستُ خادمك، إن أردتُ شيئًا أحضره لنفسك.

- لا تحاولي تغيير الموضوع، والله سأعاقبك كطفلة صغيرة
قليلة الأدب.

امتقع وجهها لعصبيته الشديدة:

- ماذا تظن نفسك؟ كيف تتقص من قدرتي بهذا الشكل
المهين؟ لماذا تقبل على غيرك ما لا تقبله على نفسك؟

رفع حاجبيه في غرور مقصود:

- ليست مسألة قبول. لا تجرئين أصلًا.

هتفت بصوت يشبه البكاء:

- إذن لا تفعل أنت أيضًا!

ضرب كفًا بكف وهو يقول في استخفاف:

- يا ملكة الدراما! ألا تكفين عن تأدية دور الشهيدة؟

استنشقت دموعها غير المُدْرِفَة، وأجابت في تحدٍ:

- ليس قبل أن تقتنع أن بإمكانني تأدية دورك أنت.

- أي دور هذا؟

ردت ببساطة:

- دور الإله.

- أستغفر الله العظيم !

- أنا أشير إلى معنى؛ هذا البرج العالي الذي تتخذة لنفسك.

زفر في قوة حانقًا:

- وماذا بعد معك؟ لقد بات الأمر سخيًّا وماسخًا، أنا أملّ بسرعة ولا طاقة لي على عوجك وإغفالك أبسط الأشياء في تكوينك. تفهمي الفارق بيننا وتقبله لترتاحي وترتاحيني.

- الفارق بيننا! الفارق بيننا!

جعلت ترددها بعجز عن التصديق أو المواجهة، ثم لوحث في قرف:

- هذا ليس ذنبًا ولا ذريعة لك.

أمسك صدر فانلته القطنية ومطها في عصبية، مشددًا على مخارج الحروف:

- نهايته يا أصال لأني أكره المجادلة البطالة؛ افهميها كما تشائين لكن لن تتجادل طول العمر بسبب هذا الأمر.

هزت رأسها في تصميم:

- بل سنفعل ما دمت ترى الأمور على هذا النحو، لست أقل منك! «إنما النساء شقائق الرجال».

- لقد تعبتي وسئمت! تستشعدين بالدين، هه؟ «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ». ما قولك في ذلك؟

تحشرج صراخها من القهر:

- وأنا كذلك تعبتي! لعنة الله على الرجال يا أخي.

اتسعت عيناه في جزع، واعتصر ذراعيها بين كفيه الخشنتين، وهزها في عنف، هادرًا:

- تمالكي نفسك، تمالكي نفسك وارحميني، لا أريد أن أمد يدي عليك، لا تجبريني على النزول إلى هذا المستوى.

- دعني، دعني يا جلال، ولا تتصور أنه يحق لك أن تفعل أصلاً.

تملصت بصعوبة وإلحاح من قبضته الباردة، بينما نفرت أوردته وبدا نافذ الصبر وهو يزوم متوعداً:

- اصمتي، اخسي قليلاً، أنتِ أكثر أهل الأرض استفزازاً! لا أحد يخرجني عن شعوري مثلما تفعلين، والله، والله لو نطقت بكلمة أخرى لأبرحكِ ضرباً.

اختفت من أمام ناظريه وأغلقت باب الغرفة عليها في عنف، لتهتز نوافذ المنزل. فتحته وأغلقتة مرات؛ تنن في صمت، وتنثف عن قلة حيلتها، وتجيبه بطريقة أخرى؛ بدق الخشب وصريه الشبيه بالأنات. ونكف عندما تهزها فورته المقاربة للذير.

- تعقلي يا مجنونة!

تهوي على الأرض مستندة بظهرها إلى باب الغرفة المغلق، وتضم قدميها إلى صدرها. تتساءل في حرقة عن السبب الذي يجعل المرأة في مجتمع الرجال أشبه بثور؛ يتفنن المصارع في استثارته للمتعة وإثبات القوة، ثم يلعن هياجه ويحبسه في حظيرة، ولا يكف عن استدراجه إلى الحلبة كل حين، دون رحمة بكليهما!

تدفن رأسها بين كفيها، كاتمة الصرخات والسباب. الضرب كان وشيكا، أغلب الرجال كانوا لتسبق أيديهم ألسنتهم، تومئ في انزعاج، لو فعلها جلال لكان معذوراً! وأول من يلتمس له العذر: النساء. يخبطن صدورهن ويمصصن شفاهن:

- كيف تخاطبين زوجك بهذه الطريقة؟ كيف تساوين رأسك برأسه؟ هل جنت؟!

ولسان حالهن يقول:

- هل تحسين نفسك إنساناً مثلك مثله أيتها المعتوهة؟

فتتعجب نفسها المفعمة بالكرامة والتفكير؛ لِمَ يميزنه عنها؟ لِمَ؟! وألف لِمَ أخرى، الرد عليها واحد لا يتغير، جاهز، في تمام الاستنفار، بلا أدنى رابط بين السؤال والجواب، وفي كل مناسبة تختلف تمامًا عن الأخرى! لم تزل تتحير؛ تؤمن أن دينها الذي شرع القوامه لم يقصد بها الأفضلية! واشترط أن تكون بالقسط وخالصة لوجه الله.

تجادلهن بالحق فيخرسنها:

- لقد خلقت من ضلعه، هذا أدعى للحب والفخر والحمد. لم تخلق حواء من رأس آدم لترأسه لا سمح الله، ولم تخلق من قدمه لتصير جارية له لا قدر الله، بل خلقت من ضلعه لتبقى إلى جواره، ومن تحت كتفه لتكون في حمايته ومن جهة قلبه لتغدو محبوبته.

يقصدن أنها فضله! فلتصمت، لا تفكر، تتحمل، وتموت كمداً! لحمها من كتفه! هكذا لا يستويان وتأتي دائماً أقل درجة! أي منطق؟ سؤال بحجم الحياة، أرقها طيلة عمرها، وأبكاها، وأضحكها همًا وسخرية. تتحسس روحها الكاملة في تعجب؛ الله الذي خلقكم من نفس واحدة، فلم يفرقها البشر بين جسدين ويفضلون جسدًا على الآخر؟ تزفر مغولة الصدر. تُجدّ في البحث عن حقيقة الخلق وتجد ألا دليل عقلائيًا دامعًا على هذا الموروث!

(السواد الأعظم من الناس يقدمون المعتقدات على النص القرآني، بينما الحديث الشريف المعني لن يعدو كونه تشبيه لسيكولوجية المرأة عامّة! ربي عادل)

لكن تمثل الصغيرات قانعات بالأفكار السائدة بعد محاولات
مبتورة للفهم والتحرر، وتُسَلَّم المغلوبات على أمرهن؛ يقيدن
الروح الحرة في التيار السائر، ويقتعن النفس الأبية؛ «هن
أدرى»! ولا يعرفن أنهن كن يشبهنهن في مثل هذا العمر البريء،
لكن سلمن أذانهن وقلوبهن لحكم وتفاسير الأمهات والحموات
وعجائز النسوة، فتحولن إلى إحداهن عندما تقدم بهن العمر؛
نسخ متشابهة من العقول والنفوس والحيوات، تتمسك وتتناقل
تراثاً هائلاً من المعتقدات المُسلم بها بغير إعمال العقل ولا
التأمل في الحق والعدل، وبدون مبرر سوى مسايرة الأغلبية
وخشية الخروج عن القطيع.

لطالما رأت آصال النساء يضحكن على بعضهن البعض،
تخفيفاً وحماسة؛ يشدن بدورهن العظيم! هو الكفاية والمنتهى؛
المرأة نصف المجتمع تربي النصف الآخر! تكاد تصرخ بأنها
ليست مدعاة للفخر، إنها لكارثة عندما يكون الرجال على
هذه الشاكلة: يستغلون ويفترون ويبالغون في الزهو بجنسهم،
منتفعين ومتميزين به بكل طريقة ممكنة.

جلال رجل طيب، والله رجل طيب.

تحاوط أذنيها بكفيها لئلا تسمعا ما صم عنه المنطق محابة
لأمها، وتغمغم متحسرة:

- جلال رجل عادي، مثل غالييتهم. رجل فحسب!

في آخر الليل، يشده الجسد الذي يتوعده بالضرب أول النهار؛
تتنامى رغبته كلما توسع حجم الهوة بينهما بعد الشجار، كأنما
تفتنه الشحنة السلبية المعلقة بينهما في الهواء؛ فيتحدى نفسه
أن بإمكانه أن يقرب المسافات مرة ثانية!

كان يميل أحيانًا على أذنها، يوشمها بثغره؛ يؤلمها، ويُسِمِعها تصاعد أنفاسه، سائلًا في همس لائم إذا ما زالت تحمل في نفسها شيئًا من الحزن أو الغضب، موحياً أن في نفسه أشياء منهما! يسأل مرة واحدة فحسب، ولا ينتظر جوابًا، ثم يبتعد سريعًا إلى موضع آخر من جسدها؛ كأنما يشير إلى أن هذه هي طريقته في مصالحتها.

اعتادت آصال ألا تتجاوب أو تبتعد؛ تسكن فحسب وتقاوم لا شعوريًا أية لذة محتملة. كانت تشعر أنها عملية مقرفة لإخراج الفضلات، يحسن أن يعتادها الجسد! بقيت حركتها جامدة في كل مرة، لكن لم يعد إحساسها كذلك، ليس كما أول مرة؛ تخطت شلل الصدمة ولم تستطع الانزواء بحواسها ثانية (تلك كانت رحمة من ربي). تشعر بالهزيمة والتحرج وتدني القيمة؛ زوجها منسجم تمامًا ومكتفٍ بحدود جسدها المادي وكأنها لا تختلف كثيرًا عن أية عاهرة! فرطت في نفسها كما فعلت أمها من أجلها لزمان طال، وبدورها ستحذو حذوها لزمان سيطول.

ويبقى جلال يحتاج بطريقة عشوائية، لا تثير بقدر ما تنفر، تشتد لمساته وتتوحش، في محاولة لجرها معه دون استجابة؛ فقد كانت لها وسيلتها الأخرى في الانتشاء؛ تستشعر أيما لذة، بالغة ذروة المتعة حين تفرش لوحة صماء محولة الأبيض الأجرد إلى صورة تنبض بالحياة، تقف أمامها في هيئة وإجلال، يتدفق الدم في عروقها سخياً، ويتوهج الحماس تحت جلدها الشفيف حتى يكاد يبين كالشرايين، شاعرة بالشغف والتشوق وأنها ذات قدرة مستحيلة! قد ملكت الكون وملكتم نفسها.

- هل جننتِ يا فيفي؟ لم تفعلينها وأنتِ مراهرة صغيرة حمقاء! ستفعلينها الآن؟

عينا آصال ترميان بشَرٍّ لمرأى جارة السنين التي اتخذتها دون غيرها صديقة مقربة وحيدة؛ الشابة العاقلة تهلوس وتنجر في الساقية المجتمعية الدائرة، تنساق خلف الحشد الغفير كالسائرات نيامًا، دون تعقل أو ربما في كامل القوى العقلية. أخفضتُ صفا بصرها اتقاءً، وقالت مبررة:

- بالضبط؛ لم أعد صغيرة، لقد أتممت الثالثة والثلاثين.

- وأنا أكبرك بعامين. أوليس هذا أدعى لتكوني أوعى من ذلك؟

سألت صفا بأعين ملؤها الدمع: عمّ تعي؟ أن الرجل لآخر يوم في عمره يستطيع الباءة ممن حاضت أول مرة قبل ساعات، بينما تنتهي صلاحية الآتسات في سن الثلاثين؟ لم تعد تمتلك ترف المفاضلة؛ بعدما انعدم طلبها للزواج في السنوات الماضية الأخيرة ممن في مثل الحالة الاجتماعية للعريس الجديد: أعزب ولا يعول. وحتماً لو بقيت ترفض وتتدلل، ستظل كذلك للأبد، على حالها.

- ما لها حالك؟ وأي دلال!

قالتها آصال في استنكار شديد، رانية إلى صديقتها في خيبة أمل واضحة. أن تقول لا عندما يكون من الأسهل أن تقول نعم، أن تُكْرِمَ حلمًا في نفسها وتحفظ شأنها، ألا تهترس في قوالب البشر الجاهزة للتعبئة؛ تلك التي يعبئون فيها مسار حياتها ومرساها

قبل مولدها، أن تجلد وتتصبر على قذفهم إياها بالحجارة وأقذع الصفات. أن ترفض المرأة بيعه بعير؛ فهي تتدلل؟ حتى البعير يشترونها وهي في بطون أمهاتها؛ يتابعون منشأها ونشأتها، ومجرد صورة فوتوغرافية لصفا كانت كفيفة بأن يتخذها رجل زوجة! وتظن الحمقاء أنها أوقعته صريعاً بمجرد النظر إلى انعكاسها على الورق بينما هي أشبه بسلة يقوم بانتقاؤها من الإنترنت، قيمتها أقل من أن يحرص شاريها على معاينتها؛ فسلع التزييلات وتقضية الغرض ليست بذات أهمية.

- بلاها يا فيفي. إياك أن تتخلي عن نفسك؛ أنت من بقي لها.

زفرتُ صفا في قوة، مثبتة عينيها في عيني صديقتها، هذه المرة بجرأة المُحِقِّ، قائلة:

- وقد تعبت من كوني الوحيدة إلى جوارِي، ألا تدركين ما يُلِمُّ بي يا آصال وما يقوله الناس عني؟ أريد عيشة خالية من النقص والذم والتبرير.

- ستندمين يا صفا والله لو تزوجت لمجرد أن تكف الألسنة عنك، لأنهم -صديقي- لن يفعلوا، ولن يدعوكِ وشأنك كما تتصورين؛ غداً يسألونك عن خُلُقِ البنين، وأن تملأي البيت عيالاً. إرضاء الناس غاية لا تدرك!

تنهدتُ صفا وسكتت قليلاً، ثم عادت تتعذر في رفق وهي تفرك يديها:

- المهم إرضاء نفسي وأهلي، أليس كذلك؟ ثم إن هذا ليس السبب الوحيد -انخفض صوتها وهي تتابع في حرج- أنا بحاجة فعلية إلى رجل، هل تفهمين؟

صاحت آصال في انفعال، خفتت نبرته فورما أشارتُ لها صفا راجية منع حديثهما من الوصول لأذان مرتادي النادي، وقد

جلستا إلى إحدى طاولاته تحت شمس المغيب.

- وهل تسمين هذا رجلاً؟ يا صفا أنتِ أحلامك كبيرة، ادخرتها قرابة عقدين من الزمان. شخص يختار شريكة حياته من مجرد صورة أرتها أمه له! أي أحلام تنتظرين من واحد مثله أن يحققها لك؟ زيجة بائسة كهذه ستميتك، على الأقل أنتِ الآن تعيشين على الأمل.

ارتعدت شفتا صفا كطفلة صغيرة حزينة:

- تلوميني؟ ألا يحق لي أيضاً أن أكون أمًا؟ لقد تزوجتِ لنفس السبب!

لوحث آصال بكفها في اندفاع:

- ألا يحق لأولادك بدورهم أن تحسني اختيار والدهم؟ على الأقل أنا تزوجت بابن خالي الذي أعرفه ويعرفني منذ طفولتي، لكن ماذا تعرفين أنتِ عن هذا العريس لتسلميه رقبتك ورقاب أطفالك؟

- أرجوكِ لا تضحكي على نفسك، جلال لم يكن قريباً منك يوماً؛ من بداية تكليفه في الوجه البحري وكنّت حينها بضيفتين، وحتى منحه في الخارج للحصول على الدكتوراه، ثم زواجه الأول. ناهيك بأنك لم تعطي قط الفرصة له أو لغيره للتقرب منك.

(كان قريباً في يومٍ ما يا فيفي)

انكست أهداب آصال لوهلة، فاستغلت صفا ارتباكها، وقالت إن كل ما تطلبه منها أن تتفهم وضعها فحسب؛ ويا له من طلب فادح! ستبيع صديقتها نفسها، وتريدها أن تتفرج عليها فرجة بينما تفعل ذلك، أن تبارك البيعة! رفعت آصال رأسها وطالعت

صفا بنظرة أمعنت بها في تجريدها من احترامها لنفسها؛ لعلها
ترتجع؛ فغصت صفا بالبكاء وهي تبادلها النظرة بأخرى لائمة،
ثم هبت من مقعدها، تنشج وتكفكف دموعها:

- ارحمني.

(يا للخسارة يا صفا! لم تفلتي من المنظومة التي تخول لرجل،
أي رجل، التوقيع على وثيقة تنص على أنكِ تصلحين للمعاشرة،
وبالتالي فإنكِ تصلحين لقبول المجتمع. كفرتِ بأحلامك وزال
كل أمل في نفسك؛ استمديت نفاذه من نفوس المحيطين بكِ،
فكففتِ عن انتظار الرجل إياه الذي كنتِ تحلمين به منذ تكور
نهداكِ وارتعشتِ احتياجًا وتخيلًا لضمّة! هل خذلُكِ عندما
خنتُ ما تعاهدنا عليه وتزوجتُ؛ بهذه الطريقة، ولأسباب كهذه
تجعلني أشبه بدجاجة بيّاضة؟! فأفرغتِ مخكِ من الحشو الذي
حشرته فيكِ صداقة وعشرة ممتدة، وأرجعتِه لي اليوم غير
شاكرة!)

تمالكت صفا نفسها سريعًا، مبدية تحفزًا لم تعتده آصال
منها:

- من تخدعين يا آصال؟ ولو أن إبراهيم كان رجلًا أحببته (وحينا
ولع في الذرة) كما يقولون، لما هنأتني أو سعدتِ لأجلي، لأثيتني
عنه أيضًا، كما فعلتِ سابقًا أكثر من مرة. المشكلة ليست في
الطريقة، المشكلة فيكِ أنتِ.

أطرقت آصال في إحباط:

- أو في أمثالك من النساء يا صفا. أنتِ ضعتِ دوني.

تعمدت صفا إغاظتها حين حركت كتفيها بلا مبالاة، وردت لها
الصاع صاعين:

- على العكس، أنا وجدت طريقي دونك، لربما لم تكن مغادرتك المنصورة وفُرقتنا أمرًا سيئًا كما ظننا أنه سيكون.

امتقع وجه آصال، فيما أخذت صفا تتحسر على العمر الذي مضى تتبع فيه كلامها وتعيش الحياة من منظورها؛ فلربما كان نصيبها من الحظ أكبر لو لم تفعل. قالت لها إنها هكذا أكثر وعيًا، واتهمتها بأنها مغيبة عن الواقع، ولم تمنع آصال مغمغمة: (فليكن!) إنها لا تسجم مع هذا الواقع بالفعل، وتتمنع عن التكيف معه بأي حال، بل تريد تغييره بكل وسيلة ممكنة، أقلها عدم وضع يدها في يده مباركة؛ أضعف الإيمان. ليست جريمة! لكن صفا ضحكت مستهزئة، وأشعرتها بالمبالغة والهوس والندية، وقامت فجأة من مقعدها، مقاطعة حديثهما بطريقة متعالية:

- سأضطر للرحيل. خطيبي ينتظرني لاشتراء احتياجات الشقة؛ الوقت ضيق.

عقدت آصال حاجبيها: سترحلين بهذه السرعة؟! لكني سأعود للقاهرة صباح غد!

لانت ملامح صفا وأرفقت بجوابها غمزة عين وابتسامة واسعة:

- سنجلس معًا وقتًا أطول في زيارتك المقبلة، وهي ستكون قريبة بالمناسبة؛ فرحي بعد شهر من الآن؛ إبراهيم متعجل لإتمام الزواج، وأنا مثله.

وكانت قبلات صفا قبيل مغادرتها كنظرة عينيها وحركة شفيتها ولسان حالها وكل شيء آخر في لقاءهما هذا؛ تنقصه الألفة المعتادة بينهما. غادرت على عجل دون أن تسر آصال إليها وتسمع أخبارها، ودون أن تكتفي إحداهما من الأخرى بعد الغياب. لربما كانت صفا تنقي الندم لاحقًا لو بقيت الآن وأصغت لها! أو

لعلها ستندم على أنها لم تبقَ.. ليست متأكدة! هزت صفا ركنًا
أساسيًا بداخلها.

أشارت روحية إلى ابتها معاتبة بمجرد عودة الأخيرة إلى المنزل:
- تعالي اجلسي إلى جوارى، إجازتك قصيرة! المفترض أن تقضي
كل ثانية منها معي، وبدل ذلك تغييبين طيلة النهار! أين كنت؟
ردت في تجهم:

- في نادي جزيرة الورد - أضافت بتناقل - مع صفا.
انفجرت أسارير أمها:

- أفقد هذه الفتاة والله، لكنها ندلة؛ لم تمر عليّ منذ
تزوجت. ستتزوج بدورها، ربنا كريم. أخبرني أمها أن العريس
متعثر ماديًا بعض الشيء، لهذا تأخر في الزواج، لكن يدًا على
يد تساعد، أليس كذلك؟ - تغيرت لهجتها - ما الأمر؟ لا تبدين
بخير! ماذا بك؟

أجابت أصل في اقتضاب:

- لا شيء، أنا بخير.

- أصل! منذ متى تخفين عني؟ فضفضي يا حبة عين أمك.

زفرت في يأس:

- ستتضايقين وتزعجين، وبدلاً من أن تسري عني، سينتهي بي
الأمر محاولة التسمية عنك أنت.

تساءلت روحية في قلق:

- لماذا؟ أليس كل شيء على ما يرام مع جلال؟

لوحث أصال في حدة وأفضت إلى أمها بأكثر مما تحتمل الأخيرة
سماعه أو تسعى إليه أمانيتها؛ كانت روحية ترغب بشدة أن ترد
ابنتها على سؤالها بالإيجاب.

- لا بالطبع. هل تصرين على المعرفة؟ حسنًا، جلال يعاملني
معاملة غير لائقة بالمرة؛ لغة الحوار العادية يحول كل نقاش
بيننا لشجار بسببها؛ يريد أن يسيرني على «كاتالوج» رسمي في
فن مخاطبة حضرته! متحفظ في حوار معي بشكل مثير للغضب؛
أدق وأرفع الكلمات والنظرات والإشارات يراها بحاجة إلى تأديب
وتهذيب وإصلاح! لا يعجبه إحياء الجملة أو الطريقة التي أنطقها
بها، يتشدد على أقوالي وأفعالي، حياتي معه تحولت إلى محاضرة
طويلة عن الآداب والسلوك. هذه ليست معاملة بين امرأة
وزوجها، بل خادمة وسيدها، مرموس ورئيسه في العمل، كأنما لا
تعلو العين على الحجاب! هو يتقصد ذلك، ويتصيد ما يُبرر له
أن يثور ويُمسك بزمامي ويُلجمني في مكاني.

مطت روحية شفيتها لبرهة، ثم قالت في هدوء:

- الرجال جميعهم كذلك يا أصال. هوني عليك يا حبيبتي،
لكن.. أنتِ حتمًا تتحفظين له، تتحاملين عليه؟

طالعتها أصال لوهلة في صمت، ثم ابتسمت ساخرة وهزت
رأسها ببطء:

- يعني تعترفين بسوءاتهم ثم تعيين فيّ أنا يا روحية؟ من
حقي الحصول على الاحترام المتبادل في الحوار والمعاملة. جلال
يأخذ الأمر لأبعد أخرى، يضخم من حجم رجولته، أو ربما
يقلل منها بهذا الأسلوب الذي يجعلها في عيني هشة، تتأثر
بالهواء الخامل والماء الراكد والأرض الساكنة.

- لستما متفاهمين بعد يا حبيبتي، اصدقيني القول: هل

تمارسين عليه كرهك للرجال؟

ضحكت أصال ضحكة منزعة مبتورة، نافية:

- ثمة فارق بين الكره والحقْد يا ماما؛ أنا حاقدة على تميزهم دوننا لجنسهم فحسب، وربما أكره تعاليهم وأنايتهم في علاقاتهم مع النساء، لكن لا أكره شخوصهم في المطلق، بل إن أحب تلامذتي إليّ من الرجال. الرجل يتحول إلى ألطف الكائنات بالمناسبة مع كل النساء عدا أهل بيته - ابتسمت في مرارة - فلنسمها غبطة - تهدت - أنا لا أكره جلال لكننا لسنا أحببًا أيضًا.

تعلبت على محاولة أمها مقاطعتها، قائلة بسرعة حماسية:

- ورغم ذلك أعرف جيدًا كيف أتعامل معه كزوج، هو الذي لا يعرف كيف يتعامل مع زوجته؛ هذه هي المشكلة.

ابتسمت روحية مواسية:

- إذن هي مسألة وقت لتأقلمنا على طباعكما المختلفة.

- أتأقلم! ما خطبك يا ماما؟ هل ترضينها لي؟ لقد وضعت الجميع عند حده منذ زمن ولم أسمح لأحد بأن يُسيّرني أو يهينني، وجلال يتقصّد الاثنيين. بالكاد أضبط نفسي حتى لا يتمادى، لأني لن أحتمل أكثر! والله لن أحتمل. لقد عدت أتأذى، ورجع الخوف يدب في أوصالي، وتنطبق أنفاسي، ويضطرب قلبي، وأقيء، أقيء كثيرًا! كنت قد ارتحت من هذه الأحاسيس، كنت قد ارتحت منها، لا أريد العودة إليها.

جعلت روحية تربت بحنو على جسد أصال المنتفض، مهدئة من روعها:

- أصال! أصال! اهدأي، معدتك لا تحتمل. صارحي أمك يا

روحي، لمَ تفعلين بنفسك هذا؟ أنتِ فقط لا تعطينه فرصة،
أليس كذلك؟ أنتِ خائفة. يجب أن تكوني أقوى من مخاوفك يا
حبيبتى، أنجحي علاقتك به يا أصل. إنه رجل صالح. اسمعي
مني، أنا أعرف الأصل لك.

أبعدت أصل يدها عنها وهبت من جلستها، صائحة في حق
شديد:

- أكره هذه الشعارات، ما أدراك؟! لماذا سمعتُ كلامك؟ حتمًا
جنتُ عندما وافقتك. لماذا فعلتِ بنا هذا؟ هل ترضيك هذه
الغربة بيننا؟ مرتاحة في عيشك وحدك هنا؟ بعيدًا عني كل هذه
المسافة؟!

لاحت على شفتي روحية ابتسامة مهزوزة:

- ألم نتفق أنها فرصة جيدة لك لتتفرغي وتوسعي نشاطك
في الورش الفنية وتكوني أقرب لتحقيق حلمك وإنشاء مرسمك
الخاص؟

لوحث أصل بكفها في غضب:

- كلها كانت أشياء قابلة للتحقق مع الوقت، سواء بقيتُ هنا
أو انتقلنا معًا للقاهرة، لكنها كانت بجملة ما تحججتِ به لتزجي
بي في هذه الزيجة - اختنق صوتها - أنا فقط لم أرد سواكِ شريكة
لحياتي .

اتسعت عينا أمها من التأثير مغممة في حسرة:

- لاكتفيتُ بكِ يا حبيبتى والله، لا تعرفين حجم رغبتى واشتياقي
لذلك، لكنكِ لن تكففي بي يا أصل؛ لن أعيش لكِ طول العمر.
من سيؤنسك بعدي؟ من سيخدمك ويمرضك حين تكبرين؟

- كلها حجج! ربما أموت دون مرض، ربما حتى أموت الآن،

ربما تصدمني سيارة أو يسقط هذا السقف عليّ فيقصف عمري في الحال. ففيمَ أكون قد أفنيت عمري؟

تغضن وجه روحية من الألم، فيما أشارت آصال بسبابتها في وجه أمها متابعة بثورة أشد:

- أنتِ السبب يا ماما. أنتِ السبب! تحاليتِ عليّ كالحية؛ تعرفين أنك لو أجبرتني ما وافقتُ، لكنكِ استغلّيتِ إحساسي بالذنب تجاهك.

ازدردت روحية لعابها في صدمة جلية، وهتفت:

- ماذا تقولين يا آصال؟ كيف تفكرين بهذا الشكل؟ من تقصدين بهذا الكلام؟ أمك؟ أنا! هل تريد أمك بكِ صُراً؟ وأي ذنب؟ قلت لكِ مئة مرة أنتِ لستِ مذبنة، بل هو ذنبي.

- هو ذنبي أنا أنكِ لم تعيشي الحياة التي أردتها وتمنيتها.

- أنتِ الحياة التي أردتها وتمنيتها، أحيتيني بعد موت محقق. يجب أن تصدقي هذا. لم تعرفي بعد غلاوة الضنا.

اشتد على آصال الدمع، فكممت فمها براحة يدها، ليخرج صوتها مكتوماً بصحبة البكاء:

- بل أنا التي أمتك، لولاي لكنّ حية، حية بمعنى الكلمة وليس ببضعة أنفاس تتردد بالكاد على صدرك. ولولاكِ لكنّ أنا أيضاً حية! أنا أموت يا ماما، أموت، نحن نमित بعضنا البعض. كلتانا ضميرها مُثقل بالذنب تجاه الأخرى.

هبت روحية تجذب ابنتها إلى صدرها العامر في سرعة وقوة ألّمت الأخيرة. ضمتها في شدة حانية، وأقفلت عليها ذراعيها بإحكام، ثم جعلت تردد وهي تشج مثلها:

- اخرجني يا قليلة الحياء، اخرجني تمامًا، اخرجني...

تشبثت أصال بغمرة أمها مستعطفة. إنها سريعة الانفعال
كطلقة رصاص غادرة! يندلع اللهب في جوفها مستشريًا في أنحاء
جسدها، لا يطفئه غير البوح والبكاء، ومن ثم تهدأ وتبرد نارهًا.

- أنا آسفة يا ماما، آسفة، سامحيني أرجوك، تعرفيني حينما
أغضب. لا أقصد الإساءة إليك، لكن.. أنا متعبة، متعبة...

- ماذا تحاول أن تقول؟ هل تستهدف الضحية وتترك الجاني؟!
صفق جلال باب الشقة خلفهما في ضجر، مطوحًا مفاتيحه
وهو يزمجر:

- وهل رأيتني تركته؟ لقد انقضضت عليه وأوسعته ضربًا ذلك
الحقير ما أن لمحته يتعرض لكِ بطريقك لمدخل البناية وكنتُ
بالصدفة أصف سيارتي.

ألقَت بدورها حقيبتها على أقرب كرسي، وخلعت صندلها
وألقته على الأرض في غضب، هاتفة:

- ثم ماذا؟ بدلاً أن تحبسه؛ تعفو عنه، وتحبسنِي أنا!
التفت إليها مستنكرة:

- أنتِ مجنونة؟ أحبسه بأي تهمة إن شاء الله؟ أفضح نفسي
بنفسي! حقي أخذته بيديّ هاتين، والناس خلصته مني بأعجوبة
وقد كُتِبَ له عمر جديد. ثم كيف تتكلمين معي بهذا التبجح؟
كيف تتكلمين أصلاً؟ لا أريد أن أسمع صوتك، ويا حبذا لو
تبتعدين عن ناظريّ قليلاً. ألا تدريين ما أشعر به بعدما رأيتُ
الجيران والمارة بصمات ذلك الرجل على جسد زوجتي المصون؟
ومن لم يَرَ فقد سمع وشطح بخياله، وستدور الحكاية في الحي
والأحياء المجاورة.

تبعته إلى الغرفة كثورٍ هائج. أشار إليها بالانصراف، وهو يلقي
بجسده على الفراش في عنف:

- هيا، هيا، اتركيني وحدي وأغلق الباب خلفك. انصرفي.

ضغطت على زر الإضاءة في سخط لتغشي عينيه ويحتمي منها بالوسادة، بينما قطعت الغرفة جيئة وذهاب، قائلة في غل:

- لا تقلق، سأريحك من القرف الذي تشعر به بمجرد النظر إليّ الآن، لكن ليس قبل أن تعيد عليّ ثانية ما قلته بينما تجري من بين الناس كفضيحة.

قال بصرامة:

- أظن هذا شيء بديهي. لا أفهم كيف تستغربينه بعد ما جرى! لا أسمح أن تكوني ملكية عامة؛ أنت ملكي وحدي.

أطلقت ضحكة قصيرة مفتعلة، وأخذت تلوح بكفها في انزعاج:

- لا، لا، أنت واهم. لست ملكية عامة ولا خاصة، لست ملكية على الإطلاق، ولا بسكوتة مكشوفة ولا جوهرة في علبة قطيفة. أنا إنسان يا جلال، لست مُقتنى شخصيًا. يحق لي التعامل مع محيطي، أتحمل حسناته وسيئاته، أتحقق، أعيش داخل الدنيا لا على هامشها. لا تبني الأسوار حولي. وأنا لن أقف مكتوفة الأيدي؛ لن أنيلها لك. من البداية تود لو تقعدني من عملي، هذه مجرد حجة! لو أن لك بنتًا كنت لتمنعها أيضًا عن تعليمها؟ وماذا عن طاقم التمريض في مشفاك؟ لأزمتهم بيوتهن لو أن الأمر بيدك؟ أم هي أنا فحسب التي تريد ألا تزج نفسك بشأنها وتمارس عليها رجولتك؟!

قام من رقاذه محذرًا:

- انتبهي يا أصل! لا تعجبي الطريقة التي تتكلمين بها معي.

- دعك من طريقي الآن. لا تتهرّب أنت من السؤال.

حدها في صمت لبعض الوقت، ثم حرك شفتيه بطريقة تنم

عن استيائه، وقال:

- أنتِ كائن ضعيف، لا تخادعي نفسك. قد يصعب عليكِ تصديق أن ثمة رجلاً يخشى على امرأته ويحرص على راحتها وأمانها! ليس استعباداً. لست مهووساً بحبس النساء في المنزل يا أصل! يمكنك أن تخرجي كما تشائين، لكن بصحبتى من الآن فصاعداً. أنا فقط لا أرى ضرورة لمزاولة النساء المهن التي ليست في حاجة فعلية إليهن، هذا رأيي من قديم الأزل. أما الفتيات يجب طبعاً أن يتعلمن لأنهن سيكون أمهات في المستقبل، والمجتمع لا يستغني عن الممرضات والطبيبات بالتأكيد.

رفعت حاجباها مغتظة:

- آه، عقدة الطبيب والمتبجحين بمستواهم العلمي! مهنتي إذن غير ضرورية برأيك وفي غنى عن مزاويتي لها؟

- دائماً مصطلحاتك ثقيلة ولا تكف عن تخيب أمني. لكنكِ أصبتِ - هز كتفيه في استخفاف - هي فعلاً مجرد مهنة يمكن أن يؤديها غيرك ما دمنا لا نحتاج إلى مهارتك أنتِ بالذات، ولن نخسر المهنة شيئاً في نفس الوقت.

- أنت متحيز جداً وغير موضوعي بالمرة!

جلس على طرف السرير محنيّاً كتفيه، وقال في جدية:

- اسمعي يا أصل، أنا لا أضطهدك كما تتصورين، لذا لننتفح على حل وسط قد يجعلني أوافق على استمرارك في مزاولة عملك؛ يجب أن تتحجي. نحن في غنى عن تكرار ما حدث اليوم، أليس كذلك؟

قطبت حاجبيها المقوسين، ولم تملك غير أن تصرخ في هياج:

- ماذا قلت؟! تحاول دائماً لي ذراعي، تبتزني! من صور لك أن

من حَقِّك أن تسمح لي أو لا تسمح لي بأبسط حقوق؟
- اخفضي صوتك.

لوحث بلا مبالاة متعمدة، وتابعت بنفس الشراسة:

- لا، لماذا أيها الرجال تبيعون وتشترون فينا؟ كل المشكلة في الحجاب؟ هذه القماشة على رأسي ستقيني وتحميني؟ أمك وأمي وجدتك وجدتي كن يرتدين الميكروجيب والمايوهات، هل سمعت عن أحد تعرض لهن؟

تحلى بهدوء غريب عليه وهو يقول:

- بصرف النظر عن كل الاحتجاجات الفارغة التي سمعتها وعضضت الطرف عنها بمزاجي حتى أجادلك بالتي هي أحسن؛ وأوافقك أنها ظاهرة حديثة، الزمن تغير، لذا يجب أن تتغير معه حتى نستطيع العيش فيه.

هزت رأسها يمنية ويسرة بغير تصديق:

- تتغير! نحن لا هم؟ ألا تسمع عن التحرش بالمنتقبات والعجائز والأطفال، وحتى الذكور؟ وماذا عن المسيحيات والأجنبيات؟ هل مباح التحرش بهن لأنهن لا يغطين رؤوسهن؟ هل تعرف متى تم التحرش بي أول مرة؟ في الفترة القصيرة التي ارتديت فيها الحجاب! ما دمت أنت صاحب العرض تبرر للمُعْتَدِي سيظن أنه صاحب حق؛ سيُبقَى على اعتداءه ما دام يجد من يحمل عنه اللوم ويبرئ ساحته، لا مبرر! لا مبرر! أنتم تجنون علينا.

- أنتِ جريئة للغاية!

- بل أنا محتشمة للغاية، في سلوكي وملبسي. بالله عليك قُل الحق: هل شعري هو محرك شهواتهم؟ لماذا تتحرك شهواتهم إذن تجاه المنتقبات؟! أين تكمن حقًا شهواتهم يا دكتور؟ أين؟

جعل يناديها بملل شديد النبرة:

- آصال! آصال! كفى. بدون سياقة كل هذه المبررات؛ هذه خطوة مفروغ منها، لكن أجلت الحديث فيها لما بعد الزواج.

قهقهت في مرج مصطنع:

- فعلاً! أبهرتني. لكن لا أظن أنك ستنجح في مسعاك، حتى بعد الزواج.

جز على أسنانه وأغلظ القول:

- للمرة الثالثة أنبهك إلى طريقة كلامك معي. ثم إن هذا القرار لسوء حظك لا يعود إليك، بل لمن يملك أمرك، أنا، زوجك.

- تملك أمري! لا حول ولا قوة إلا بالله. قل لي يا جلال: لماذا ينتظر الواحد منكم أن تكون المرأة في عصمته ليفرض شروطه عليها؟ وتظن أي سأطيعك! خمن؟ لست موافقة، لن تغير بي شيئاً على غير إرادتي لمجرد أني أحمل اسمك. قبل اسمك الذي أحمله أنا أحمل عقلاً يتفكر ولا يُسَرَّ كالبهائم.

- ونعم العقل المفكر! صحيح.. ناقصات عقل ودين.

- هل هذه محاولة لإهانتني؟

- تجاوزت حدودك كثيراً الليلة وتستحقين الإهانة، لكنها في الواقع ليست كذلك؛ إنها حقيقة، وأنت خير دليل عليها.

التوى ثغرها بنصف ابتسامة:

- يؤسفني أن أقول لك إنك لا تعرف ما تتحدث عنه.

- احفظي أدبك! رأيت أنك من تتسببن لنفسك بالإهانة؟

عقدت ساعديها أمام صدرها في ثقة:

- إهانة لمُفسرها على نحو معيب. دعنا نرى.. فيمَ تستند على انتقاصك من عقل المرأة؟ أن شهادتك بشهادة اثنتين، أليس كذلك؟ هل تدرك أصلاً الحكمة في ذلك؟ لغلبة العاطفة يا دكتور؛ العاطفة التي تلزم أجساداً تسكنها الأجنة، العاطفة التي تعوزكم! وكما تعلم هذا لم يمنع النساء في العالم المتحضر من الوصول لكل المناصب في الدولة حتى الرئاسة والقضاء. وبالنسبة لاجتنابنا الصلاة والصيام في أوقات بعينها؛ هذا برهائك على نقص الدين أم تراه اتباعاً منا للدين؟ لعلك تعيب الأمر! - خبطت كفّاً بكف وهي تتابع في تهكم ملحوظ - بشكل ما ترى أنك تهينني رغم أنك تهين نفسك في الواقع عندما تسوق ضدي مجرد حديث ضعيف، وتفسره أيضاً على هواك الشخصي.

- أنتِ زوجة غير محترمة وبحاجة للتأديب!

- لا! أنا محترمة يا جلال، محترمة أكثر من كل من تعرفهم في حياتك مجتمعين، لا تسئ أنت إليّ لمجرد أنك لا تحتمل أن أصحح لك مسلماتك.

تساءل في استهزاء:

- وفرض الحجاب! أليس من المسلمات الصحيحة التي تحاولين الانتصار لها؟ أم أسقطته بمزاجك من حساباتك؟

- لا، ليس كذلك. أنا غير مقتنعة أنه فريضة من الأساس.

أطبق جفنيه لبرهة وخرج صوته متماسكاً بالكاد:

- بل هو فريضة عليكِ رغماً عن أنفك - تابع محذراً - لا تتعمدي إخراجي عن شعوري يا أصال.

- لا تحاول معي. لقد بحثت في الأمر مطولاً ومقتنعة بما وصلت إليه.

- لن أحاول طبعًا الخوض في هذا الهراء معكِ. اسمعي يا بنت الحلال ما سأقول ولا تضعي منطقًا بعده...

حُدِثَتْه بنظرة بائسة؛ لا يسمعها أصلاً! لم يسمع سوى رأس الموضوع فتجهز فوراً؛ استعد ليملئ عليها ما يحفظه ويسعى أن يلقنها إياه، لتومئ على كلامه وتتبعه كالحمار يحمل أسفاراً! يتعامل معها بمبدأ التلميذ الخائب. في كثير من الأحيان التلميذ يتفوق على أستاذه (ألا سحفاً للهزيمة على يد امرأة بالأخص! ربما أكون مشعوذة بالنسبة له، أستحق الحرق في محرقة الساحرات!) قاطعته بسرعة، مستجدية أن يضع لمرة واحدة قدميه في حذائها:

- لا، من فضلك، أجب عليّ أولاً؛ هل ستقبل لو طلبت منك أن تفعل ما يغير قناعاتك الشخصية دون حتى أدنى محاولة مني لإقناعك؟ كأنما أقول لك كن فتكون! هذا تحديداً ما تفعله أنت معي .

تنهد في ملل:

- كفاكِ! فلتتوقفي عن جعل كل شيء يدور حولي.

أومأت مؤكدة:

- كل شيء بالفعل يدور حولك وبسببك وبأمرك.

- نحن لا نتحدث الآن عن قناعات شخصية! نتحدث عن عقيدة، فما شأني أنا؟ لا يهم جلال ولا تهم آصال، المهم هو صحيح الدين.

- إليك عني إذن، هو أمر بيني وبين ربي. لا تراني أتدخل في شأنك!

ضرب كفًا بكف:

- والله لا تجوز هذه المقارنة التي تعقدينها بيني وبينك دائماً وأبداً بسبب أو بدونه، دفاعك عن شيء بهذه الطريقة يجعله عديم القيمة والحجة؛ وضعنا مختلف في كل شيء، أنت مسؤولة مني وليس العكس، تعاملني على هذا الأساس، هل تفهمين؟

- لستُ بالطفولية التي تصورني بها كأنما أسعى إلى شيء لأنه في يد غيري! هذا الاختلاف المزعوم الذي تتخذ مواقفك بناءً عليه؛ فارغ وعنصري. يحق لي تقرير مصيري مثلك تماماً.

- أنت مهفوفة يا آصال وعقليتك معطوبة. معركتك خاسرة، ألا تفهمين؟ لن يمكنك أن تحاربيني ولن يقف أحد في صفك.

نفث في كبرياء:

- موقف الناس شيء لا يهمني أبداً. أنا أعقل من الأخذ بأحكام مجتمع جاهل وظالم، منشغل بهستيرية بمسألة لباس المرأة وغارق حتى أذنيه في الغش والكسل والغيبة والنميمة والرشوة والفساد - استطردت في تقزز واضح - مجتمع متدين بطبعه!

أوماً في شماتة:

- هذا هو مجتمعك. تقبلي الأمر الواقع.

برقت عيناها في تحد:

- لا! الأمر واقع لأننا من نجعله يقع، السر فينا والإرادة والقدرة في أيدينا. الكافر وحده من ينتحر، وأنا على إيمان عميق بنفسي؛ لن أكون أنا من يقرب منها بسوء أبداً.

رأر بغتة كأسد جريح مبعوث على الانتقام:

- كفى. كفى. لم أعد قادراً. أما لحملك من نهاية؟! مَرَّ رأسك مصنوع؟ هه؟ من حديد! ولسانك هذا لا ينال منه التعب! لن تغيري أبداً، ولن أتعب نفسي معك أكثر. كلمة لن أردّها: أنتِ

طالق لو خرجت من المنزل بشعر مكشوف. انتهينا.

ارتج قلبها على نحو أثار غثيانها، فيما دفعها عمداً في طريقه للخارج، لتتلاً في عينيها دموع حبيسة القلب، غير أنها أرجعتها إلى سجنها وأقفلت زنازتها بإحكام، ولاحقته في عزم مرتبك:

- لا تحجر عليّ، ليس من حقك!

جعل يبحث عن مفاتيحه في عصبية، ثم هتف في توعّد شديد لللهجة، قبل أن يلتقطها بسرعة ويخرج من الشقة كالإعصار:

- أنت أبعد ما تكونين عن معرفة ما يحق لي، فأحسن لك أن تبتلعي لسانك حتى لا أقصه لك. الله وحده يعلم ما يصبرني عليك!

سارعت بوضع راحة يدها على فمها حين هاجمتها نوبة غثيان قوية، ثم جرت صوب الحمام، وتشبّثت بحافة المرحاض بكلتا يديها. كعادته نسي إنزال الإطار البلاستيك؛ تختل جلستها دونه، وتكاد مؤخرتها تنحسر في فتحة المرحاض كلما قضت حاجتها ناعسة أثناء الليل (لا يهمه ذلك طبعاً!) أفرغت ما في معدتها حتى العصارة، وجعلت تسعل وتبصق، عيناها محتقنتان وأنفها يسيل، تشعر بحرقّة في حلقها وقبضة جامدة تمسك بصدرها.

تدرك أنه يحس ببكائها الأول في حضوره ولا يحرك فيه ساكناً! دموعها تنحدر بغزارة على قصبه أنفها، دموعها تثقل الوسادة التي تريح عليها رأسها، دموعها تغفو على وجهها وتبيت الليلة؛ يتأفف جلال، ويصم أذنه، ينتظم نفسه، وينام. لم تسمح أمها يوماً أن تطرق الدموع خديها ليلاً وتنام باكية؛ ترتعد روحية من البكاء في الفراش، تخشى أن تنام وحيدتها محزونة فلا تصحو ثانية! فقد كانت تؤمن أن الحزن يقتل.

انقلبت حياتها رأساً على عقب بعد استقرارها الذي حافظت عليه لأعوام طويلة؛ عادت تقنات على الغيظ والظلم، وتبكي قهراً ومذلةً واشتاءً للعدل. صدرها مغلول، ورأسها يكاد يتفجر، الكافيين لم يعد مجدياً، وأية مسكنات أو مرطبات لا تُذهب غصتها ولا تُبرد حُرقتها. لكنها مذنبه لإيمانها أن حقها في الحياة مُكتسب لا يستلزم حرباً أو يستدعي تضحية! هل ثمة معصية في أنها تكفر بازدواجية ما أوتي للرجل في مجتمعها لكن مُحرم عليها باسم العرف والعادة و«هذا ما وجدنا عليه آباءنا»؟ هل ثمة معصية في أنها تستشعر الرجال أكثر حظاً وقرئاً إلى رحمة الله؟

(الذكر لا يعيبه إلا جيبه، ولا يمس رجولته غير القدر الذي يحظى به من الفحولة! بينما أنا فاقدة للأهلية والجدوى والحياة في مجتمع يأخذ أي صف ضدي، ويقاوم وجودي أكثر مما أقاومه للوجود، ويضعني على الهامش لتزيين الصورة لا أكثر وربما أقل. لتمر الأزمنة دون أن أبارح الرحم التي جئت منها إلى الدنيا، وأتكور على ذاتي في وضع جنيني. ومَن تصبح منا في عصمة رجل؛ يُسكنها على الأغلب أربعة جدران مصمتة، ويخفي السقف على وجودها وأنفاسها، ويبقيها أقل منه بدرجة أو درجات، ربما تزيد أو تنقص حسب قدرة رحمها على استيعاب الذكور!)

نهضت من الفراش وجرت إلى الحمام، معاودة القيء. أخذت تتأوه بينما تقوم بصعوبة من على الأرض وتخلع ملابسها في عصبية، ثم تفتح صنوبر المياه على جسدها في المغطس؛ لعل الماء يأخذ الوسخ الذي يتركونه فيها وينزله المجاري حيث ينتمي! غسلت فيها وتمضمضت مراراً، ثم تكومت في الركن الأقصى بعيداً عن سيل الماء المنهمر؛ تشعر بالبرد وتستلذه! وتشج وتبكي، وتكور قبضتيها تمسح بهما وجهها لتفسيح مكاناً جديداً للدموع. ولما اشتدت رعدتها خرجت من المغطس، متدثرة بالبلل والدمع على جسدها وجوارحها.

وقفت أمام مرآة الحمام تطالع وجهها في تحفز، وتضفر شعرها إلا من بعضه؛ حفنة من الشعرات الحرائر تأبى الاندماج في جدائل متشابهة، مُحَكِّمة الزمام؛ تتطلع إلى الانفراد والرحاب والحرية، تتنفس، وتتحدى الخطر المحيق بكل شعرة فالتة عن جديلتها، تغامر بسهولة الكسر والموت في ضرب الهواء؛ إنها لحياة قصيرة الأمد، تعيشها بالطول والعرض، ثم تموت! لكن على الأقل مرة واحدة، بضربة واحدة، ثم ترقد في سلام، بعكس المجدولات اللائي يمتن من العطن والتطويق.. ألف مرة! (ليضرب جلال رأسه ومكابرته وإعراضه في أغلظ حائط؛ أنا أبجل كينونتي والفترة السليمة. ألا يقولون: «العند يولد الكفر»؟ بل الكفر يولد العند).

الفصل الثاني

تكون إحدانا مستغرقة في محاولة إقرار هويتها، وهذا كافٍ
لملء كل العواطف التي يتسع لها جسدك. تخيلوا ما الذي
يعنيه، فوق ذلك، الصراع مع من يحيطون بك؟

مارثيلا سيرانو

فتاة شديدة النحول، فارعة الطول، تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، لا يكلل وجهها غير العبوس. قتامة ملابسها لا تلائم سنّها ولا اتساعها يناسب جسدها؛ ترتدي جونلة طويلة وبلوزة تكاد تبلغ ركبتيها، وتضع على رأسها طرحة مثلثة، يتلاقى طرفاها حول عنقها بدبوس معدني قبيح الشكل. خرجت من منزل حضري مؤلف من طابق واحد، على مشارف مدينة المنصورة، يطل على طريق سريع للسيارات يتوسطه مجرى مائي عريض. وقفت تحاول العبور إلى الجهة الأخرى، حيث الأراضي الزراعية ممتدة. أخذت تتربقب خلو الطريق ولو لبرهة من السيارات المتتابعة، فيما تتلفت خلفها كل حين، تنظر إلى منزلها في خوف، تخشى خروج والدها إلى الشرفة، يظنها نائمة في غرفتها، وأما نُبقي الباب عليها مقفولاً وتداري على غيابها؛ لن تكون العواقب حميدة لو رآها تخرج لتلتقي بصديقاتها في العزبة على الناحية الأخرى من الطريق.

كان في أثرها شابان على متن دراجة، سار سائقها بمحاذاتها ليتمكن صاحبه من القرب منها، صفعها الأخير على مؤخرتها، فالتفتت تواجهه في ذعر؛ لتسبح له فرصة الإمساك بشديها الذي يحبس المشد، مقهقهاً في امتعاض:

- صدرك لم ينبت بعد!

سابت ساقاها الدراجة، أخذت تجري ويطاردها الشابان، شدها ذات المتحرش من طرحتها حتى جرح الدبوس عنقها وهي تنخلع عن رأسها، قهقه الشاب أكثر، فصرخت متملصة من يده

التي جعلت تعبث على أنحاء جسدها. إلّا تمرّ تجربين؟ الأمان في الاتجاه المعاكس! دارت على عقبيها متلجلجة، ثم عبرت نهر الطريق في تهور، متسمة أمام سيارة مسرعة، وحين تحركت في اللحظة الأخيرة اختل توازنها ووقعت على الأرض؛ ليضغط سائق السيارة مكابحها بصوت مزعج وهو يسبها؛ أخذ الشابان يضحكان في هستيرية، بينما خرج والدها إلى الشرفة يستطلع الأصوات.

تحسست حجرًا صغيرًا كانت قد وقعت عليه وجرح ذراعها، أمسكت به في قوة، وهي تقوم من وقعها دامعة العينين، وبدون تفكير صوته على الشاب، صارخة:

- خذ هذا يا حيوان يا سافل.

أصاب الحجر رأسه فاختل توازنه من على الدراجة، ووقع وهو يتأوه ويتحسس رأسه المخضب بالدم، بينما نزل صاحبه من على الدراجة ليلحق به، وهو يسبها بأقذع الشتائم.

رفعت عينيها في رعب إلى والدها الذي هرب ناحتها، هادرًا:

- فتحت رأس الولد يا بنت الكلب!

أطاح مرآه أمامها بجراتها وعزمها على الانتقام، فخفضت فورًا بصرها متلعثمة:

- إنه هو.. هو الذي..

أمسك ذقنها بكفه مثبتًا إياها، وأخذ يضربها بالأخرى على كل ما يطاله من وجهها ورأسها، وهو يتابع:

- فتحت رأسه يا مصيبة! ماذا أخرجك من المنزل يا حيوانة؟ غوري.

ركلها بقدمه في شراسة، فطرحها أرضًا على وجهها، مستطردًا:

- عودي للمنزل يا حمارة حالاً. حسابك معي عسير. أنتِ وأُمك
يا روح أُمك.

وأُمسك بطرف جلبابه بيده، وجرى ناحية الشابين، وهو يصيح
في قلق:

- ماذا أصابك يا ولد؟ هل جرى له شيء يا ابني؟

- تفضل بالداخل، معاذ الله أن نقف على عتبة المنزل؟ لا يصح
والله الكلام على قارعة الطريق!

- لا سلام ولا كلام. ابني تعرض لإصابة كبيرة، خيطت رأسه
بعشر غرز، الأطباء اشتبهوا في البداية في ارتجاج في المخ، لكن
الحمد لله جاءت سليمة. لولا ذلك لحررنا محضراً في القسم
وشرفت ابنتك في الحجز الليلة.

- لا! ألف سلامة عليه، الحمد لله على سلامته، إن شاء الله
يتعافى جرحه سريعاً، وأنا سأتي بنفسي للاطمئنان عليه.

(جرحه سيتعافى يا أبي، ماذا عن جرحي أنا؟!)

كانت آصال قد تحاملت على نفسها، وخرجت قبل قليل من
الشقة، ونزلت الدرج المؤدي لمدخل المنزل بخطوات وثيدة
لإجابة الطارق امتثالاً لأمر والدها. كتفاهما محيان وجسدها
مشبع بالألم. فتحت بوابة المنزل الحديد في تناقل، ليرمقها
رجل خمسيني في قرف ويطلب مقابلة والدها. نادى الأخير
بصوت مبحوح، تعلمه بهوية الزائر، فهبط الدرج على عجالة،
مُرحباً بصوت جهوري:

- يا أهلاً وسهلاً، خطوة عزيزة. حصلت لنا البركة.

ولطمها في طريقه، آمراً إياها بالصعود إلى الشقة، لكنها توارت

خلف أحد جدران المدخل، تسترق السمع. ثم خرجت فجأة من مخبئها باترة حديثهما، هاتفة في تشفي:

- يستأهل. حتى يحرم أن يمد يده على بنات الناس.

حول أبوها أنظاره بينهما مُحَرَجًا، ثم صرخ في وجهها:

- وتتكلمين بعد يا بنت الكلب؟!

شد الرجل قامته، وقال في ضيق:

- أدب ابنتك يا حضرة.

طالتها يد والدها فأعملت فيها الضرب العشوائي، وهو ينظر للرجل معتذرًا:

- متأسفون والله. لك عليّ ألا ترى الشارع ثانية. على جثتي لو خرجت من المنزل مجددًا يا حيوانة، إنْجَرِّي بلغي أمك أن تهني الصالون لاستقبال الحاج.

هز الرجل رأسه رافضًا، مُثْنِيًا الفتاة المذعورة التي التهمت الدرج صعودًا، وتعثرت في نهايته.

- انتظري يا بنت. المعذرة يا أستاذ، لم آت لتضاييني.

أومأ أبوها عدة مرات في خزي صادق:

- أعرف، أعرف طبعًا. سأؤدب البنت والله، لا تتخيل كم الضرب الذي نالته مني عقابًا، وأمها كذلك، لتربيتها الوسخة لها، إنها عار عليّ والله.

(بل أنت العار يا أبي! أنت العار!)

أفسح الطريق للداخل وهو يشد على يده مُلِحًا:

- لكن أبدًا، لن تأتي إلي بيتي وتغادر دون أن تشرب شايك.

المسامح كريم يا أخي. ما محبة إلا بعد عداوة، أليس كذلك؟
تفضل، تفضل.

سارت آصال بتأنٍ بين المتدربين في الورشة الفنية الخاصة التي تتعاقد على تدريسها، تمعن النظر في لوحاتهم، وتتابع تطبيقاتهم في تركيز مفتعل.

- استعمل الجل لتمديد اللون يا أحمد.

أوماً الشاب وجعل ينفذ، حين استرعى انتباهها أدوات زميلته على الطاولة، فاقتربت منها محذرة:

- انتبهي يا رشا، أغلقي الأنايب بإحكام حتى لا تتصلب الألوان داخلها.

- لكن يصعب عليّ أحياناً فتحها.

- عرضي الأنبوب لنار عود ثقاب سيُفتح معكِ بسهولة.

أشارت إلى متدرب آخر، عندما راعها اتساخ وجفاف فرشته التي قلبتها بين يديها في استياء:

- حاول أن تكون أكثر حرصاً على تنظيف فرشك يا إياد حتى لا تضطر لتغييرها؛ الريشة المستعملة تعطيك نتيجة أفضل كثيراً من الريشة الجديدة.

- آه، حسناً، سأنتبه لذلك، يكفي أن الفرش التي تنصحنا بها في حد ذاتها غالية الثمن.

- أعرف، لكن الفرش رخيصة الثمن تكون سيئة الصنع، يتساقط شعرها، ولا تستطيع أن تنظف لوحتك من الشعرات المتساقطة دون أن تفسد اللوحة نفسها... عذراً.

كان هاتفها يرن في إصرار، تومض الشاشة باسمه. تعمدت تجاهل اتصال سابق له. ثم ضغطت على زر قبول اتصاله الثاني باللحظة الأخيرة، قائلة بلهجة عملية سريعة:

- آلو. جلال. لا أستطيع الحديث إليك الآن. اطلبي بعد قليل.

طال صمته، فتفقدت الهاتف لتدرك أنها كانت تنصت إلى انقطاع المكالمات! لقد أنهى المحادثة على الفور بدون كلمة أخرى.

مر وقت طويل، رتيب، ممل، قطعت في إمعان النظر إلى أظفارها الطويلة بدون تركيز، لم يكن لديها شيء آخر تفعله، أو بالأحرى تستطيع فعله وهي على هذه الحال، بعدما اعتذرت عن تكلمة العمل في الورشة. أخذت تحقق في هاتفها في توتر مصحوب برغبة في البكاء، حتى جاءها اتصاله التالي، لتلقاه في سرعة لإرادية!

- حذاري أن تفعلها ثانية، عندما أتصل بكِ تتفرغين لمكالمتي.

انقبضت أصابعها على الهاتف في ضيق، وعبثت أناملها بنهايات شعرها الحرة، الغريب أنه دائماً ما يفعلها معها؛ (لدي عملية.. أنا مشغول.. لا يمكنني الحديث)، وربما لا يرد أصلاً أو يصد اتصالها، لكنها طبعاً ليست بالأهمية التي تخول لها أن تكون مشغولة بشيء آخر عنه!

تنحنت في صعوبة مقاومة الانفعال:

- ماذا تريد؟

أجابها ببعض من الصمت الشائك، ثم ألقى صوته:

- لم أكن أعرف أنك ستحسمين أمرك بهذه السرعة، كنت ما زلت نائمة وأنا أغادر هذا الصباح، ظننتك لن تذهبي إلى العمل.

ردت في اقتضاب:

- بلى، ذهبت.

- أين ورشتك اليوم؟

- في بيت السناري.

أتاها صوته حاملاً ضحكة وارتياحاً:

- حسناً، سأحاول العودة باكراً، ربما أسبقك أيضاً إلى المنزل.

سقطتُ على الأرض حقيبة بلاستيك بدوي عنيف، كان جلال
يمسكُ بها وأفلتها من يده ما أن دلفت إلى المنزل ووقع بصره
على هيئتها. كادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو يشير إليها
بينما تتقدم منه:

- ما هذا؟ أين حجابك؟ هل خلعتَه في الرواق؟ في المصعد؟ أم
خرجتِ من المنزل بهذا الشكل؟

خلعت حذاءها ببطء مغممة:

- رفقاُ بأعصابك.

التقط الحقيبة وقلبها رأساً على عقب، فسقطت منها قماشات
خفيفة وعانقت الأرض في خفة، فيما هتف في ثورة:

- وهذا! هذا الاحتفال الذي أردت استقبالك به؟ لقد حلفت
عليكِ يمين طلاق! يمين طلاق يا آصال ضربتِ به عرض
الحائط؟

هزت كتفيها، وهي تسير في الرواق المؤدي لغرفة النوم، قائلة
بلا مبالاة:

- بسيطة، اذهب لدار الإفتاء واعرف كفارة حلفانك. اغْرَمْ!
قلت لك من قبل لن تملي عليّ أفعالي.

قبض على ساعديها زاجراً إياها:

- تعالي هنا! يجب أن تسمعي هذا؛ لا حاجة بي للذهاب يا هانم. أنا قادر على معرفة الوضع الذي بتنا فيه، لم أكن أهْدُكَ أو أزعرك، أنتِ طالق مني لأنني نويت فعلاً تطليقك إن عصيتني. أنتِ طالق!

تسمرت في مكانها لبرهة ثم التفتت إليه في دهشة حقيقية:

- عصيتك! مخالفتي لكلامك أصبحت معصية؟ أستغفر الله العظيم، تبالغ دائماً في تقدير نفسك.

- الزمي حدودك!

لم تخفض صوتها هذه المرة ولم تُلن لهجتها، شاعرة بتحرر وجرأة:

- ألم تسأم بعد من الأمر والنهي؟ خلاااااا، انتهينا يا جلال، الحدود صارت ملزمة لكلينا، ألم تقر لتوك أننا أصبحنا طليقين، أنا كذلك لا أسمح لك بأن تتعدى معي أي حدود، وأولها أنه لم يعد لنا أن نبقى هنا معاً. من فضلك غادر المكان لأنني لن أستطيع مغادرته الليلة؛ يلزمي وقت لأؤضب أغراضي. غداً يمكنك العودة. لن تجدني.

رمقها في استغراب:

- تتصرفين كأنما تحقق لك ما أردت بالضبط!

أومأت في ثقة:

- قد تحقق لك ما أردت أنت أيضاً. لا داعي للدعاء.

مط شففيه في استهزاء، وهو يضع كفيه في جيبي سرواله، كأنما يدفن خيبته في ترويضها.

- يبدو أن أحدنا لم يتسرع في تصحيح هذه الغلطة، بل ربما أخذنا وقتًا أكثر مما ينبغي كذلك!

ابتسمت في راحة:

- يسعدني أننا أخيرًا اتفقنا على شيء - بسطت يدها أمامه - مفاتيح السيارة.

أخرج كفيه من سرواله ببطء وهو يطالع المفاتيح في راحة يدها في دهشة، رافضًا أخذها:

- هي سيارتك! باسمك!

- كانت هدية زواج لم يدم شهرين، لا أستطيع قبولها.

- بل هي مهرک، بمثابة قائمتك. لقد قبلت العيش على أثاثي القديم ولم تطلبي شيئًا - تابع في سخرية - لم تطلبي حتى تغيير غرفة النوم! دع كل شيء كما هو، لا أمانع.. ألم يكن هذا كلامك؟

وضعت المفاتيح على أقرب قطعة أثاث، وعقدت ساعديها أمام صدرها، قائلة في سخرية مماثلة:

- لم أكلفك لأني لا أستطيع تحمل التكلفة بدوري، لا نملك المال اللازم لجهاز العروسة يا دكتور، مواردنا بسيطة تكفي معيشتنا بالكاد، لا أخفي عليك، كان هذا في صالحه؛ لم يُمكن عمك من الضغط عليّ كثيرًا في مسألة الزواج.

صاح بغير تصديق:

- أنا ابن خالك! لم أكن لأنتظر منك شيئًا. كيف قبلت النوم

على فراش كان لامرأة غيرك؟

تنهدت في قوة لعلها تخفي مرارتها:

- لا تستغرب. يمكنك القول إني اعتدت على ذلك؛ الأسرة التي استقبلتني منذ يومي الأول في مصر لم يكن أحدها يخصني، فلم من شأنه أن يختلف هذا السرير؟

طالعتها بنظرة لم تنجح في فهمها؛ أكانت احتقارًا أم حسرة أم شفقة؟ عليها أم على نفسه! وطال الصمت بينهما حتى قطعه بصوت أجش:

- لم تزوجتني يا آصال بينما من الواضح أنك لا تكنين لي أي حب أو احترام؟

- بل أنا من يحدوني الفضول يا جلال؛ لماذا تزوجتني؟ رحمة بي! بنت عمك العانس أنت أولى الناس بها؛ تسترها مثلاً؟

صاح مستنكرًا:

- من أنت؟ لا أكاد أعرفك!

- أنت لا تعرفني فعلاً.

هز رأسه في إحباط:

- ظننت أنني عرفتك يومًا.

- لم يكن ظنك في محله إذن. والآن.. ربما تسدي غيري معروفًا كما أسديتني وخلصتني من العنوسة؛ تُرجع زوجتك الأولى لعصمتك مثلاً؟ لقب مطلقة أيضًا ليس لطيفًا.

أشار إليها بسبابته في حدة:

- لقد طلقته لأنها فعلت مثلما فعلت أنت تمامًا، أساءت الأدب، وأنا لا يمكنني العيش مع امرأة لا تحترمني.

- ألم يخطر لك أن المرأة لا يمكنها أيضًا أن تعيش مع رجل لا يحترمها؟

- تقصدين أنني غير محترم!

رفعت كفها في مواجهته في تهكم:

- رفقًا يا جلال، لم أعد زوجتك لتصيح في وجهي هكذا، نفث عن غضبك في وجه امرأة غيري؛ تزوج بأخرى، غدًا إن شئت أو حتى الليلة. أو ارتد ملهى ليليًا واستعن بخدمات إحداهن! لا تقلق، لن يحاسبك أحد، أنت مُطلّق حديث وسيتفهمون الأمر ويشجعونك. دائمًا ما يفعلون! والآن، تفضل ولا تضع وقتي، فعلى عكسك لديّ مواجهة لطيفة مع المجتمع بحالتي الاجتماعية الجديدة؛ لسنا جميعًا سواسية لو تعلم! هيا، ماذا تنتظر؟ غادر.

كان يتحين منذ مدة فرصة إخضاعها، فأسرع يقول في ثقة:

- ليس ثمة سبب يدفعني أو يدفعك للمغادرة؛ في شرع ربنا يفترض أن نبقي معًا تحت سقف واحد حتى تنتهي عدتك.

- ليلوك الناس سمعتي!

شحب وجهها فور إدراكها أنها لا تجد غضاضة في ارتكاب الخطأ لأنه عُرف سائد! بينما رماها جلال بسخرية وشيء من خيبة الأمل، ثم انفض من حولها، مبعثرًا حاجياته في كل مكان ليضع بعضها في حقيبة سفر. وقبل أن يغلق خلفه الباب على زواجهما الذي انتهى، قال في جدية دون أن ينظر إليها:

- أنتِ لستِ متزنة نفسيًا بالمناسبة. حاولي الحصول على مساعدة.

التوى ثغرها في استهزاء وارتعشت شفيتها، مُرَتِّشة الدمع

الساقط بينهما. وعمدت إلى أقرب كرسي، متهاوية إلى جانبه،
مستندة بالكاد عليه.

(اتهمني بالجنون توًّا؛ لأنني أريد عيش حياة ليست بحياتي؛
أعيش كإنسان وأنا مجرد امرأة!)

عندما حنت على أمها، كان عزاؤها وسلوتها أنها ربما لتكون
أقدر على تغيير رجل عن تغيير مجتمع بعادات وأفكار قبلية!
وها هي قد أخفقت بمهمة الرجل الواحد! لم تكن بتلك
البساطة التي وقع عليها اختيارها؛ مكن الصعوبة ليس أبدًا
في المفرد أو الجمع. لم تحسن تقدير الحسبة وحسب؛ الناتج
متعدد الأصفار: أصفار دائرية، سوداء، كبيرة، تسد عين الشمس!
(رأيتها الآن يا أصل؟ يا غبية؟ يا أغبي خلق الله!).

انحنت نادرة بصعوبة، تتابع نضج طاجن الخضر باللحم في الفرن؛ لينال منها ألم فقرات ظهرها على نحو مفاجئ، وتزجر في غضب منادية ابتها، رافعة صوتها لينفذ إلى مسامعها في عزلتها:

- ليس معنى أنك غضبي من زوجك يا حيلة أمك أن تحبسي نفسك في الغرفة طوال اليوم يا دلوعة وأعلق وحدي في المطبخ أخدم جنابك! تعالي يا هانم ساعديني أم على يديك نقش الحنة؟ بنت يا حسناء؟ أين أنت؟ لماذا لا تجيئينني؟ وقعتك سوداء.

هرولت نادرة من المطبخ مقتحمة حجرة ابتها، وعلى وجهها أمارات توعد انقلبت لانزعاج حين وجدتها خالية، تنهى إلى سمعها نداء خفيض من والدها العجوز:

- يا نادرة! يا نادرة! بح صوتي يا بنتي. حسناء صعدت لشقة روحية منذ قليل.

- وسمحت لها يا حاج؟ يا وعدي! ما أكثر ما ألقاه منكم يا عالم!

لطمت نادرة على وجهها مرات متتالية، مولولة، ولم تدخر جهدًا في النواح ومعاقبة أباه على سلامة نيتة؛ غافلتها اللئيمة وقامت بالزيارة التي ظلت تحوم حولها ليالي، بعدما حرمتها عليها منذ عادت العقربة المطلقة! تركت والدها في حيرة من أمره وهرعت صوب حجرتها لتخرج منها متلفعة بعباءة ساترة.

غادرت شقة أبيها جارة رديها الثقيلين بصعوبة، مرتقية الدرج القديم إلى الطابق الثاني حيث تسكن عمتها روحية، التي كانت في هذه اللحظة تتابع في اهتمام حوار المرأتين بين غضب وندم.

- لم أفهم بعد دافعك للزواج في هذه السن المبكرة يا حسناء، وبرجل يكبرك باثني عشر عامًا!

صاحت روحية محذرة:

- أصل! هذا لا يصح.

أشارت حسناء بأنه لا بأس، ووافقتها الرأي:

- بلى يا تيتا روحية. أبله أصل على حق. كنت مغرورة بسني؛ ماما أفهمتي أنه كلما كانت الفتاة صغيرة في السن تشرطت في الاختيار، وكلما زاد فارق العمر بينها وبين زوجها زاد دلالتها عليه وحق لها كل طلباتها، وكلما كبرت ترضى بقليلها أو تبور.

نهرتها أصل مستهجنة:

- عيب يا حسناء! لا تردددي كلام الجهلاء هذا. لسنا سلعةً للعرض والطلب.

- افتحن الباب، افتحن الباب.

هزت أصل رأسها في أسي لاوية ثغرها بسخرية، في حين انتفضت حسناء لصرخات أمها وخبطاتها المفزعة على باب الشقة الذي أسرع روحية بفتحه؛ لتنقض نادرة على ابنتها كالإعصار وتشدها إلى جانبها.

- تكسرين كلامي يا تربية الندامة؟ أبيتُ أعلم في «المتبلم» يصبح ناسيًا!

التفتت مواجهة أصل في كراهية جلية:

- لا تغسلي مخ البنت يا آصال. أعرف سمك الذي تتفتينه في عروقها. البنت صغيرة ونيتها سليمة، لماذا تحاولين أن تخربي بيتها كما خربت بيتك وبيت أمك؟ لماذا تحاولين إمالة بخت نساء العائلة؟ أبوك طَفَسَ منكِ وزوجك كذلك! تريدين أن تُطفشي أيضًا زوج هذه البنت الغلابة؟

أشاحت آصال وجهها عنها بقرف، قائلة:

- والله قلتهم أحسن!

اتسعت عينا نادرة وصاحت في عصبية:

- اخربي، قطع لسانك! لا تأتي بسيرة الرجال المحترمين بالسوء. أخي من خيرة الرجال لا يتخير عن المرحوم زوجي - تهدج صوتها بفعل الغضب - أخي! أخي سأزوجه أحسن منكِ مئة مرة؛ بنت عشرين. كان أولى بكِ أن تحمدي ربنا عندما قبلكِ بعبيك. لكن خيرًا فعلتِ والله؛ من عانس لمطلقة - ضحكت ساخرة - يا قلبي لا تحزن.

كفى بنادرة حقيقة أنهما تطلقا لثُوقَع على آصال الملامة! رغم أن جلال لم يخض في تلك السيرة، مكتتمًا على واقعة الطلاق، لتصير سرًا يتقاتل الناس على معرفته. لما اكتفت نادرة ولكفرتها بين الناس لو كانت على علم! بُأهي بين الناس بحجاب ابنتها وهي بعد في العاشرة من عمرها.. قتلت طفولة حسناء! وها هي اليوم شعرها يبين من طرحتها؛ تُخرج كامل غرتها المصبوغة، وتلبس كالكاسيات العاريات، والاسم مُحجبة؛ محترمة في عُرف الناس، على عكسها.

أواه لو عرفت أمها السبب وراء الطلاق! لم تنفك تدعوها إلى الحجاب وتبتهل لله أن يغفر لها ويهديها إلى الحق كلما أتت على ذكر أنه عادة وليس عبادة. كم أمها طيبة! وللغرابة جلال

شخص متحضر لم يسئ إليها وقد كان بإمكانه! للحق.. لم تتوقع منه ذلك.

- ماذا جرى يا عمتي؟ كيف تسمحين لابنتك بالتدخل في حياة ابنتي والوسوسة في أذنها؟

وجهت نادرة حديثها لروحية في عتاب شديد اللهجة، متغلبة على محاولة أصال مقاطعتها؛ لتزجرها الأخيرة في شراسة:

- مهلاً، مهلاً، كيف تسمحين أنتِ لنفسك أن تحدثي عمك بهذه الطريقة؟

أجابت ساخرة:

- منكم نتعلم يا حبيبتي؛ منذ لجأتما إلينا للسكن معنا في منزلنا وشجاراتكما تصل لمسامعنا، نسمعك وأنتِ بعد طفلة ترفعين صوتك على أمك.

(تستأهل! أمي تستأهل صراخي في وجهها؛ كل مرة أفعلها أكون محقة.. صمتها وخنوعها وسليبتها جراً مثل هذه الأشكال عليها وعليّ)

تابعت نادرة في شماتة:

- لذا لم أستغرب طلاقك بهذه السرعة؛ واحدة في مثل قلة أدبك وقلة أصلك لن تعمر مع أخي الدكتور المحترم.

هتفت أصال في غضب:

- زودتها كثيراً، لولا أنك في بيتي ل..

شهقت نادرة في حدة:

- بيتك؟ هذا بيت أبي، مشكوراً أواك فيه.

- هذه شقة جدي! وورثتها أمي عنه.

قالت نادرة بتصميم مستخدمة كفيها في التلويح العنيف:

- ثم باعتها لأبي وأخذت نصيبها منه نقدًا. لقد تزوجتُ يا حبيبتي في هذه الشقة لأبقى قريبة من أمي وأمريضها في أيامها الأخيرة، وحين توفي زوجي وضاعت بكما السبل في الوقت نفسه أعادني أبي إلى بيته ليسمح لكما بالانتقال إلى هنا - وجهت حديثها لروحية الممتقع وجهها - أخبريها يا عمتي.

- نادرة! هل فقدتِ عقلك؟

قاطع صوته الرجولي مشاجرتهم النسائية، وهو يذلف عبر باب الشقة المفتوح لتتحول أنظار أربعتهن إليه؛ تبادل مع أصال نظرة عابرة شابها بعض الارتباك، فيما تهتدت حسناء في ارتياح لمرآة؛ حتمًا سيحول بينها وبين غضبة أمها عليها. بينما حدثته أخته في غيظ وبدا أنها غير مرحبة بحضوره، وهي تسأله:

- جلال! ماذا أتى بك؟

حث الخطى نحو عمته التي طالعتهم بامتنان لتدخله واستنكاره،
مجيبًا:

- أبوك استدعاني لحل مشكلة ابنتك - قبل رأس روحية - أنا آسف يا عمتي - استدار إلى أخته أمرًا - يا بنت الأصول! اعتذري حالاً لعمتك ولأصال.

حركت نادرة رأسها معاندة:

- لا، لن أعترض، هي من بدأت. لماذا تدافع عنها؟

رفعت أصال هامتها معترضة:

- لا ترغبها على شيء. هي عاقلة بما يكفي لتحمل مسؤولية نفسها. لا تحتاج لمن يملئ عليها أفعالها.

رمقها بنظرة مفادها «أنتِ حتمًا معتوهة؛ أنا أتخذ صفك!»، لكنها لم تعرّها اهتماما وهي تتسحب من بينهم، تنهب الدرجات في طريقها إلى سطح البيت، لتتوجع كرامتها في الخلاء على انفراد.

- أنا آسف يا أصل. لا أجد عذراً لتبجح نادرة.

تسمرت مدهوشة؛ لم تتوقع لحاقه بها بهذه السرعة، لم تتوقع لحاقه بها على الإطلاق، لكنها لم تستطع النظر إليه أو تقبل أسفه. تضرر نادرة لها الكراهية منذ زمن بعيد؛ كون أصل تسير على هواها مُحطمة أعرافهم المقدسة، تتبع نادرة معها سياسة العدا في الخفاء؛ تخز وخزاً كالإبرة دون أن تُسِيل دماً، غير أنها سنت سكينها اليوم؛ كالت لها بما لا يهون شأنه أو يَمُر عليه مرور الكرام. جاهدت أصل للمحافظة على ثباتها؛ لازمت مكانها متشبثة بقوة بسور السطح، تغالب دموعها. قالت بعد هنيهة بصوت مختنق رغماً عنها:

- آسف على ماذا؟ على أننا نعيش بالإحسان طيلة هذه المدة، أرجوك!

رق قلبه لضعفها غير المعهود، وأثناها بلهجة حانية:

- أصل، توقفي عن وضع هذه العوازل بينك وبين أقرب الناس إليك؛ نحن أهل.

التفتت إليه في تحفز مفاجئ، قاصدة تغيير دقة الحديث:

- يجب أن تتخذ صف حسناء وتساعدنا للحصول على الطلاق. أمها أفكارها رجعية، وأبوك رجل كبير؛ نادرة ستضغط عليه. لا تتخل أنت عنها؛ البنت يتيمة وبحاجة إليك.

- لا تستعجلي؛ لعلها نزوة عابرة لا تستدعي خراب البيت. لا

تقلقي، سأحرص على أن يراضيها.

هزت رأسها في إصرار، مفسرة حبتها في حماس:

- صدقني الطلاق في صالحها في الحاليتين؛ خسارته لها عقاب رادع له ومكسب لها، فلو أنه باقٍ عليها ومعتزف بحجم ما صدر عنه فحتمًا سيسعى إلى ردها إليه والإخلاص لها، بعدما يكون قد اتعظ وتأكد أن مجتمعه وإن كان لا يحاسبه على الخيانة فإن الله لا يغفل ولا ينام، وزوجته كذلك لن تسكت وتمرر له أمرًا جليل كهذا، أما إن كان مكابرًا على الاعتراف بخطئه في حقها فحسبها ألا تبقى على ذمة زانٍ عاصٍ ولو يومًا واحدًا.

تنهد جلال في إحباط:

- كل المشكلات حلها في رأيك الطلاق؟ إنها حامل بطفله يا أصل! لماذا نحرمة من أبيه؟ وفي الغالب لن تستطيع معاودة الزواج، وإلا أخذ الولد من حضانتها. لماذا تُفسد حياتها بالكامل؟
صاحت مستنكرة:

- ألم تُفسد خيائته حياتها بالفعل؟ لم يمر عام واحد على زواجهما، ماذا تتوقع أن يفعل بها تاليًا؟ لماذا تكون مضطرة إلى التنازل وتقبل بأحد خيارين كلاهما سيئ؟
أشار إليها بالتروي، قائلاً في هدوء:

- أليس جائزًا أن تكون حسناء قد ساهمت في ما وقع بشكل ما؟ لا بد من التآني وحل الأمر بعقلانية ألا تأخذنا الكرامة فندمر كل شيء. لا ضير من فرصة ثانية.

زمت شفيتها محتجة:

- لا مبرر للخيانة. لا تُلم الضحية يا حضرة. ثم إن الفرص الثانية تُمنح عن طيب خاطر، هذه ليست فرصة ثانية، هذا

فرض عين!

رمقها مستاءً لبرهة ثم قال بلهجة ذات معنى:

- فرضاً أنك محقة؛ ليس الطلاق أمراً هيئاً لدى كل الناس كما هو لديك.

فطنت لما يرمي إليه فسكتت قليلاً، ثم عقدت ذراعيها على صدرها ببطء وتساءلت في ضيق متهم:

- الخيانة هي التي أمر هين؟! خيانة الرجل فحسب؛ لأن خيانة المرأة.. أوه! أحاول فقط تخيل الوضع معكوساً.. قطع رقاب، أليس كذلك؟

زفر في يأس:

- والله هذه طبيعة مجتمعنا الشرقي المتخلف، فأحسن لك يا أصل أن تهجري إلى بلد أجنبي تتسلخين فيه من أبناء جلدتك تماماً.. you don't fit in here.

ارتفع حاجباها لوهلة في دهشة، متسائلة:

- العيب في إذن لا في المكان! - أومأت متفهمة - لعلك على حق، أنا لا أتمني إلى هنا، العالم العربي عموماً هو أسوأ مكان يمكن أن يعيش فيه كائن مؤنث في كل أنحاء الأرض؛ مجتمع ازدواجي يكيل بمكيالين، سمة أهله إنكار بل ومباركة السوءات التي يتعرض لها جنس كامل باعتبارها «عادي يعني»، وكفاكن ادعاء ومبكي، لا داعي لكل هذا الصداق، أليس كذلك؟ - أطلقت تنهيدة عميقة - لهجرته فوراً لولا أنني سأصبح خارجه مواطنة درجة ثانية أيضاً، لا يميزون على أساس الجنس صحيح لكن ماذا عن العرق واللون والدين؟ - عقدت حاجبيها متذكرة - لكن والله ثمة أمل. هل تعرف جزر القمر؟ البلد العربي الوحيد الذي

وقع بشكل كامل اتفاقية (سيداو). في حال لم تسمع عنها؛ هي اتفاقية دولية تابعة للأمم المتحدة للقضاء على كل أشكال التمييز ضد الإناث. تخيل؟ لم تبدِ جزر القمر على بنودها أيًا من التحفظات التي أبدتها باقي الدول العربية ومن بينها مصر بالمناسبة. طبعًا، يخشين فقدان هويتهن القمعية. أصدقك القول؟ لقد تفاجأت كون مصر وقعت أصلًا! - تابعت بحالمة - أما حكومة جزر القمر تعترف بشكل كامل بالمشكلات التي تعاني منها النساء، وتحاول حلها مع لجنة متابعة الاتفاقية القادمة للتقييم شخصيًا! الاعتراف بما يحدث وعدم إلقاء اللوم على الضحية يكفل الحد الأدنى من المعاملة الإنسانية، ألا توافقني؟

مط شفثيه في استخفاف، ثم أحنى رأسه مبتسمًا ولم يحر جواب؛ أثر الانسحاب خائب الرجاء، يبغض الجدل العقيم الذي لا يحرك المياه الراكدة، ويشعر بسوء بالغ نحوها؛ كم هي منفصلة عن الواقع بشكل مثير للقلق والشفقة! تتسبب بالأذى لنفسها ولمن حولها بالضرورة.

جلست روحية بجوار ابنتها حول إحدى الطاولات الزجاجية المتراصة في قاعة الأفراح الصاخبة. تنحنت قليلاً ثم مالت عليها قائلة في استعطاف، متغلبة على ضجيج الموسيقى حولهما بنبرة صوت عالية:

- متى ستنتهي مقاطعتك لي يا أصل؟

بقيت الأخيرة على إعراضها وشدة جسدها، لتستطرد روحية مغتزمة الموقف؛ لولا أن أصل لا تستطيع التخلف عن حضور فرح صديقة عمرها صفا، ما ملكت أمها فرصة مجالستها والحديث إليها دون أن تستطيع أن توقفها، كما فعلت طيلة الأيام السابقة.

- كنا بحاجة إلى المال يا أصل. لماذا لا تريدين أن تفهمي؟ كيف كنا لنعيش وأبوك حالف عليّ يمين طلاق إن خرجت من البيت للعمل، في حين كان يرسل إلينا نفقة هزيلة؟ حيلته كثيرًا ليزيدها لكنه كان مقتنعًا أنها زائدة أصلاً عن حاجتنا وأني لا أطلب منه المزيد إلا لأسرقه! عمدت إلى تربية الطيور لسد حاجتنا وبيع الفائض، لكن ماذا بشأن تعليمك الخاص وكسوتك وكل ما تشتهين؟ من بعد وفاة جدك لم أكن لأنزع عنك فضله الذي غمرك به في حياته، لا سيما في تلك السن الصغيرة. تذكرني جيداً ما تحولت إلى ارتدائه حين عاد قاسم من سفره واستقر في العيش معنا، وكيف اضطررتُ إلى نقلك إلى مدرسة ثانوية حكومية كي لا يكتشف أمر النقود ويصادرها منا، النقود التي أنقذتنا حين انقطعت عنا نفقته نهائيًا. كوني ممتنة.

زفرت أصال وقالت في نفاذ صبر:

- نادرة حاقدة علينا، لن تترك لنا الشقة يومًا واحدًا في حال وفاة خالي. ألم تضعي هذا بدوره في حسابك؟

أومات روحية متحسرة، وقالت وقد تهدج صوتها:

- هل تفهمين إذن لمَ دفعتك إلى كنف رجل أمين عليك، يعتني بك ويكفيك شر الحاجة؟ وهل تتخيلين الآن حجم لوعتي حين فرطت في هذا الزوج بمنتهى الطيش؟

جزت أصال على أسنانها ولم تستطع مقاومة الهجوم على أمها؛ ملتفتة إليها بعينين متسعيتين من الغضب، هانفة:

- لسنا بحاجة إلى رجل! لماذا لا تتعلمين من أخطائك؟ كان عليك مصارحتي منذ زمن لأنحت الصخر؛ لتخطي حاجتنا إلى أي بشر ونعيل أنفسنا بأنفسنا.

تنهدت روحية في أسى، وقالت مُحاولَة استمالتها:

- يا بنتي.. أنتِ غاوية تعب وشقى! لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وكل له دوره الاجتماعي، تكمل بعضنا البعض؛ الرجل يؤمن المادة والمرأة مسؤولة عن البيت والأطفال. لماذا لا تلتزمين بدورك لترتاحي وترichi الجميع؟

لوحث أصال بكفها في استياء، مشيحة النظر:

- اسكتي يا ماما، اسكتي. حديثك يصيبني بالغثيان - تطلعت نحوها ثانية بعينين مغرورتين وأنفاس متسارعة - لن أسامحك على تمسكك بهذه الشقة. كم رجوتك أن نستأجر شقة في القاهرة نعيش فيها معًا! توسلت إليك: العمل هناك أجدى يا ماما، رجوتك ألا تعيديني إلى هنا ثانية، أن ترحميني من نظرات الناس، أن تعفيني من جيرة نادرة ولسانها السليط. لكنكِ أبيتِ بحجة

كاذبة؛ لن أخرج من شقتي، من يترك ملكه ليستأجر؟ وأنتِ لا تملكين شيئاً ونعيش عالة على أخيك.

تجبرت ملامح روحية لوهلة، ثم بللت شفيتها بلسانها وهي تقول في ضيق واضح:

- نادرة نابها أزرق؛ لو تركنا الشقة لما مكنتنا من استعادتها
لو لم نستطع فرضاً الالتزام بالإيجار شهرياً، فضلاً على أنكِ
كنتِ تعولين على عائد تأجيرها ليتكفل بدفع الإيجار الجديد في
القاهرة - تابعت في سخرية لاذعة - ها قد عرفتِ أننا لا نملك
ذلك فماذا أنتِ فاعلة الآن يا صاحبة الشعارات الفارغة؟

دمدمت أصال خائبة الأمل:

- وهل تركتِ لي شيئاً لأفعله؟ لا أصدق أنكِ عاودتِ الكذب
عليّ - تابعت متهمكة - جبينك أسود كحل يا ماما.

تبادلت الاثنان نظرة متحدية، أعقبتها روحية بإدارة ظهرها
لها قائلة بلهجة حازمة:

- بالمناسبة يا أصل، أنا التي سأقاطعك من الآن فصاعداً
لحين أن تتأدي في الحديث إلى أمك.

نكست أصال رأسها، زامة شفيتها، مؤرقة التفكير. تلفي نفسها
مجدداً فاقدة المأوى والقدرة على التصرف. تعيدها حكمة
الأقدار إلى ذات الفتاة الصغيرة المكسورة التي كانت عليها قبل
نحو عشرين عاماً. تخيلت أن عودها قد اشتد ورمت عنها
الحاجة بطول ذراع، لكنها ستبقى ضعيفة قليلة الحيلة إلى ما
شاء الله، وقد حرصت أمها جيداً على ذلك! لماذا قد تفعل بها
هذا؟ لماذا يعدون الولد من الصفر لأن يكون مسؤولاً ومعاركاً
للحياة ويعدون البنت لأن تكون عالة وتابعة لا تقرر مصيرها
بمساعدة يدها؟

لاستطاعت تدبير أمرهما لو أنها أعدت العدة له، لكن أنى لها التصرف على هذا النحو المفاجئ؟ راتبها المسكين لن يعيل فردين زائد مسكن؛ لقمة العيش كالضرب الكاسح! إلا إذا تركت العمل الذي تحب وواصلت الليل بالنهار لأجرٍ مجزٍ. ليس بالهين عليها أن تفعل؛ تركها العمل البنكي البغيض وتفرغها للورشة منذ زواجها يحيل هذه الخطوة لتضحية مفاجئة، فضلاً على الإيجارات الباهظة، وضعهما البائس حتمًا سيفضي بهما إلى منطقة شعبية ومساحة متواضعة!

ماذا عساها أن تفعل؟ هل تقبل معروف خالها مُبقية على الوضع الراهن كأنما لا تمسسها إهانة؟ أو الأسوأ أن تحني هامتها لجلال وتستنفذ بحقوقها المالية من جراء طلاقهما، فتخرج من الورطة بإهانة مماثلة؛ «وكانك يا أبا زيد ما غزوت!» تلح كبرياؤها كالنبض الضارب في الصدغ! لا تستسيغ الشعور بالجميل، لا تود أن تكون مدينة لأحد.

تواصل الجلبة انتزاعها من بؤرة أفكارها الطاحنة؛ استسلمت للانسحاب تدريجيًا مجيلة النظر فيما حولها: لا وجه يخلو من ملامح وسمات البشاشة ووهج الاحتفال، الصغير والتصفيق تهتز لهما الأرض، والرقص والموسيقى ينتشران في منتصف القاعة وأطرافها كأذرع أخطبوط. امتد خيط بصرها ليُلقي بطرفه حول العروس؛ اختلاجاتها وحركاتها موحية كلها بالسعادة. ابتسمت أصل لاشعوريًا وتهددت في اطمئنان؛ تبدو صفا مرتاحة وصادقة. أبعد ما تكون عن سمة العروس التي كانتها هي قبل ثلاثة أشهر. هنيئًا لها. لا تود لها أكثر من ذلك.

انعقد حاجباها فجأة في قلق (لعلها ليست الفرحة إياها يا صفا!) البنت في كل الأحوال تفرح بالزفاف وليس بالضرورة بمن تزف إليه؛ الفستان الأبيض كالأميرات والليله التي تتوجهها ملكة

على رأسها تاج؛ هذا يعني أنها صاحبة إنجاز، الإنجاز الوحيد للبنت في رأي الناس - والسبب كذلك وراء خلقها - يمكنها أن تتهم اصطفا الفتيات دون انقطاع على شبك الزواج؛ من لا يسعى لأن يكون ناجحًا ومحبوبًا؟! حسناء أبلغ مثال، لا تنظر إلى حالها الآن! (رباه! لا أود لصفا مصيرًا مماثلًا). كانت بدورها في أوج سعادتها ليلة زفافها.

لم تسلم آصال ليلتها كالعادة من الهمزات واللمزات: آصال المراهقة الفتية التي حملت شمعة في سبوع مولد حسناء قبل عشرين عامًا، تحضر فرح الأخيرة ملازمة بعد مقاعد العزوية، أو العنوسة؛ تحريًا لدقة الكلمات التي تخرج من أفواه الناس الذين لا تنزل أعينهم عن الآخرين؛ مُسلطة على كل ما هو غير مُدرج في جدولهم الحياتية. وأعينهم اليوم تستشعر العار منها، وتمرر لقبًا جديدًا على ألسنتهم؛ آصال المطلقة، ليس لها كاسر ولا رابط.. لا تخيب آمالهم أبدًا!

كان جلال واقفًا غير بعيد عنها في حفل زفاف حسناء؛ خال العروس يرحب بالمدعوين. يتخطف نظراته لآصال حينًا ويلج بها لتبادل النظره حينًا آخر، ويؤدي الاجتهاد في طرق الحديث إليها. لم يجمعهما حدث أو حديث منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا؛ لم تحضر فرحه بعد عودته من سفره الطويل، ولم تحاول رؤيته خلال زيارته اللاحقة لوالده؛ بالكاد تلمحه. أبقت على السياج الذي شيدته حولها، يحول بينها وبين الجميع - عدا أمها وصفا - ويُبَعِّدها بالذات عن جلال الذي سهلت أمها مؤخرًا عبوره إليها، وكانت مخطئة!

انضم ليلتها إلى طاولتها بوجه حماسي، تحرى عن حالها بأسئلة نمطية عابرة تفيد بأنه يعرف إجاباتها مسبقًا. ثم بادر بالتودد إليها بطريقة لم تبدُ متماشية كثيرًا مع ما تذكره عن

طبيعته المتحفظة؛ عليك أن تتزعزعه الكلام انتزاعاً! بينما كان كلامه تلك الليلة منمقاً على نحو غير عادي، كأنه مدرب عليه وأعد العدة لقوله، مسرفاً في الإطراء على ذوقها الراقي في اختيار ملابسها وزينة وجهها، ومثنياً على التزامها الوقار الذي يعده البعض غريباً على الفتيات في هذا النوع من المناسبات، لكنه يعجبه.

لم يكن جلال بحق على سجيته؛ كان يتعرق ويبذل مجهوداً خرافياً في انتقاء الكلمات التي قد تستميلها إليه وتخدم هدفه، لم يكن واثقاً كيف من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها ثانية! وساءه أن لم يجد صدى مبشر في ردودها الشاكرة المقتضبة. أحنى وجهه ناحيتها بعد مهلة شحن فيها حقيقة مشاعره، ليهمس على نحو سمعته منه قديماً، قديماً جداً:

- لا يزال وجهك صوباً ويانعاً يا آصال كسحابة بيضاء صافية.
كأن لم تمر عليكِ السنون التي مرت علينا.

حدقت فيه بمزيج من الدهشة والاستنكار وانتفاضة القلب. لماذا يعيد هذا الكلام بالتحديد؟ خرج عن إطار المجاملة للتلميح بشيء مما مضى، وشرع يزيل كل الحواجز دفعة واحدة، كأنهما كانا باقين على تواصل الأحبة أو أقله ذوي القربي! لعل الوقت أنساه آخر مكان جمعهما وكل الكلام الذي قالتة! لماذا لم تنسَ هي إذن؟ لماذا لم تتخط كل شيء وتُجار حديثه وتبادلته ذات النظرة التي كان يرنو بها إليها؟ لماذا لم تلن لميله إليها الباقي على حاله وتترك نفسها تعود إلى ما سحبها منه أول مرة؟

ولم تعد إلا بشكل صوري وإحساس التضحية العظيمة. ولعلها كانت محقة، وحسبها الطلاق الذي وقع؛ على الأرجح جلال الذي تزوجته قبل بضعة أشهر ليس جلال نفسه الذي أحبته قبل عشرين عاماً، ليس الرجل الذي بكى!

هبت من مقعدها غير قادرة على الاحتمال، خرجت مسرعة كالطلقة من بين التجمع النسائي، استوقفتها أمها لتلقي التحية على بعضهن، مستنكرة عدم مشاركتها في مراسم الحزن؛ فلم تبال مواصلة طريقها، ولم تشعر أنها في حاجة لإبداء الأسباب. وقفت تفر في غيظ خارج القاعة المخصصة للنساء بدار المناسبات بالمنصورة، غير مصدقة، تكاد تضرب كفاً بكف من فرط الذهول. اقتربت من اللافتة الكبيرة الموضوعة أمام مدخل القاعة، تدقق النظر جيداً وتعيد القراءة:

عزاء المغفور له بإذن الله

عبد الرحمن إسماعيل المهدي

تتأكد أن الجمع بالداخل حضور لعزاء رجل دفنوه عصر اليوم، قبل ساعتين لا أكثر! تتشكك في معرفتهن بذلك؛ ضحكاتهن لا تزال تطرق أذنيها حيث تقف على مبعدة منهن، شاعرة بالحنق والغضب. حركت رأسها تجاه قاعة الرجال المجاورة، ألقت نظرة سريعة داخلها؛ لا ترى غير أقداح قهوة وشاي ودخان سجائر وصمت مطبق على الرؤوس. هزت رأسها في استحسان، وطالعت جلال المتخشب في مدخل القاعة؛ هذا محيا إنسان حزين. على الأقل غير متبلد الإحساس. عظم الله أجرك يا جلال. تهتدت في قوة ونزلة الدرج المفضي إلى الشارع حيث سارت الهويني عائدة إلى المنزل القريب.

قبل ساعة:

تركت أصل أمها في صحبة نادرة وحسناً يتهيأن لاستقبال الوافدات، واتخذت مقعداً في قاعة العزاء، آخذة في استحضار سمات خالها الطيبة والترحم عليه، لن تبكي، لا تحب البكاء على الملاء، تعتبر البكاء شعوراً حميمياً خاصاً، إعلانه ادعاء أو إثارة للشفقة، كما أنها لم تكن تشعر بالحزن أو الخسارة ليسهلاً مهمتها في استدراا الدموع؛ تبغض النفاق؛ لم تحظَ برابطة مميزة مع خالها كالتى شهدتها مع جدها، بل كانت علاقتهما أقرب إلى التحفظ والرسمية، فضلاً عن أنه كان عجوزاً ومريضاً ومفارقته الحياة أمر محتوم لا يبعث على الدهشة أو الحسرة؛ غير أنها تحب أن تُبدي الاحترام والهيبة للموت؛ أن تعطي الحداد حقه، وقد كان رجلاً صالحاً، تشهد له بذلك، بل لعلها كانت تشعر بالحقْد على أهل بيته.

لولا المثل الطيب الذي أرساه عبد الرحمن كزوج وأب - ومن قبله جدها لأمها إسماعيل - لनावبت كل الرجال العداة! كان خالها هادئ الطباع، صموئلاً، لا يميل إلى الأحاديث العابرة وتلك التي تقتل الوقت، لو لم يكن لديه ما يقول لا يفتح فاه، ولو لم يهتم بما يقال لا يشارك في الحديث، يقطعه بلطف أو لا يشجع المتحدث فينقطع من تلقاء نفسه. لم يكن يتدخل في شؤون الآخرين؛ وهذا أكثر ما أحبته بشأنه، لا تذكر أنه قد راجع تصرفاتها مرة أو أملى عليها كيفية تصريف حياتها، رغم السنين الطويلة التي عاشتها معه تحت سقف واحد اتضح لاحقاً أنه ملك له؛ ثمة أشخاص يملون إراداتهم على كل من يقع تحت طائلتهم بقانون المادة! حتى حين طُلقت من ابنه لم يوقع عليها الملامة شأن الآخرين، ربت عليها قاصداً كل حرف قاله: «ربنا يعوضك بأخير منه». لا تعرف ممن ورثت نادرة طباعها!

تجل عطف ذلك الرجل، مريض زوجته لسنوات طويلة جداً؛ منذ شبت أصل ووعت وزوجة خالها قعيدة الفراش - بينما

تقوم نادرة بشؤون المنزل منذ نعومة أظفارها - لكنه بقي على إخلاصه لها، ولم يفكر في الزواج بأخرى، في حياتها وبعد مماتها، وقد كان يدعو إليه كل من حوله والمبرات جاهزة مفروشة كالرمل في طريقه! وكيفيها كرمه ومدته يد المساعدة لأُمها دون تجريح. حافظت على هذه الذكرى الأخيرة متقدة في ذهنها قبل أن تغرورق عيناها شاعره بالحاجة والقهر؛ إخلاء الشقة صار أمراً واقعاً بوفاة خالها، وليس أمامها غير التصرف سريعاً في ما جنته من زيجة جلال، وهو فضل من نوع آخر لم تكن تحب أن يُحسب له عليها، كانت قد حرمت مادته على نفسها، لكن الوقت كان سيقاً بحق، لم يمهل عزة نفسها مخرجاً آخر للأزمة!

ضحكة ممتدة وصليل أساور اصطكا بمسامعها ليخرجها من حالة الرثاء. حملقت في ما كان يجري حولها على غفلة منها؛ اكتظت القاعة بابتسامات ناصعة وقهقهة مستترة في نوع من الحرج المصطنع، يتسابقن على الترحيب ببعضهن البعض، ويباهين بملابسهن المختارة بعناية للعرض، يتبادلن النميمة كأنهن في حفل شاي، يُبدين الحماس والسعادة بحشرتهن في مكان مغلق، لا تلمح أثراً لبكاء أو نهضة أو لمحة تجهم، حتى نساء بيت المرحوم الثلاث وقرباته منخرطات في الضجيج! لا ترى غير حلي ذهبي مجلجل مع حركات صاحباته، وأصباغ وجوه غير مناسبة للحدث بالمرة، وطلاء أظفار لامع في أكثر من يد، لا أثر لتأبين! لم نفقد عزيزاً اليوم.

اليوم الثالث على التوالي الذي تتردد فيه أصال مع أمها على بيت خالها المتوفى، ترتدي السواد وتمكث النهار بطوله منفصلة عن هرج المعزين الساري حولها؛ تقرأ ما تيسر لها من القرآن، وتحقق في طليقها الشارد، مُتضاربة المشاعر!

(أعرف معنى أن تفقد أبًا، لكن لا أعرف معنى أن تملك واحدًا، وأعرف أنك ملكت ففقدت، وهذا أبشع! وأختك نادرة؛ هذه المرأة التي تمثل السواد الأعظم من الناس حولنا؛ لن تجد لديها ما فقدت وما ملكت يومًا.

انظر إليها! ثلاثة أيام تضيف المعزين، تستमित في الترحاب بهم، تطبخ وتمد الطعام ولائم؛ لئلا يقلن عنها بخيلة! لا يفرغ الواحد منهم من مشروبه حتى تلحقه بآخر، وتعرض عليهم العصائر والكيك. تحاول التسرية عنهم بكل ما أوتيت من نكات وذكريات؛ يصعب عليها أن ترى على وجوههم العبوس والدمع في بيتها! لا يصح أن يخرجوا من لدنها حزاني، فتضحكهم بنفسها، وتُخفِض صوت تلاوة القرآن لئلا تعلقوا على أصواتهم فيرتبكوا ويجنحوا إلى الصمت والحزن.

ليتشكك المقبل على العزاء أنه أخطأ بيت المرحوم! يتردد على باب الشقة التي تموج بالثرثرة والضحك ورائحة الخضر واللحم، لكنه سرعان ما يأخذ مقعده، ويأكل ويشرب ويضحك، ثم يشد على يد أهل البيت في حرارة، مودعًا في تجهم خاطف: «البقاء لله».

يفتح الله عليك! أنت قوي الذاكرة؛ لم تنس بعد أين أنت!

وتجلس أنت يا جلال في ركن منزو، روحك طافية، أراها محلقة في بعد آخر، لو لم تكن؛ لَقَمْتَ من عزلتك تلك، وجرجرت أختك من طرحتها المطرزة بالترتر، ونزعت عنها حليها الكاملة، وطردت هؤلاء القوم جميعًا من شقة أبيك الميت للتو؛ إن أحدًا منهم لا يعرف للموت حرمة! لكنك لا تقوى على الحراك، جسدك أصبح مبرمجًا على المصافحة وهز الرأس وتلقي التعازي بحركات آلية؛ لم أنس بعد كيف تتلقى الموت، كيف تلقيته من قبل في أحضاني! أنت مسكين يا جلال، وحيد، يتييم، بلا أهل ولا

ولد. حالك يُرثي لها، يُحزنني أنا نفسي، تصور؟)

لوحثُ آصال فجأةً إلى حسناء من طرف خفي تطلب منها
الاقتراب؛ استجابات الأخيرة مستوحاة؛ لتشير آصال عليها بحث
خالها على الخروج إلى الشرفة، ليستنشق بعض الهواء النظيف
ويجلي صدره من التعب الواضح عليه. غير أن حسناء هزت
رأسها مستنكرة:

- والمعزون؟

انقلب وجه آصال وردت ممتعة:

- هؤلاء ليسوا معزين. حسناء، أرجوكِ لا تُجَوِّدي! افعلي ما
قلت فحسب.

تابعت في اهتمام حسناء وهي تصرفه، لكنه خرج من الشقة
عوضاً! مكثت آصال في مكانها دون حراك لفترة، ثم استأذنت
للصعود إلى شقتها في الطابق الثاني، بيد أنها أكملت الدرج إلى
نهايته؛ ودلفت إلى السطح تقودها الخطى شطر الركن القوي
منه، حيث توقعت أن تجده مفترشاً الأرض وعيناه صوب السماء.
تهادت إليه فأدار وجهه نحوها متسائلاً، فيما أخذت مجلسها إلى
جواره دون جواب، وشرعت تقرأ عليه سورة يس من المصحف
الشريف الذي حملته معها. كان مغمض العينين في راحة، منصتاً
بكل جوارحه، ولما فرغت ونظرت إليه مستطلعة، ظل على حاله
لبرهة، ثم توجه إليها بالامتنان، مبتسماً في خفة:

- ألا يجدر بكِ التلاوة وشعرك مغطى؟

احتقن وجهها من الغيظ ليرفع كفه مستسماً في لين:

- أمزح. وربما لا! تهمني مصلحتك بالفعل يا آصال؛ كل شيخ
وله طريقة.

دفعها أسلوبه للضحك في استهجان، وهي تجيبه:

- «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» يا سيدنا الشيخ.

سألها بصوته الأجش:

- ماذا لو أنه يعينني؟ - زفر متراجعا - على أي حال، شكرا لك يا آصال. لن أنسى أن هذا معروفك الثاني، وفي هذا المكان تحديداً؛ كأنك موعودة بي!

بهتت لوهلة وأطرقت مُحرجة، بينما تنهد في أسي مستطردا:

- لا أراك الله مكروهاً في عزيز لديك.

واجهته في صدق:

- خالي كان عزيزاً عليّ؛ بمثابة... أب لم أخط به!

راعه تجعيدات الحزن حول عينيها وثغرها المرتعش؛ فتلقف يدها وضغط عليها في تأثر ومواساة. مجتراً وإياها ذكرى شبيهة.

دلفت أصال إلى منطقة صمت عميقة؛ تحديق في وجه صفا على نحو التحديق في الفراغ، وعقلها يعمل بدقة بندول الساعة دون أن يعقل غرابة أفعال صديقتها، حيث أسرفت على غير عاداتها في التزين بصورة مبتذلة، مُستبدلة بتحشمها المعروف عنها سروالاً فاتحاً غير ملحوظ لونه؛ تبدو به عن بعد كأنها لا ترتدي سوى بلوزة شفافة ضيقة وحذاء ذي كعب عالٍ يصدر نغمًا مغريًا، يستهدف كل من في نفسه هوى.

منذ وطئت أرض النادي قبل قليل للتنزه على الأقدام؛ وأصال تضبطها تغازل الرجال في طريقهما، بل تقسم إنها تدفعهم دفعًا إلى ذلك؛ تبادلهم نظرة مغوية ويفتر ثغرها عن ابتسامة ذات معنى، وقد تلتفت بعد المرور بهم خلفها لنظرة أخيرة! جسدها يستجيب بوضوح؛ فتتدلل في مشيتها وتهدئ من خطواتها عند الاقتراب من أحدهم، وقد ترتطم به عن غير قصد مفتعل. لم تفتأ أصال تنبهها: حاذري.. انتبهي.. أسرع؛ حتى ساورها الشك أنها تعتمد ذلك.

لوحث صفا في وجه أصال تحثها على الكلام بعد جلوسهما لفترة دون أن تبادل كلمة واحدة؛ لتدفع الأخيرة في ثورة مفاجئة: - ماذا دهاك يا صفا؟ لماذا تتصرفين على هذا النحو؟ لم يسبق أن تجاوبت مع أحد وأنت أنسة فما بالك وأنت على ذمة رجل بالفعل!

بهتت صفا وانسحب اللون من وجهها لافتضاح أمرها. لكنها بعد صبية ذات قلب غض لا يعرف كيف يقي نفسه من التشوق

للحب! ترى أَمْلاً موعوداً في كل التفاتة رجل إليها. هزت ساقها في
توتر وقالت وقد ترقق الدمع في عينيها سخياً:

- أنا في حال يُرثى لها يا أّصال. دعيني أّحاول الشعور بأّ
شيء؛ أّأؤكد أنني لستُ متبلدة المشاعر. أّكاد أموت من الخيبة!
حدقت أّصال فيها مستوضحة:

- ماذا تقصدين؟ لا أفهم شيئاً.

استنشقت صفا جرعة كبيرة من الهواء آخذة نفساً أطول مما
يلزم رثيّها اللتين كادتتا تسحقان تحت وطأة التوتر والانفعال.
لم تكن مضرية عن الزواج كآصال؛ بالعكس كانت راغبة فيه
بشدة، كل ما أّخرها عنه هو أنها كانت لديها تصورات مثالية
وحسب عن الشخص المناسب لها، لم تنطبق بالكامل على أحد
ممن طلبوا يدها، وكان وضع إبراهيم بالذات مختلفاً عنهم؛
لم يلقَ قبولها من أصله.. وللآن! غير أن مرور السنوات عليها
كقطار لا يقف في محطة أّربعها مع تخطيها الحد المسموح به
للبقاء عازبة. كان لديها شيء تخشى أن تفقده!

قالت بصوت متهدج من أثر الرثاء:

- هل تعرفين أن كل ما رددته على مسامعك تلك المرة أهلي
لقنوني إياه؟ مارسوا عليّ كل أنواع الحيل والضغوط حد التهديد
بالتبرؤ مني. لعلي لم أّندم على الانتظار قدر ما ندمت على
الإقدام. لم أّكن لأّتنازل بخاطري، ليس من أجل إبراهيم.

- ما علاقة هذا بذاك؟

أّشارت صفا إليها بالتحلي بالصبر ريثما تبوح بأسرارها، مُحجمة
خجلاً عن سرها الأكبر في الفراش؛ حيث يرتوي زوجها فيما يتركها
صحراء جرداء دون شربة ماء؛ لا يسألها حتى إن كان قد قام

بعمله! لا تقلقه استجابتها.

جزت على أسنانها في غيظ، قائلة:

- ببساطة، لا أطيق إبراهيم. كم هو شخص أناني ووقح وثقيل الدم! وما أدراك وبخله؟ يكرهك في عيشتك. يجبرني على مواصلة العمل وأنا أكره التدريس! منيت نفسي بعد الزواج بالراحة من عناء العمل في المدرسة بمديرها ومعلميها وتلامذتها، لكنه أصر أن أشارك براتي - تابعت في سخرية حانقة - يحاول أن يُجَمِّل الصورة ويرفع شعارات المشاركة الوجدانية والحميمية الباذنجانية، لكن من يخدع؟

ابتسمت آصال في تعجب؛ لا يزال عمل المرأة لا يحظى بتأييد المجتمع الشرقي، لا يعتبره ضرورة من ضروريات الحياة، ليس في عُرفه كالزواج! لم يزل أقرب إلى الرفاهية والتسلية، يكتسب شرعية في حال الحاجة المادية الملحة لا غير؛ تتناسب المرأة قطعاً مع أثاث المنزل وحوض الغسيل أكثر مما تتناسب مع المخلوقات الحية، تقتضي طبيعة جنسها أن تجعل من البيت مكاناً صالحاً للعيش؛ هي في حاجة إلى البيت بقدر حاجته إليها، فهو المكان الأسلم والأشرف لهذا الكائن الضعيف الذي قد تفرسه الحياة وتغمر به!

رمقت آصال صديقتها بشيء من القرف والمرارة؛ مفكرة أن المرأة بذاتها تساهم بالنصيب الأكبر في انتزاع ذلك الحق البديهي من النساء وإقرار الأعمال المنزلية عليهن بدلاً مطلقاً لا يقبل الجدل؛ ذلك أنها تعد الزواج في حد ذاته مهنة وشغلاً شاغلاً، وليس مجرد حالة اجتماعية كما هو للرجل؛ لا ينبغي أن تؤثر على نمط الحياة نفسه.

مصير البنات للزواج! فلا يضيرها أن تتجهز له من البدء ببقائها أقل اختصاصاً وأقل اهتماماً بالعمل وأقصر باعاً فيه؛ تتخلى

في ثانية عن الدراسة أو المهنة إذا وجدت زوجًا مناسبًا، يغرها بالبطالة وثوب الزفاف الأسطوري وجهاز العروس الذي لها أن تختاره من الإبرة للصاروخ، ما يعني قدرًا هائلًا من التبضع؛ كل ما قد يُفقد الفتاة صوابها في الحقيقة. لن تشعر في المقابل بالخسارة لأنها لا تعلق أية أهمية حقيقية على العمل، ليس إلا تزجية لوقت الفراغ وانفتاحًا ضروريًا على العالم للقاء المرشحين لدور الزوج وحسب!

لم تنفك صفا تتشكى من عملها منذ مزاولتها له طيلة عشر سنوات، لكن هل أقدمت لمرة على الاستقالة؟! لئلا يقلل جلوسها في المنزل من فرصها في أن يراها أحدهم، لا لأن العمل يمثل لها شيئًا لا سمح الله! ليست مهنة التدريس التي لم تشغف بها؛ هي لم تحاول أن تبحث عن شغفها الخاص في مجال آخر، لما يلزم ذلك من دراسة وبُحث ومهارات جديدة لا تملكها ولا تريد، إنها تملك مهارة واحدة دربت عليها منذ نعومة أظفارها؛ أن تكون زوجة عاطلة.. ربة بيت.

راهنّت آصال نفسها أن أهل صفا لم تكن لهم الكلمة العليا في إتمام هذه الزيجة كما تحاول الأخيرة أن تصور لها الآن؛ تُراها تشرك آخرين في الجريمة لتتطهر من الذنب وتأنيب الضمير؟ تعرف كم أرادت صفا أن تمارس دورها في الحياة الذي تمرست عليه طيلة حياتها، وبغيره تفقد الإحساس بجذواها وقيمتها! كذا فقدت اتزانها وحشمتها ولم تعد تعقل تصرفاتها؛ تكاد تدفعها إلى الجنون حقيقة أن الزواج الذي وهبت له كامل نفسها منذ الأزل، بحيث لم يبقَ لديها ما تمنحه لشيء آخر؛ لم يحقق لها ذاك الذي منيت به، لم تجد فيه غايتها.

زفرت آصال متحسرة. لأنه ليس غاية! ليس مملكة سحرية في بلاد العجائب، ليس فقاعة وردية طائرة في السماوات الزرق؛ لا

شيء مميّزًا بشأن الزواج لتقف عليه مصائر وحيوات جنس دون الآخر؛ هو أحد أساليب الحياة وليس الأسلوب الوحيد الحتمي، وقد لا يلائم البعض اتخاذ شريك في الحياة من الأساس، فلا حاجة به على الإطلاق، ولن يدخل أحدهم النار بسبب ذلك. إنها تؤذّن في مالطة! حَسْتُ. هذا ناموس الكون بالنسبة للناس حولها.

لم تتابع أصال جيّدًا استرسال صفا في التشكي؛ سرعان ما زمت شفيتها مقاطعة إياها في فتور:

- ليس بمبرر للـ..

تركت جملتها مُعلّقة، تاركة لصفا اختيار المسمى الذي يناسب ضميرها؛ لتهز الأخيرة رأسها معترضة، وتتساءل في حدة:

- ألم تكن الدنيا كلها لتبرر له لو هو الذي في محلي؟ أنا لا أفعل شيئًا.

قالت أصال في هدوء:

- تعقلي يا فيفي ولا تختلقي الأعذار لنفسك - أشارت محذرة - هذه مجرد بداية. لا تعرفين ما قد يصدر عنك لاحقًا لو تماديت في هذا العبث!

طالعتها صفا في بغض؛ من تكون هي لتصدر أحكامها الأخلاقية ضدها؟ عفتها التي تباهي وتتشدق بها في محل تشيك من سائر الناس من حولها!

تابعت أصال غافلة:

- اطلبي الطلاق ما دمت تشعرين على هذا النحو. وهما أنا أمامك خير مثال؛ لا ينقصني يد أو رجل.

لكن تنقصك السمعة الحسنة! الناس يخوضون في سيرتك

وسلوئك ويستبيحون شرفك؛ يخفى عنك ما يقولونه عن عانس
طلقها ابن خالها بعد شهرين فحسب من زواجهما! استعادت
صفا بالله من الشيطان الرجيم تطرد وسوسته الشريرة لها،
وتقول في رجاء:

- كفى الله الشر!

ردت آصال في كياسة:

- الطلاق ليس شرًا. هذه هي الأفكار التي يصدرها لنا مجتمعنا
الحزين ليمنعنا من التمتع بحقوقنا. لا تنسي! الطلاق حلال، لن
يحل الله شيئًا يضرنا أبدًا.

- وكلام الناس مضر، مميت يا آصال.

- يميت فقط الذين يسلمون أذانهم له.

لوحث صفا بكفيها وقالت في صراحة:

- لا أستطيع مجازاة فلسفتك. لغيرت رأيك لو نقلتُ إليك ماذا
يقولون عنك! حتى أُمي، جارتك كل هذه السنين التي تعرفك
حق المعرفة؛ ألحت عليّ لأقطع علاقتي بك، لأسباب عديدة يا
آصال ستجرح كلها مشاعرك.

شكل حاجبا آصال في ارتفاعهما صدمة جلية على وجهها
المبتسم في حزن. بمّ عساهم يتقولون عليها ويأكلون لحمها
ميثًا؟ لماذا يعرقل الناس حيوات بعضهم البعض كالأعداء؟

- وهل توافقينهم الرأي يا فيفي؟

سارعت صفا بالتربيت عليها في أسف وهَم، قائلة:

- سامحيني. لا أقصد إيذاءك. لك أن تتصور لي لم لا يمكنني أن
أخذو حذوك؛ لست قوية ومغامرة مثلك، وأهلي ليسوا طيبين

كأملك، تهمهم سيرتي بين الناس أكثر مما يهمهم أمري؛ سعيدة أو تعيسة كنتُ، المهم أني مستورة.

وخز أصال وصف الستر الذي اختصت به صفا من على شاكلتها دون غيرهن؛ الناس ينسجون سيناريوهات خلاعية عن المشي البطال للمطلقة، في حين أن البنت يمكن أن تفقد كل شيء وتحفظ بعد بكارتها؛ ليست دليلاً على شيء! ما يذكرها بقاعدة العائلات المسطرة كحد السيف على رقاب بناتها؛ تقضي بعودتهن إلى المنزل في ساعة باكراً، على أساس أن كل شيء سيئ يحدث بعد التاسعة مساءً، منطق عجيب! خاصة أن الممارسات اللاتي يخشينها من قبيل السكر والتعاطي والجنس؛ واردة الحدوث في أية ساعة من اليوم! لكن الناس تهتم بالظاهر.. والظاهر يقول: (المطلقة سيئة السمعة، والبنت التي تعود إلى بيتها في وقت متأخر منحلّة... ويبقى القوس مفتوحاً).

عبست لائمة نفسها: كفاكِ يا أصال! ما بالك تدشنين حملة الطلاق للجميع؟ ليحسبن أنك تريدين أن يخبن خيبتك؛ كما جاء على لسان نادرة حين أطلعتك شامته على نبأ عودة حسناء إلى زوجها، تلوك الكلام بين أسنانها وترنو إليك بنظرة متبجحة:

- دلح بنات مريء! البنت ليس لها غير بيت زوجها.

محاضرة إياكِ عن طبيعة الزواج التي لا تقتضي تأمين السعادة الفردية، ولا ضرورة استمراره على أساس من الهوى والميل العاطفي أو الجنسي! تقول نادرة في حكمة عتيقة:

- الزواج للصالح العام، ليستقيم حال المجتمع.

المواليد ثمرة الزواج لا يكفون عن التوالى؛ لَمْ لا ترى أصال أية استقامة؟ بالعكس!

لا تستبعد أن تكون نادرة نفسها من أذاعت عنها أنها مخربة

بيوت! تذكر كيف كان جدها إسماعيل يمتعض من نادرة المراهقة
آنذاك، يقول:

- لا تشبهنا! نبت شيطاني.

ويحذرهما من الاختلاط بها:

- هذه ولية صغيرة، لا أريدها أن تُفسد لسانك.

لو شاءتْ هي لَرَدَّها جلال في الحال قاطعًا ألسنة الكل. لان
وجهها في زهو إثر هذا خاطر العابر، بينما تنهدت صفا في
تسليم، مستطردة:

- قضاء أخف من قضاء يا آصال. غداً أَلْتهِي في الخِلْفَة.

عاد جلال أخيراً أدراجه إلى القاهرة عقب صدور إعلام الوراثة من محكمة الأسرة بالمنصورة، بعدما ظل الفترة الأخيرة يتنقل بين المحافظتين. وقبيل سفره عرج على عمته بزيارة لم تستغرق بضع دقائق، ليقطع على أصل أي سبيل للاعتراض؛ مبدئياً إلى أي حد بات يعرفها! زجرها بعينيه في افتعال وهو يُسلم أمها عقد ملكية الشقة الذي حرره باسم الأخيرة وسجله في الشهر العقاري بعد تسلمه حصته من الميراث. قائلاً بلهجة قاطعة بينما أصل واقفة كالمشدوهة:

- أنتِ أمي. لن أسمح أن تكوني مهددة بشيء سواء كنتِ ميتةً أو على قيد الحياة.

اغرورقت عينا روحية وهي تقبض عليه بشدة بين ذراعيها، وتبتهل محولة أنظارها بينهما بطريقة مفضوحة:

- أطل الله في عمرك يا بني، ورزقك بالزوجة والذرية الصالحة.
قبل رأس ويدي عمته، ثم صوب إلى أصل نظرة مودعة، وسألها فيما يوحى بكونه اللقاء الأخير:

- هل تحتاجين إلى شيء يا أصل؟ اعتني بنفسك وبعمتي.
لن تراه ثانية! اشرب أعنقها وتلجم لسانها؛ غير آبهة برد صنيعه كما افترض وتجهز، شاعرة بالراحة والتسليم بعد طول إنهاك، متمالكة نفسها بالكاد ألا تبكي كطفلة صغيرة وهي تستشعر حنانه في تلك اللحظة عزيزاً كما الأب، كما يجدر بأب أن يفعل! أومأت شاكرة لتمرر اللحظة وينصرف سريعاً؛ لتخلو إلى نفسها

متهافتة الروح مرتعشة البدن، لا تدري ماذا أصابها مؤخرًا وبَدَل استجاباتها بغتة؟ وماذا حل بزنازة الذكريات؟ فُتَحَتْ بوابتها على مصراعيها؛ ليحوم مخزونها حولها كالآشباح! وتتجلى أمامها السنوات الضائعة، القرية بشكل مفاجئ إلى قلبها.

بعدما تعايشت لسنوات طوال مع غيابه ولشهرين مع رجعيته وجَلَفِه؛ لم تحسب أن باستطاعته إشعال فتيل تلك الذكريات التي كثيرًا ما راجعتها، غير أنها لم تخضع لها على هذا النحو كما تفعل الآن؛ كأنما تحتاج بها لفتح الملفات القديمة وإعادة التفكير على ضوء ما جَد منه! وإلا فلمَ من شأنها أن تستجيب للشك ومكر النفس؛ فتعيد توجيه أصابع الاتهام.. إلى نفسها هذه المرة؟ لتعترف أنها التي كفت أولاً عن مبادلتها الحب؛ لم تعد تصلح بعد مصابها آنذاك للقيام بدور الحبيبة، فتسببت في أن يطلق ساقيه للريح يحمله إلى تكليفه ونيابته في الإسكندرية، ومن ثم بعثته إلى إنجلترا، متخليًا عنها في أشد أوقات احتياجها إليه.

ألم تخل هي أولاً عن إيمانها به وبما كان يحمله لها في قلبه؟ ألم تضعه في قالب واحد للإدانة مع الجاني الحقيقي؟ ولما لم تقع يدها على الأخير تجردت من الحقيقة وتحولت إلى جلال تحاسبه حسابًا عسيرًا على أخطاء ارتكبت في حقها دون أن يكون له يد فيها، تشبع انتقامها منه، وإذا به في الحقيقة ضحية مُختارة، وإذا بها تنتقم من نفسها!

لقد تحاشت الاحتكاك بهذه القصة مرارًا لأن ذلك ما تفلح فيه، وقد أتى هذا بثماره لسنوات طويلة. حسنا. لا مفر من الاعتراف! لم يعد بوسعها الاستمرار في ذلك، لا تستطيع أن تتابع حياتها بالكيفية التي كانت تسبق زواجها به؛ كل شيء تغير! لم تعد تملك القوة أو التبلد، تم خرق شعورها بالاكتفاء، إنها

تهوي كمنطاد مثقوب! تشعر أنها خاسرة وتلعن هذه الخسارة. ممتعة بإرادتها عن اللعب.. تقبل ذلك، لكن تلعب وتخسر! شاءت أم أبت، حياتها أصبحت مرهونة بموقفها منه، وإنها لتختار أن تخوض في أمره؛ تتعاطى مع هذه العقبة في حياتها لتتمكن من المضي قدماً، وإلا ستبقى عالقة أكثر من ذي قبل.

ينحدر جلال أباً عن جد من نسل طيب من الرجال. هي أدري بذلك. لن تنكر. ربما لم يكن يود تضيق الخناق عليها كعصفور في قفس، إنما يدفعها بطريقته إلى أن تحبه مجدداً! وتعرف أنها طريقة غير شريفة وبائسة؛ ربما استفزه بتاعدها وجفاؤها لإخضاعها بما يمليه عليه نظام الزواج الساري في هذه البقعة الغبية! لعلها المسؤولة عن ذلك الوجه القبيح الذي أبداه لها.

رباه! تشد شعرها في جنون. لا تستطيع إيقاف كل هذه الصراعات المضطربة داخلها، أو لعلها لا ترغب في إيقافها؛ ليست مضطرة إلى التماس الأعذار له أو إعادة التفكير بشأنه، ليست موجهة أيضاً، لا يحركها القيل والقال عن طلاقها؛ لقد تعودت أن تكون علكة في أفواه الناس. وقد انتهى الأمر. ماذا تريد إذن؟ (ماذا تريدين يا آصال؟) لماذا تخشى أن تصارح نفسها؟

تلتفت إلى الماضي بجدية وتجري الحسابات بشأنه، ما الجدوى؟ إنها ليست أفضل حالاً، ليست سعيدة، ليست مرتاحة، ليست راضية! كم قسرت على نفسها العزلة والغضب الأبدي والهدم! وقد تهدم البيت الذي كسرهما وقامت مكانه بناية حيوية لطيفة تحفها المتاجر ويلعب الأطفال في ساحتها، رأتها منذ زمن حين عرجت لآخر مرة على البقعة التي كان يحتلها بيت أبي زيد؛ كعادتها في نكء جراحها والاستزادة من الوجد كمن يؤلمه ضرسه ولا يكف عن لمسها والعبث به متأوهاً! لم يعد لذاك البيت من وجود على ظهر الأرض، آثاره الباقية في نفسها لا بُد أن تختفي

بدورها؛ لتخلي مكان ذلك الصرح العظيم من الألم والنار أرضًا
صالحة للبناء. لقد استمر ذلك أطول مما ينبغي. ماذا جنت من
الهدم؟ يسير ومدمر.. البناء صعب لكنه حياة. إنها مضطرة إلى
رفض هذه النهاية.. تصحيح: ليست مضطرة، إنها لا تريد هذه
النهاية. يجب أن تكون صادقة مع نفسها.

الفصل الثالث

يوم تستطيع المرأة أن تحب بقوتها لا بضعفها، لا لتهرب من ذاتها بل لتكتشف نفسها؛ في ذلك اليوم يصبح الحب للمرأة كما للرجل، ينبوع حياة لا مصدر خطر قاتل.

سيمون دي بوفوار

هرع جلال يجيب الطارق اللوح في ضيق، كان قد عاد لتوه من الخارج ولم يكد يبدأ في تغيير ملابسه حتى انهال عليه قرع الجرس. عاود تزيير قميصه على عجل وهو يفتح الباب، مصعوقاً برؤية آصال في هذا الزمان وهذا المكان. لم تواته الفرصة لإبداء التحفظ أو الترحيب؛ دلفت إلى الشقة دون استئذان، متذمرة لتأخره إلى هذا الحد في عمله؛ ما جعلها تقضي ساعات طويلة متسكعة بسيارتها في محيط المنزل حتى لمحت أخيراً سيارته المصفوفة. أغلق الباب في تردد، وهو يسأل في توجس عن عمته وما إذا جرى لها شيء اضطر آصال للجوء إليه؛ لتنفذ كتفيها وتطمئنه أنها في خير حال في المنصورة.

جلست على الأريكة في تحفز، مدفوعة برغبة عظيمة في الحديث إليه وليكن ما يكون! بوح دافعه أسف، شوق، لوم، امتنان، أمل، مجتمعين، أو لا شيء مما سبق؛ ليس لديها أي فكرة! مشاعر جمّة تحتشد؛ تطلع إلى السطح وتطل برأسها من عنق الزجاجاة، لقد امتلأت حتى نفثت! تعلم فقط أنها ستجن لو لم تتكلم معه؛ مراجعته ستكون وسيلتها في اتخاذ قرار.

قالت بلهجة حماسية:

- ثمة حديث يجب علينا أن نجره.

لم يغادر بعد موقعه إلى جوار الباب، ولم يزل كفه ممسكاً بالمقبض؛ لا يسعه إبداء الدهشة الكافية حول انتظارها عودته إلى البيت، بينما كان يمكنها مقابلته في المستشفى أو العيادة الخارجية، لماذا تتكبد عناء السفر وحدها إلى القاهرة وتبقى إلى

هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ألا تفي مكالمه هاتفية بالعرض؟
حسم أمره مُعلِّقًا تساؤلاته إلى حين، مقترحًا عليها في حرج
الخروج إلى أي مكان عام.

غرقت عيناها في ضحك صامت وهي تشير إليه بالانضمام
إليها، قائلة:

- ما زلت في عدتي يا جلال؛ لسنا بحاجة إلى محرم. أريد أن
أتحدث إليك في حرية. من فضلك تعال واجلس. لن تأكلني!

جلس مدعًا في مقعد قبالتها، وثمة ابتسامة مبتهجة تتسلل
ببطء إلى الجد والرقب أعلى محياه؛ يلاحظ في زهو تأنقها
الواضح للقائه؛ كيف رفعت خصلات شعرها لتجلي الرؤية عن
عقد لؤلؤ منشور على جيد ثوبها الأسود، وإحكامها ظلال الفضة
حول رموشها المعقوفة، وثغرها الممتلئ بلمعان متورد.

- فلنتفق أنني طيلة فترة زواجنا لم أسمع لك ولم أتكلم
معك بطريقة تجعلك تسمعي أيضًا، وأنت كذلك لم تفصح
عما في نفسك! أعتقد أن كلينا مدين للآخر بسماعه؛ لقد انتهى
ما كان من أمرنا بغتة، تمامًا كما بدأ، وللمرة الثانية!

انعقد حاجباه في دهشة حقيقية، مستدرِّكًا في حزم:

- لماذا؟ ماذا بعد ليُقال؟ لستُ في حاجة لسماع شيء، وليس
لدي شيء أود قوله.

صاحت في توتر مُحتجة:

- كفانا لُفًا ودورانيًا، وكفأك صمًّا ولا مبالة. لقد كان بيننا ماضٍ!
ألا تأسف عليه؟ تجاوزته وحدك بدون خسائر كأن لم يكن؟

تحضب وجهها حرجًا ولذت بالصمت، ليهز رأسه ناقيًا بصوت
مهزوم:

- بل بقيت أذكر ماضيها المزعوم لوقت طويل، وتزوجتك لذلك الأثر الجميل في نفسي؛ تفكرت في أمرك وحيّل إليّ أنك رفضت كل من سبقوني لأجلي، أنك باقية عليّ وفي انتظاري أو ما شابه! أشعرتني بالنذالة وتأنيب الضمير، بقيت أفكر كم خذلتك وتسببت في تعطيل حياتك بينما عشتُ حياتي بالطول والعرض. لكنك أكّدت لي لاحقاً بكل طريقة ممكنة كم كنتُ ساذجاً وأحمقاً! مشاعرك سرعان ما تغيرت يا أصل، لم تدم! بالطبع. كنتِ مراهقة.

كم حسبتُ أنها قد وضعت لتلك القصة خاتمة! هيهات. كانت مخطئة؛ ترجح أنها لم تتزوج به إرضاءً لأمها فحسب، وإلا فلم جلال بالذات وقد استمسكت برفض غيره لسنوات طويلة مهما تذلت أو تمسكنت أمها؟ لما تمت هذه الزيجة لو لم يكن عقلها الباطن ميالاً لها؛ بيد أن الحادث كان متصدراً الوعي! انبرت مدافعة ضد اتهامه، متفاجئة من الكلمات الراجفة التي تجري على لسانها:

- لا! لم أشعر على هذا النحو لأن تجاه أحد سواك - استعادت رباطة جأشها - وقد أفسدت حياتي فعلاً؛ لم أستطع أن أحب غيرك وأمضي قدماً في حياتي، ولم أتصلح كذلك مع حبك ليكون زواجنا سوياً؛ أنا مدركة جيداً لذلك، وأنت لم تصعب مهمتي على الإطلاق؛ كنت فظاً غليظ القلب، ساخرًا ومتحيزاً، لم تُبدِ نحوي عطفاً أو تفهماً، لم تحتو ألمي وخوفي وارتابي، لم تطمئني، لم تحبني.

قال في استهانة:

- على رسلك، على رسلك. أنتِ كنتِ نعم الزوجة!

ردت في انفعال:

- إطلاقاً. كيف يمكنني أن أكون؟ ألم تفهم بعد؟ ألا تذكّر كم ساءت أموري؟ أنت لم تستطع إصلاحها - هزت كتفيها - رحلت! قاطعها في سخط:

- يا للعجب! ماذا كان بوسعي أن أفعل سوى ذلك؟ أنتِ طردتني، هددتني! هل نسيت؟ لا أحب الخوض في ما مضى، لقد مررت عليه مرور الكرام وقلت لنفسني: أفق يا محترم، هذا لعب عيال، وهذه بنت صغيرة لا يؤخّذ عليها، يجب أن تحترم صلة الدم وتحفظ شأنك - أوماً في فهم مستنتجاً - هل بقيت ناقمة عليّ كل هذه السنين فيما أنهيت بنفسك ما بيننا؟ ثم تزوجتني خصيصةً لتعاقبيني! كدت أفقد عقلي من أفعالك؛ الآن فهمت. كل هذا العند والنكد والشجار كان متعمداً إذن؟
نفث متذمرة:

- بالطبع لا! أنت مخطئ. لم أتعمد شيئاً؛ كان هذا نتاجاً طبيعياً لصيغة العلاقة التي وضعتها؛ حقوق وواجبات.. رجل وامرأة.. عيب ولا يصح.. نظام اجتماعي رجعي!
انتفخت أوداجه وهو يقول:

- أنتِ السبب. اضطررتني إلى ذلك؛ كنتِ باردة وآلية، مستفزة لكرامتي ورجولتي. لستُ مبرمجاً على العطاء دون مقابل أو حتى تقدير، لا أحسب أن أحداً كذلك. وبالمناسبة، ليست رجعية؛ ثمة حدود يا آصال، ثمة حدود!
أحنت رأسها موافقة على مضض:

- حسناً. أنا أتحمّل بعض المسؤولية؛ لأنني في قرارة نفسي كنت متحاملة عليك، لم أتمكن من تجاوز غيظي وضيقِي ووجعي منك، لكنك مُلامر أيضاً؛ تغاضيت عما بدلني وحفزني ضدك، أنا

لم أتكلّم وأنت لم تسأل! لم تنقذ ما يمكن إنقاذه.

لمعت عيناه في انتصار بينما يشير إليها بإصبعه مهددًا:

- بلى، كنت أعرف ذلك. لا أسمح لك أن تقلبي الحقائق وتستخدمي ورقة الحادث ضدي، لم تكُ غير بضعة كسور، وها أنت الآن سليمة معافاة، انظري إليّ، أنا من أصابني الكسر بضرر دائم حين لم يلتئم كما ينبغي بعد سقوطي صغيرًا من شجرة التوت يوم شم النسيم.

اعترضت بصوت متهدج:

- ليست بضعة كسور وحسب! ألم تسأل نفسك قط لماذا انتهى بي المقام في المستشفى في الليلة نفسها التي فاجأنا فيها أبي في غرفتي؟

- لا أحد يعرف ذلك سواي! كنت تهريين منه وسقطت من على الدرج، كدت أسقط أنا نفسي وهو يطاردي. حملتني الملامة! لكن ليس ذنبي أنك تعثرت. هذه مجرد حادثة.

زفرت في أسي، يجتاحها شعور قوي بالخذلان:

- أنت لا تعرف شيئًا على الإطلاق. ليس لديك فكرة عما حدث؛ وهذه هي المشكلة! لقد كُسرَت يا جلال بشتى الطرق؛ كنت مكسورة العظام ومكسورة الجناح ومكسورة الخاطر، وكُسرَت أنت قلبي في الأخير حين رحلت. لا أحملك الذنب كله لكن ما حدث أنك كنت القشة التي قصمت ظهر البعير. صحيح أبعدتُك لكن ما كان عليك أن تستجيب، لقد بقيتُ أمام ناظريك لسنوات لم تحاول فيها مرة ثانية! كان يجدر بك أن تبقى وتُجبر ما انكسر فيّ. لقد اسودت الدنيا في عيني وكنت بحاجة إلى أن تثبت لي أنني مخطئة. أن ثمة حياة غير تلك التي عرفتها. شعرتُ آنذاك أنني قد بالغت في التأثير بما كان بيننا، شككت، أي نفع يمكن أن

يجديني وقد فقدت الثقة؛ أنتَ الحبيب يمكن أن تكون ببساطة العدو وتنغص عليّ العيش! فكرتُ أنني سأكون أفضل حالاً بدونك، لكنني في الحقيقة لستُ أفضل حالاً، لم أكن يوماً، غير تلك الفترة التي كنت أشعر فيها بالحب تجاه جدي وتجاهك. سألها مبهوئاً:

- لماذا لم تقولي لي وقتها شيئاً يا آصال؟

- لم أشعر أنه يجدر بي إخبارك عما يجب عليك أن تفعله؛ أردتُك أن تفعل ذلك من تلقاء نفسك - لوحت بكفها - هذه هي عقلية النساء على أية حال.

تغلب على رغبته المفاجئة في الضحك، قائلاً:

- عندما يحتاج أحداً إلى شيء يطلبه بوضوح. ليس أحداً منجماً! - تابع بلهجة مأكرة - ويبدو أنك أدركت ذلك بالفعل وجئتني الليلة تريدني شيئاً، حسناً، لا تكوني خجولة، ماذا تأملين؟ نظرت إليه شزراً، مدممة في جفاء:

- لا أعرف.

أطبقت شفيتها تنتظر خطوته التالية، إلا أنه عقد ذراعيه متأملاً ارتباكها ووجلها باستمتاع، لتصارحه مضطرة:

- ربما لطفك الذي أبديته مؤخراً بلا حاجة بالمقابل أنعش ذاكرتي، وضعفك في وفاة والدك أناخني ورقق قلبي. لم تزل إنساناً، أكثر من مجرد رجل متسلط. لستُ شخصاً سيئاً يا جلال؛ أنا أردتُك أن تكون كذلك، وكلما مر الوقت كنت أمعن في إساءة الظن بك - تابعت في تأثر - لاثبتت لنفسي أنني لم أضع عشرين عاماً من عمري هباءً. لقد بكيت عندما طلقيني؛ لأسباب شتى، أهمها أن أياً ما كان من أمرنا؛ فقد انتهى! حسبُ

أنه شعور طبيعي بالفشل، لكن أجزم أنني شعرت بالخسارة -
تمت في رقة - ما زلت أهتم لأمرك.

حقد فيها حائرًا:

- علام كان كل هذا إذن؟ - تنهد متعبًا - حسنًا، هذه بداية
ممتازة. أخبريني إذن ماذا جرى لك بالضبط. ماذا أصابك
لتتحولي بهذه الكيفية؟ أنا لم أسئ لك! أخبريني لعلني أفهم
وأرتاح. لقد أهلكتني.

استجداها في حنق وغيظ؛ ليتراجع شعورها كله إلى نقطة قديمة،
محلًا بها بمدى بعيد عن جسدها، وهي تجيبه في شروء:

- لم تكن بضعة كسور قط يا جلال..

ذات يوم في زمن غابر، صعدت روحية على متن الخطوط الجوية المصرية، أخذة معها ريعان شبابها وسذاجته، وثوب زفاف أبيض؛ حيث استقدمها إلى السعودية العربية زوجها المغترب المهندس قاسم أبو زيد، كان قد وُكِّل والده بالنيابة عنه لعقد قرانه على عروسه، سليمة عائلة المهدي حسنة السمعة، وشحنها إليه جواً؛ ليعاشرها لسبع سنوات ضوارة، حتى يسرت له وفاة أمها ترحيلها غير مأسوف عليها، إثر ستة أجنة أموات لم يكتمل حملها بأي واحد منهم. اصطحبت روحية معها في رحلة العودة هزيمة سحيقة وحقيقية هزيلة وابنة وحيدة تبلغ خمسة أعوام، ولم يُعدها زوجها بعد أربعين أمها كما اتفقا؛ لم تبرح بيت والدها حيث أخذت عزاء أمها، فيما استدعى قاسم محلها زوجة ثانية تملأ بيته بالبنين.

عادت روحية إلى كنف والدها إسماعيل الأرمل المتقاعد، الذي انفضت الحياة من حوله فزهّد فيها، حتى استعاد رغبته في العيش على يدي حفيدته آصال التي ملأت بيته بمباهج الحياة، استرد شعوره بأنه ذو جدوى، محاطاً بتلك الصبية الشقية، ذات الغرة الناعمة الكثيفة والعينين المتقدتين الجميلتين، بهجة للناظرين. لازمها كأب يرزق بمولوده الأول، يدللها بالأسماء والأفعال، ويلتقط لها الصور بانتظام، لا تجد جداراً واحداً في المنزل خالياً من الأطر الذهبية لصور الصغيرة. لم يكن إسماعيل يفضل أن يشاركه أحد الفراش، حتى أرملته كانت تنام في حجرة منفصلة، لكنه لم يتخلف يوماً عن كونه أول وجه يصبح ويمسي على حفيدته الأثيرة، يحيي لها القصص الخيالية

قبل النوم، ويستهلان اليوم بصلاة الصبح.

لاحظ إسماعيل في حفيدته نباهة وتحديًا فشجعها على المزيد، حريصًا بمرور السنين على مدها بكتب الدراسة الخارجية الغالية وكراسات المراجعات، ولم ينسَ تنمية ميولها فهادها بمجلات الأطفال ميكي وماجد، وأقلام التلوين بمختلف أنواعها: الخشب والفلوماستر والشمع وألوان المياه، وطالما زودها بحلواها المفضلة: بسكويت الشمعدان الأحمر وأصابع اللوليتا الملونة؛ كانت تطمع في جوده متعمدة الخروج بصحبته إلى الشارع، راجية أمها ألا تمنع، ليشتري لها كل ما يقع ناظرها عليه، لم يكن ليثني طلبًا لها أو يرد إحدى رغباتها.

اعتاد أن يوصلها إلى المدرسة صباحًا ويعيدها إلى البيت بعد الظهيرة، تقبض يد أصال الصغيرة على كف جدها الضخمة باستحواذ، وتسير إلى جواره في فخر وانطلاق كما الأبناء في الشوارع بصحبة آبائهم. لم يتخلف إسماعيل عن حضور مسرحياتها المدرسية أو أية مسابقات علمية وأدبية تشارك فيها، حتى اعتقد غالبية زملائها ومدرسينها أنه والدها، لم تكن تصحح لهم في كثير من الأحيان؛ كان يؤلمها سؤالهم التالي عقب إجابتها: «أين والدك؟».

أما روحية فلم تن تغذي قلب أصال الضئيل بالبهيج والطيب عن أبيها البعيد، تخبرها كم يحبها وكم يسوؤه البُعد لولا سعيه الحثيث للقمة العيش من أجلها. لم تكن ذاكرة أصال الصغيرة قادرة على اختزان شيء في الخمس سنوات الأولى من عمرها، ولم يكن قاسم يكلمها هاتفياً أو يرسل الخطابات؛ فلجأ خيالها ووجدانها البريثان إلى رسم صورة له، استلهمتها بطبيعة الحال من شخص «جدو إسماعيل». ليتأجج احتياجها إلى الأب بعد تدهور صحة جدها بشكل متسارع لم يمهدا لتقبل وفاته

المفاجئة. على أثرها، انتقلنا من بيت جدها إلى بيت حضري مؤلف من طابق واحد على مشارف مدينة المنصورة، كان ملكاً لأبي زيد الراحل.

بكت أصل جدها كطفلة العام الواحد التي تنكسر لعبتها المفضلة، ولا يستوعب عقلها الصغير أنها لن تعود إلى سابق عهدها؛ لم تنفك تسأل أمها:

- متى يعود جدي من الموت؟

- لن يعود يا حبيبي.

ولا تكاد أمها تجيبها في كل مرة، حتى تنفجر الاثنتان في البكاء.

تعاقبت السنوات على أصل بين انصهار كامل في الأم واختفاء تام من جانب الأب، واستدارة متوسطة للجسد، وبذر عاطفي في قلب خصب، تزامن مع ولادة حسناء ولم يكد ينمو حين قطع قاسم مصدر الحياة عنه؛ كانت أصل قد لازمت أمها في التردد على نادرة، لرعايتها بعد ولادتها حسناء ريثما تسترد صحتها وقدرتها على الحركة - أم نادرة طريحة الفراش - بضعة أيام كانت كفيلة بتسليم أصل للمُحْتَل، دون بادرة مقاومة، يغرز أعلامه على أرضها كيف يشاء! لتتشكى من ألم قلبها بعد أن ضربته الصاعقة، ويظل يهفو ويؤرقها للزيغ الأخير من الليل ويضلها في أطراف النهار.

تعرفه؟ أجل، تعرفه حق المعرفة؛ جلال ابن خالها، يكبرها بخمس سنوات، كان جارها ورفيق لعبها حتى بلغت العاشرة، من ثم انتقلت إلى منزلها الحالي؛ لتبدأ التعرف إليه بشكل آخر في الزيارات الخاطفة. أهداها مرة عروساً لعبة لم تزل تحتفظ بها، ومرات أخرى حلوى القطن وسكر نبات، ثم أهداها سهر الليل

ولوعة النهار دون لُقياه، خلف لها قلبًا متلطيًا لم يكن ليلحظه في جسد طفلة!

قضت أوقاتها في منزل خالها في تلك الزيارة الممتدة؛ جالسة في الصالة على مقعد مواجه لغرفة جلال، تراقب الباب كقطة متحفزة، يلزم مكتبه منكبًا على المذاكرة منذ يعود من الكلية حتى يخلد إلى النوم، وتبقى متشوقة للمحة خاطفة منه في حال قرر مغادرة الغرفة لقضاء غرض ما. كانت تستشعر اللذة في أوقات الانتظار الطويلة التي قد لا تفضي كلها إلى شيء، فربما ينقضي النهار وتغادر عائدة لمنزلها دون أن يفارق حجرته بعد؛ ولحظها مَر يومها الأخير في منزل المحبوب على هذا النحو.

لم تقرب ذلك البيت بعدها لعام كامل بأمر صارم من والدها المغترب، منعها وأمها من الذهاب ثانية؛ البنت كبرت وثمة شاب لعين في البيت! (لماذا يفعل بابا ذلك؟ لماذا؟)

لم يتسنَ لها تلقي استجابة! كذا قررت استقبال الصباحات وتوديع الليالي بتذكره، ترددها في يقين كورد يومي: (طالب الطب الوسيم لن يلتفت أبدًا إلى فتاة مدرسية في الشعبة الأدبية، قروية ساذجة، مسطحة الجسد وعادية الملامح). ليس من شأنها أن تنسى فتتعشم! اجتهدت آصال للتسليم زاهدة، مضت تقتل في نفسها الأمل، لأن الأمل الحي يُميت صاحبه ببطء.

أقبلت آصال على أمها في نهاية يوم دراسي، تسألها النصيحة وعيناها تبرقان في حماس وتشوق؛ غداً تقوم مدرستها الثانوية بملء استمارات رغبات الطالبات في النشاط المدرسي؛ وهي متحيرة بين اختيار النشاط الصناعي أو التربية الفنية، تود لو بوسعها أن تتدرب على الاثنين، كلاهما يستهويها. لتقطب روحية حاجبيها منتقدة سير العملية التعليمية؛ فيمّر يفكر الأحقق مُقرر

هذه المناهج على الطالبات؟ هل يحسبن صبياناً؟! بمرّ يفيد البنّت تعليمها تقطيع الخشب والشخطة بالألوان؟ هل ستصبح نجاراً أم مبيّضاً؟ أشارت عليها باختيار الاقتصاد المنزلي ولتكن حكيمة؛ هذا هو ما ستؤديه لما بقي من عمرها، يحسن عدم تضييع الوقت في تعلم أشياء غير مفيدة.

زعقت أصال التي كانت تبغض الأعمال المنزلية، قالت بلهجة نافذة:

- أنا لن أؤدي ذلك لبقية حياتي. أريد أن أؤدي عملاً فعالاً؛ على الأقل سيكون لدي شيء أنجزته، لن أجد نفسي مثلك أمام أعمال ما تلبث أن تنتهي حتى تبدأ من جديد. هذا محبط! أنت لا بُد مُحَبّطة.

عالم أمها ضيق وخانق على نحو لا تطيقه، كيف تتوقع منها أن تحذو حذوها بينما تنجح فطرياً نحو الحياة والمغامرة والأعمال الخلاقة؟! أفأقت روحية مذهولة على ثورة أصال المباغتة، لائمة نفسها أن لم تكن تلقي أية مسؤولية على عاتقها من قبل؛ حتى فراشها لا ترتبه والطبق الذي تستخدمه تتركه لها بما تبقى فيه في المغسلة. لقد دللتها فتمردت! إنها لم تعد صغيرة لتشق عليها الأعمال. من الأنسب تربية ابنتها بشكل تصبح فيه امرأة حقيقية تقوم بما هو مطلوب منها، لا تلفظ المجتمع ولا يلفظها بالمقابل، تحرص على أن يتلقاها بكل سهولة وترجيب دون متاعب. ما بال ابنتها ليست كغيرها من البنات؟! لا بُد لها أن تتدرب على أصول الطبخ وتنظيف المنزل، وتتعلم كيف تُزين لسانها ومحياها، وتتبه إلى ما يقوله عنها جسدها، وتظهر بمظهر الحياء أمام الناس؛ مصيرها تصبح زوجة وأماً وجدة وتشرف على العناية ببيتها وأطفالها، هذا واجبها الأساسي!

كذا مضت روحية تحاول إثابتها إلى الرشد، توكل إليها المهام

بينما آصال مُعرضة؛ تصد محاولات أمها في إعدادها لمستقبل جاهز دون أن تساهم في بنائه، مستقبل بغيض تجد في نفسها غضاضة منه، لا تتعشم فيه شأن صديقاتها اللاتي يحملن به باستمرار دون أن يدركن عواقبه! لن تكون مثل أمها الحاصلة على دبلوم تجارة ومنذئذ تعمل في المنزل كالشغالات في خلية النحل، عكس خالها عبد الرحمن المستشار ذائع الصيت في المنصورة، وهو نفسه لقن ابنته تعليمًا متوسطًا وعجل بزواجها بينما دفع بشقيقها إلى دراسة الطب المتربع على عرش كليات القمة! تعرف أن غاية الأهالي من تعليم البنت أن تقرأ وتكتب فحسب - كصديقاتها من العزبة اللاتي أقعدهن أهاليهن من المدرسة بمجرد حصولهن على الإعدادية - تعليم البنت ليس وسيلة لشيء؛ من أجل التعاطي مع أطفالها الذين سيزجون بها للزواج لإنجابهم في نهاية المطاف؛ هذا شأنهن كنساء، ولا يتهاونون في ذلك. وإنها لترفض أن تنصاع؛ في اليوم التالي من ذاك النقاش المحتدم كانت آصال قد سجلت التربية الفنية في استثمار الرغبات. وضعت اللبنة الأولى. وكم من رغبات آتية!

دفعت روحية باب الشقة المنفرج على رائحة الموت، ودلفت
للداخل بلهفة الطير المنبسط على الحَب، تكاد تهوي على
وجهها من جراء الصدمة، تجر في يدها آصال الهلعة بدورها؛
عينها الفتيتان تفتشان الأرجاء بحثًا عنه في نهم وقلق.

- سهير ماتت! ماتت يا روحية!

تلقى عبد الرحمن أخته بانهياء وشيك؛ أدركته مرتميًا بلا حول
بين ذراعيها، يبكي ويتمخط بحرقه. لتحط نادرة على الشقيقين
كالعقاب الجارح، وتدير والدها إليها، مقوضة كتفيه بقوة تأوه
لها، معيَّبة في وجهه:

- اصلب طولك يا حاج! احفظ مقامك ولا تفرج علينا الناس.

فغررت روحية فاها غير مصدقة عنت وجبروت ابنة أخيها،
فيما ارتعشت عينا عبد الرحمن الذاهلتان في محجريهما متممًا
بصوت خفيض متحشرج:

- أمك ماتت يا نادرة.

نطقها كمن يبلغ أحدهم نبأ صادمًا وهي التي أذاعت الخبر
وأعلنت الوفاة بدم بارد! شدت نادرة جسدها كطاووس منتفش،
وقالت في صلادة واستياء من مشاعر أبيها الهزيلة الفياضة:

- اقرأ الفاتحة على روحها إذن، واتبع مسعى الرجال لترتيبات
الدفن والعزاء. اترك البكاء والولولة للنساء يقمن بهما خير قيام.

ازدرد عبد الرحمن لعبه في مشقة، وقد تأرجح شعوره بين الحرج

وانقباض الصدر، هز رأسه في إيجاب وهو يتحسس كتفه التي سرى فيها الخدر، وشرعت قدماه في التحرك تجاه الباب؛ لتعجزا عن حمل كل ذلك الألم المكتوم وتهويا به على الأرض مصعوقاً على شريكة العمر، متلوياً من الفجيرة. صرخت روحية في جزع وأسرعت تسنده إليها وتربت على رأسه مبسمة ومحولة، بينما تأففت نادرة في غيظ واستهانة:

- يا لفضيحتك يا نادرة! ماذا تفعلين وزوجك مسافر وأبوك وأخوك أضحوكة أمام الخلق؟ أنت لا تقوى على حمل قدميك والآخر هارب على السطح كالعيال! ماذا جرى لكما؟ تمالكا نفسيكما كالرجال. أنا لا أحتمل هذا الدلع. من سيأخذ عزاءها؟ من سـ...

قاطعتها روحية صارخة:

- أنت لا تُعقلين! اعقدي لسانك الزفر هذا وساعديني في حملة، لا نريد أن نفقده هو الآخر.

نقلتا عبد الرحمن إلى حجرة ابنه، وجعلت روحية تهدئ من روعه:

- لا بأس عليك يا عبده، لا بأس عليك يا أخي.

ألقت روحية شقيقها راقداً على الفراش في تسليم، ثم وقفت لنادرة المشتعلة بالمصايد؛ فأخدمت نازها، متحولة إلى وحش كاسر ليقطعنها بين أسنانه لو أراد، لا يحول بينها وبين انهالها عليها بالضرب غير تراجع وانصياع الأخيرة لها، مذهولة من تحول عمته المنافي لطبيعتها الطيبة حد السذاجة! اكتفت بالعتاب في رفق؛ حين انخرطت حسناء الرضيعة في بكاء مزعج لا يُحتمل، ولا يكاد يُصدق أن هذه الحنجرة الصغيرة قادرة على إصداره:

- انظري كيف أفزعَتِ البنت!

زجرتها عمتها:

- لا يا حبيتي. إنها تبكي لأن أمها منزوعة الرحمة. احمليها وبثي في قلبها الطمأنينة، أم أنك لا تجيدين ذلك كما تجيدين مراعاة الشكليات والتزلف للناس؟

صاحت نادرة معترضة:

- إكرام الميت دفنه يا ناس!

- تراكِ تكرمين أنتِ أبوكِ وأمك الآن؟ كفاكِ! أنا سأغسل أمك وأتولى أمر كل شيء.

تسللت أصال مستغلة انشغالهما بتراشق الاتهامات وكيل الواحدة للأخرى. التهمت الدرج صعودًا إلى السطح، حيث وقفت بمحاذاة بابه تلتقط أنفاسها المحمومة وتُحجم مشاعرها، مسترقة النظر إلى الجسد المكوم على الأرض، كان جلال مستندًا بظهره إلى الجدار ووجهه شطر السماء يكاد يكون فارغًا من الحياة. شعرت بقبضة تعتصر قلبها وغشت دموع الشفقة عينيهما، فطوقت فمها بباطن يدها لتكمر نشيجها وتحتوي أثر البكاء. تههدت في حزن لم يسبق أن طرق قلبها الفتى البالغ خمسة عشر ربيعًا، وتقدمت منه بخطى وثيدة، مشرّبة العنق، ملتاعة، نطقت اسمه في همهمة مسموعة:

- جلال.

لم يحرك ساكنًا. استمرت في الاقتراب منه، ونزلت إلى موضعه على الأرض ببطء وحرص ألا تفزعه، وامتدت يدها تكاد تلمسه في رعشة نبهته إليها، أدار إليها وجهه في استكانة؛ لتستعيد يدها فورًا وتكتفي باللهفة التي تطل من عينيهما وتتمم ثانية في إشفاق:

- جلال؟

اختلاجاته كانت تائهة، لم تكن واثقة أنه يشعر بها فعلاً إلى جواره، بكونها بهذا القرب منه الذي لم يراودها في أقصى أحلامها به جموحاً! فزعت من هذا الغياب؛ فمدت يدها ثانية، دون رعشة، ربتت على وجهه عدة مرات بثبات بما يشبه اللطمة. كانت ترتعد ولحيته النابتة تجرح باطن يدها، قرصتها معدتها بشدة وشعور لذيذ يسري في ساقها حولهما لهلام! بينما أفاقته لمستها جزئياً، فتحول إليها مستعيداً إدراكه. انفجرت شفاته حين لفحته أشعة الشمس الساقطة على وجهها الأبيض تضيئه كالنور الساطع. لوهلة نسي وغمغم في حيرة، مأخوذاً بهذا السحر الساري كالنار بين جسديهما المتلاصقين:

- آصال! آصال؟

ردد اسمها في تشكك؛ إنه يعرفها.. آصال ابنة عمته الفتاة الصغيرة التي لم تعد تبدو كذلك؛ يذكر أنها كانت طفلة متى رآها آخر مرة! لقد اعتاد على التردد على بيت عمته برفقة أبيه وأخته، لكنه منذ التحق بكلية الطب قبل أربعة أعوام ووقته متعذر فانقطع عن الزيارة، ظل يراها خلال زياراتها ووالدتها لهم في الأعياد والمناسبات، لكن منذ مدة انقطعتا عنهم ولا يعرف السبب ولم يشغله ذلك حتى الآن.

هذه الفترة الوجيزة في عمر الفتيات لكفيلة بنضج العود وبروز النهدين كثمرة الكمثرى اليانعة! تخرج من الخيالات التي تدفقت سريعة في عروقه وجرت منها مجرى الدم، لكن آصال لم تدعه يتمالك نفسه حين صبت مشاعر الحزن والحب في عينيها صباً، وتدفقت على لسانها أدعية بالرحمة الواسعة والصبر والفرج، غادرت شفيتها بتمنٍ من الله أن تشعره بتحسن، وجعلت تهمس مؤاسية:

- فَصَبْرٌ جَمِيلٌ. فَصَبْرٌ جَمِيلٌ.

مسته مجدداً لتنبهه إليها بعد التسمر التام من جانبه، ولم تعرف أن يدها وحُلُو كلامها كانا كرفرة جناح فراشة على قلبه؛ هدهدها وطيبا بعض جرحه، لتنفطر الدموع من عينيه بلا هوادة وبشعور مطلق بالحرج؛ أحنى وجهه بين ركبتيه في سرعة وارتيابك واضحين؛ يخفي جريمة بكاء الرجال ويمسح البلل الساقط بقماش سرواله، فأمسكت بكتفيه في لوعة وهي تقول:

- لا، لا تمنع العبرات! بل ابكِ. لا تخجل، إنها أمك! من لا يبكي أمه؟ انظر لي، أنا أيضاً أبكيها، لا أحد يمكنه ألا يبكي أمك الطيبة.

رفع رأسه إليها ببطء؛ لتريعه الدموع التي غسلت وجهها الوضاء مُضاعفة نصاعته وكاشفة عن لمعة كالبرق في عينيه. في الحقيقة، كانت تبكيه هو لا تبكي أمه! ارتعشت شفقتها كطفل تنهره فيوشك على البكاء، لتعض آصال على شفقتها السفلى المكتنزة في ألم، وتجد نفسها تجذبه إليها في تهور، ضاربة عرض الحائط بكل ما يحظر عليها نجدة ملهوفها بهذه الحميمية المفرطة؛ غمرته بين ذراعيها في احتواء أم، وهي تربت على ظهره في حنو بالغ وتنتحب، ليتشبث بها في راحة وامتنان، تاركاً العنان لدموعه في اطمئنان، أكدت عليه نادرة منذ الصغر أن الجدعان لا يكون؛ فحبس دموعه مراراً حتى لا تلقبه شامته بالعيال الصغير.

تحنحت آصال متحلية بالجرأة:

- لست وحيداً. أنا إلى جوارك، أنا إلى جوارك إذا أردت أنت ذلك! هل تفهم يا جلال؟

استكان جلال كالطفل بين ذراعيها؛ فأطلقت الأمل في سمائه في اطمئنان، ولم يرتد إليها خائباً؛ قد أحسنت باختيار الوقت

المناسب للولوج إلى حياته؛ هونت عليه مصابه وشغلت ذهنه بشكل ما، ليتقلص فقد الجسيم بعاطفة مُكَنَسَبة. التعزية انقلبت إلى اعتراف بالحب! واجب العزاء الذي سمح قاسم بأدائه؛ قضى أمرًا كان مفعولاً وحصل تمامًا ما كان يخشاه.. انبلجت نبتة حب خضراء طيبة.

وكم كان جلال ممتنًا ومتخوفًا في آن! يخشى تقلب مشاعرهما في هذه المرحلة العمرية الحرجة، ويحمل على عاتقه حقيقة أنهما من دم واحد، وحري به أن يكون أحًا لها وحسب؛ فلم يُقدِّم على قول يُلْزِمه ولم يتراجع كالنذل عما بدر منه، حاول بقدر الإمكان إلزام مشاعره الحياد، مستغلًا كون الارتباط الجدي أمرًا مستبعدًا لصغر سنهما، تاركًا الوقت يحسم أمر ما بينهما.. فليُنم كشجرة طارحة أو ينضب كبر لها قرار.

لم تحز أصال بدورها إلى فعل أو تطلب منه مبادرة به؛ كانت تحمل قدرًا لا بأس به من الخشية والإعراض عن الارتباط الذي ترى وتسمع حولها عن مصير المرأة داخله؛ ظلت مكتفية بالعاطفة النقية، قانعة بالصمت المغوي والوعد الذي لم يقطعه أحدهما، مُستلِذة نبض الفرح والوجع في روحها، ضربات القلب المتزايدة وضخ الدم في عروقها، والحمرة التي تخضب كل شبر فيها حين تراودها التمنيات والأحلام بشأن قبلة بريئة، لم يذهب خيالها قط لأبعد من ذلك.

غالبًا ما ترصد جلال خروجها من مدرستها الثانوية أو الأماكن التي تتلقى فيها دروسها في المنصورة؛ يخفق قلبها في كل مرة متلقية تحيته الصامتة، تومئ له باسمه وترجف كلها لحدة نظراته؛ الطريقة التي كان ينظر بها إليها من خلف عويناته، بعينيه السابحتين في نهر من العسل المصفى؛ كانت تسحق معدتها حتى لتظن أنها ستلفظها عبر فمها. تلهث ملتقطة

أنفاسها بالكاد، ثم تسير بغنج وبطاء مقصود، وهو في أعقابها لا يحاول استبقائها، متفقين دونما اتفاق على خطواتهما الصغيرة والمسافة المحسوبة بينهما، تتلفت خلفها كل حين، تحافظ على تتبعه لها، ويحتفظ بمشيتها أمامه، يراها بظله حتى تستقل الوسيلة التي تعيدها إلى بيتها خارج المدينة. وعندما يتخلف عن الحضور تعكس طريقها وتحرص على المشي في خط سيره العائد من الجامعة لعلها تلقاه، وتحمل صاغرة توبيخ أمها على التأخير.

لم تطمح في أكثر من نظراتهما المتوهجة التي تبادلاها دون كلمة مُصاحبة؛ حيي الأعين السري الذي ينطوي على الشغف والحذر والترجي، النظرة كانت بألف قُبلة وأجدي من الكلام، النظرة كانت كالسحر تعيد إليها الحياة كلما فارقتها في بُعده، ولَمَّا انطفأتْ لاحقًا في عيني كليهما وخمدَ لهبُها؛ انكسرت عصا الساحر، وما عاد شيء قادرًا على بعثها من الموت البطيء الذي سارت بقدميها إليه.

لما أرسل قاسم خبر عودته في إجازة الصيف؛ نقلته روحية إلى ابتها في توجس؛ كادت تجن الأخيرة من التشوق والفرح، غير مدركة العاقبة التي كدرت على أمها العيش في انتظارها. وقفت أصل في الشرفة في الميعاد المنظور تترقب وصول والدها، وبمجرد توقف سيارة الأجرة التي أقلته إلى المنزل، طارت كفرخ عصفور من فرط العجلة، تكاد تتعثر وتهوي، تلتهم الصالة ومن ثم الدرج فالشارع، راحت تستبق الهواء أن يصل إليه قبلها! أشرعت جناحيها وجرت نحوه تود أن تغلقهما عليه، تحتضنه وتقبله كاستقبالها لجدها الحبيب؛ دلته على نفسها حين هتفت ضاحكة:

- بابا!

بيد أنه كان يتوقع ابنته في هيئة مغايرة عن فتاة حاسرة الرأس ممن يرتدين السراويل! زجرتها عيناه الحادثان في وجهه كفهد أسود جاهز للافتراس، متسمة في مكانها بلا حراك بفعل كلماتها لها:

- تحشمي يا بنت، سلامك لأبيك أن تقبلي يده.

مد كفه إليها لتحني رأسها فوراً، مرتعشة الشفتين؛ تمان ظهر يده دون قدرة على تشكيل قبلة. لطالما قلبت في صورته متحسرة على ضيق عينيها السوداوين، تتمنى لو كان أورثها خضار عينييه ووسعهما؛ ولما رأته رأي العين لا الذاكرة ولا المخيلة؛ عرفت أنها لم تكن لتحتمل زوجاً آخر من هذه الأعين.

أغلظ قاسم القول مشمئزاً:

- كيف سمحت لكِ أمك بالخروج من المنزل بهذا الشكل
السافر؟ حسابها معي عسير. إن غاب القط العب يا فأراً!

دلف قاسم إلى المنزل والشرر يتجلى في عينيه، مشيراً بالدخول
إلى امرأة خمسينية ضخمة الجثة، ترتج مشيتها في عباءة سوداء
فضفاضة، آثار وشم أخضر باهت مدقوق على ذقنها، تتبعها
كظلها فتاة مراهقة قوية البنيان، تحمل حقيبة صغيرة قماشها
مهترئ. صاح قاسم في زوجته أمراً أن تتقدمهما إلى حجرة أصل؛
لتجزع روحية وقد فهمت، خبطت على صدرها مرات مستحلفة
إياه ألا يفعل، لكنه زجرها في شدة، فيما مطت المرأة الريفية
شفتيها ممتعضة، وقالت على مضض:

- محسوبتك نعيمة. ידי خفيفة يا أختي. لا تخشي...

كانت أصل قد خرجت إلى الردهة تستطلع الضجة الدائرة
في صالة المنزل، ليقع ناظرا نعيمة عليها، وتقطع حديثها إلى
روحية، شاهقة:

- ويحي! البنت عروسة يا سيدنا. لماذا لم تستدعنا قبلاً؟

سارعت روحية بضم ابنتها وهي تقول مستعطفة زوجها
بعينها:

- البنت لم تبلغ بعد؛ إنها طويلة فحسب. وراثة!

زفرت نعيمة في ضيق، مهمومة:

- يتعبنا يا ستي - تنهدت - لكننا لن نعدم الحيلة. لا نسلم
من تختين العرائس بين حين وآخر؛ يُفاجأ العريس حين يجدها
مثل النبي حارسها ابنتك، يستقدمنا على وجه السرعة؛ يشمئز

منها ولا يدخل بها. طبعًا! الطهارة مطلوبة يا ست. كيف سيأمن أن تحمل اسمه وتصون عرضه بلا عفاف؟

مُلت آصال رُعبًا إثر كلام المرأة الفظ، واستمسكت بأمها وهي ترجف، فما ملكت روحية دموعها. لم يكذب أبوها خبرًا! يوم عودته انهال على أمها تقيعًا ولومًا لأنها تاركة إياها على حل شعرها، ولم يلتمس العذر في أنها غير مكلفة بعد؛ قال إن البنت ترتدي الحجاب عقب حصولها على الشهادة الابتدائية ولو بلغ طولها مترًا واحدًا لا غير! ثم لكز روحية في جانبها ودفعها عن طريقه، خارجًا كالعاصفة من المنزل الذي لم يكد يمكث دقائق داخله بعد سنوات من الغياب.

- سودت وجهي الله يسود وجهك.

ولم يكد يُلبس آصال الحجاب عنوة، ويهب سراويلها وبلوزاتها وحليها الملون الذي يحرم أن ترتديه، ثم يعزلها في المنزل بعد واقعة ضرب الصبي؛ حتى عاد يومًا كالذئب الجريح بعد جولة استقصائية في البلد، يسأل روحية عن ختان البنت حين عرف أنها لم تجمع النساء وتحترف به كما جرت العادة. بوغت روحية وقالت متلجلجة:

- هذه عادات بالية. ثمة حرمة للبنت! لقد ختنتها لدى طبيب.

- سأخلع عنها ملابسها لأتأكد بنفسني.

هجم قاسم على غرفة آصال النائمة في فراشها، انتزعها من مرقدتها محاولاً تعريتها، صرخت البنت مستغيثة، فيما لحقت به روحية وراحت تجذبه في استماته وبلا جدوى، لا يتزحزح كدُب جبلي، صارخة بدورها:

- أرجوك، أرجوك، حرام عليك!

برقت عيناه وصاح، هاوياً على وجه روحية بصفعة مدوية
أفقدتها توازنها:

- كان ظني في محله! وما خفي كان أعظم.

أفلت آصال دافعاً إياها بقسوة تجاه الحائط الذي التصقت
به متشبثة، وأخذت تشهق وتسعل وتعب الهواء في جزع، ثم
أفرغت معدتها باكية، بينما بصق قاسم على روحية الساقطة
أسفل قدميه، قائلاً:

- لا عجب أن البنت دائرة على حل شعرها، متبجحة تتسلل
تحت أنفي هاربة من المنزل وتفتح رؤوس الصبيان! سأعيد
تربيتها من الصفر، لأنك لم تكوني أمينة عليها يا سيدة الصون
والعفاف.

أمسكت نعيمة بآصال بحيث لم تحسن الأخيرة أن تفلت من
بين يدي القابلة القابضتين على خصرها النحيل، اقتادتها بالقوة
عبر الردهة المؤدية إلى الغرف، جحظت عينا آصال وارتعدت
فرائصها فيما تقتربان من باب غرفتها المغلق، تتجمد خطواتها
وتحاول قدماهما التشبث بالأرض، تدير رأسها إلى أمها خلفها
وتنظر إليها بلهفة، أغشيني! فتجرها المرأة جرّاً، وفي أثرهما الفتاة
التي جاءت بصحبتهما؛ ابنتها التي تماثل آصال في العمر، والتي
شرعت تثبتها على الفراش وتفتح ساقبها بخشونة، لتتيح لأمها
المجال للجز، وهي تزجر آصال في حدة كلما قاومتها الأخيرة:

- انشفي يا بنت بلا مرقعة وقلة أدب.

عقبت نعيمة مشمئزة:

- بغلة ونجسة! اثبي يا بت.

ما فتئت روحية تضرع إلى قاسم وتحلفه برحمة شقيقتها

الصغرى رسمية التي نذفت حتى الموت وهي بعد في سن
الزهور، اجتز مشرط القابلة عمرها الصغير. غير أن قاسم لكزها
وألجمها غصبًا في مكانها في الصالة، مانعًا إياها من إغاثة ابنتها
التي جلجلت صرخاتها في ألم وعدم تصديق، لا يجري على
لسانها غير كلمة «ماما».

قال قاسم من بين أسنانه:

- تربية نسوان صحيح.

كبرت آصال لتجد أعتى المثقفين ومدعي المدنية والتحضر
ومنادي الحرية وحقوق الإنسان؛ لا يختلفون عن العوام في
الترويج لختان البنات! منددين بالعُهر حين جُرِّم قانونًا، حاملين
على عاتقهم إعلاء الشرف وتكريم المرأة.

لطالما كانت روحية الممسكة بمقاليد الأمور، الأمر الناهي في شأن ابتهاج، باللين والتراضي ومحاولات الإقناع المستميتة، تتمتع في نظر أصل بسلطة قصوى، حتى جثم قاسم بسيادته المطلقة على البيت - لا تذكر أن جدها كان على هذا النحو - من ثم فقدت روحية نفوذها وتلاشت من حولها هالة السيطرة، وتبدت لأصال كبقية النساء النائحات في أوضاعهن السلبية؛ تنتظر لا شيء محددًا وتسميه «الفرج»، وتحمل كل ضروب الأذى اللفظي والجسدي الذي يقع على كليهما عن طيب خاطر دون بادرة مقاومة، تبكي على استحياء حين تحسب أن لا أحد يراها، وتشكو مذلتها إلى الله وحده، تحتسب ولا تفعل شيئاً في المقابل أبدًا؛ أبت أصل أن تشبه أمها أكثر من ذي قبل، شاعرة بالتقرز والأسى.

لقد أحبت والدها عن بعد، هو الغريب عنها اشتاقت عاطفته، وحين لُبي نداؤها إلى الله بلم شمل أسرته الصغيرة تحت سقف واحد؛ كرهته! مصعوقة من حقيقته التي كذبت روحية بشأنها؛ حين يؤلم الحق فلا بأس من الكذب! كذبت أمها أيضًا بشأن أسطورة «الجبين الأسود والأبيض» التي اتخذتها أيقونة للصدق وربتها عليها.

تسألها محاسبة كمتهم:

- لماذا تزوجت بهذه الطريقة؟

ترد روحية في يقين: نصيبي.

تطرح أصال سؤالاً آخر عل إجابته تشفع لأمها:

- على أي أساس قبلت بهذا الرجل بالذات؟

تجيب روحية في تسليم:

- لمَ لا أقبل؟ وصلت إلى السن الملائمة للزواج وتقدم رجل مناسب، بأي دعوى أرفض؟ زماننا مختلف.

يستفز أصال ألا أثر لندم في كلام أمها، لا تستشعر ذنبها في حقها بذلك الأب الذي جلبته وبالأعلى عليها! كأنما أمره مقبول وطبيعي لا يستدعي السخط والرفض، كأن تتوقع ممن يُذبح ألا يملأ الدنيا صراخاً! تمامًا كما تُركت تُذبح ويُجزّ لحمها وتصرخ دون إجابة. وقفت أمها مكتوفة اليدين، لم تستطع حمايتها ورفع الأذى عنها، كيف عساها تشعر بالأمان بين هذين الأبوين؟ تُلقي أمها بالتهمة جزافاً على عاتق القضاء والقدر. إنها غاضبة من جدها للمرة الأولى؛ كيف سمح بهذه الزيجة؟

تجهل أصال بعد طبيعة أمها؛ روحية رقيقة الحس والشعور بالفطرة، لم تكن تراعي حُسن التصرف عن خوف من قاسم أو ضعف في المقدرة؛ لا تعرف سبيل التعادي والمناطحة بالكلم والفعل، تقول وتفعل ما يناسب المقام والأصول، غير متأذبة أو شاعرة ببذل التضحية، تتفانى في ما يبعث على الرضا ويملاً نفوس من حولها بالسرور، ولو أتى ذلك عليها بالضرر؛ تبش للناس وتحزن في نفسها.

تنزوي أصال في غرفتها، أيامها فارغة، لا نشاط ولا حركة بأمر الوالد؛ حرّم عليها الخروج لأي سبب كان، ومزق رسوماتها وأعمالها الفنية التي كانت تعلقها في زهو على حائط غرفتها، زعق: «حرام» وضربها على رأسها في غيظ لأنه حين أزال الصور انتزعت معها جزءاً من طلاء الحائط الرديء. يملؤها الضجر والتبرم، وتحتد

أعصابها وتضطرم فتستسلم لأحلام اليقظة وتتشد التعزية في عاطفتها؛ تتخيل للمرة الأولى نفسها على حصان حبيبها الطائر يحملهما إلى عشهما الهادي، يخلصها جلال من هذا السجن المسور، لن يمنعها من الالتحاق بكلية الفنون الجميلة؛ الحلم الذي قضى عليه قاسم دون أن تفتحه بشأنه، وهل تجرؤ؟!

تستمتع بشعورها ضحية مُعَذِّبة، وثمة من يهتم لأمرها ويعرض نفسه للمخاطر من أجلها. تبدأ في تصور شكل الحياة مع جلال بعد أن كانت لا تقرب هذه المنطقة المحرمة، لا شك أنها ستحب ذلك؛ لا أسوأ من وضعها الحالي. إنها لا تختلف كثيراً عن موءودة الجاهلية؛ أي فارق بين عيشتها والقبر؟ كلاهما يدفنهما حية.

عقدت آصال العزم مشيعة الخوف والحكمة؛ تمضي في طريقها ثانية إلى العزبة في الجهة المقابلة من الطريق السريع للسيارات الذي يطل عليه مسكنها، تنطلق متشوقة إلى دار صديقتها هناء، حيث تتجمع فتيات العزبة في عصاري الصيف كل جمعة، يخرجن للعب، وحين يهدهن التعب؛ يجلسن في حلقات للسمر والحكاوي الخيالية التي تسحبها عن الواقع وتحلق بها في فضاءات أخرى.

يقع منزل أبو زيد في مكان مقفر - أقرب منزل إليه يبعد خمسمئة متر وذرية سكانه ذكور - ومنذ انتقلا إليه حملت آصال على عانقتها أن تعقد الصداقات، مفتقدة لعبها مع جارتها القديمة صفا التي تصغرها بعامين؛ حين ذهبت مع أمها إلى العزبة قبل خمس سنوات، لتبدأ تجارتها في الدواجن؛ عادت وقد حققت هدفها المنشود، ظفرت بثلاث صديقات؛ سامية وسعدة، وهناء، أختين وابنة عمهما.

تحسبها لن تعاود الذهاب بعدما جرى لها آخر مرة حاولت فيها ذلك! فيمر أخطأت وقد دافعت عن نفسها ضد مهاجمها لتُدان وتُهان وتُضرب بوحشية ويُنفذ فيها حكم بالسجن؛ لن يضرها شيء إذن، إنها لا تفعل شيئاً خاطئاً وتتلقى الضرب على أية حال؛ لن تُدْفَن حية في هذا المنزل، على الأقل سيكون للضرب سبب وجيه وترضية مناسبة، وربما تقلت منه، لو أسرع في العودة وكان والدها لا يزال خارج المنزل بأعجوبة ما.

عندما قررت الخروج كانت تعلم أن جزاء فعلتها لن يصيبها وحدها؛ تعرف ماذا سيلحق بأمها إذا اكتشف ملعوبها، ستكون

العاقبة وخيمة عليها كذلك، ستلقى نصيبها الوافر من العقاب، فهي إما مقصرة وإما متورطة، وفي الحالتين مشاركة في الجرم، وكانت روحية تعرف هذا بدورها، وترتضيه؛ قرأت آصال ذلك في عيني أمها، ولم يرجعها قيد أنملة، لا تهتم، ربما تستحق ما قد يفعل بها! لم تطلب روحية منها التراجع حين رأت يدها تدير مقبض الباب للخروج، نظرت الواحدة ملياً في عيني الأخرى، طالعتها آصال في تحدٍ مقصود وبادلتها روحية نظرتها الثاقبة المتجردة من العاطفة بأخرى متفهمة وراضية، لم تكن لتجرؤ على التفكير في قول لا.

كم ساءت العلاقة بينهما بعدما كانتا كشقيقتين متماثلتين في العمر! توقفت آصال عن مخاطبة أمها، ملازمة حجرتها. تنتفض حين تسمع دوي ارتطام الحديد في الطابق الأرضي؛ تغلق بوابة المنزل معلنة عودة أبيها من الخارج، لتتصاعد حموضة معدتها مع ارتقاؤه درجات السلم ووقع خطواته يقترب، تتلج أطرافها حين تسمع خشخشة المفاتيح ثم صوت المفتاح يُدار في رجاج الباب، تسمع والدها يسأل عما فعلته «المحروسة» طيلة يومها، يزدحم الهواء فجأة ولا تحسن أن تتنفس. كانت أمها تقيها غضبه وتضفي على يومها الجامد أفعالاً كاذبة عدة من قبيل غسل الصحن وتنظيف الأرضيات؛ فيستحسن ذلك ويؤكد عليها ضرورة تكليفها بمزيد من الأعمال حتى تنكسر شوكتها وينصلح حالها.

لم يكن ذلك يشفع لروحية لدى ابنتها، كانت آصال تشعر نحوها بشفقة مختلطة بالقرف، كشعورها تجاه الشاذين أصحاء البدن؛ يجلبون حالهم السيئ على أنفسهم؛ يمكنهم أن يحظوا بحياة كريمة لكنهم لا يفعلون. وقد كانت ابنة شحاذة مجرورة في ذيلها لا سبيل لها للاختيار وتقرير مصيرها.

عبرت الطريق السريع في حذر وسرعة. تسير وسط الحقول في ذلك النهار الصحو، فيما تشرق ملامح وجهها شيئاً فشيئاً، اشتاقت إلى نسيم العزبة الطيب المُحمَل برائحة الأرض الطينية والمزروعات الخضراء، لا يصل إليها هذا الهواء النقي في شرفها؛ يزكم أنفها عادم سيارات النقل الثقيل والمقطورات، ويقض مضجعها النفير المدوي وأنات الإطارات على الأسفلت بالحمولة الزائدة. تريد أن تدلي قدميها في جدول الماء العذب الذي يجري بين الأراضي، وتجري بصحبة صديقاتها بين عيدان الذرة الطويلة، يجبن الحُرن شرقاً وغرباً لأعبات «كهرب» و«الغميضة»؛ لولا أنها لا تستطيع تماًماً الانصياع لرغباتها في الوقت الحالي، لا يزال الجرح يؤلمها حين تسير، فلن يسعها الركض بطبيعة الحال.

وصلت إلى الأرض الخلاء المحيطة بدار هناء المبني من الطين، وجدت سامية وسعدة قد سبقتاها وافترشت ثلاثهن المصطبة الحجرية. وما أن هلت عليهن حتى استقبلنها بالأحضان والترحاب، مبيدات الدهشة من مظهرها الجديد، لكن سرعان ما استحسنته - يلبسن زياً قريباً منه - باركن لها وقلن لها إن وجهها يشع نوراً، وعاتبنها على الغيبة الطويلة رغم الإجازة الصيفية.

انطلقت كالقذيفة الحية تستعرض ما جد على حياتها خلال شهر واحد من عودة أبيها، ثم أخبرتهن على استحياء وبنبرة مشروخة ما جرى لها على يدي القابلة وابنتها، لم يواسينها كما توقعت بل سخرت سعدة، أصغرن، من دلعهها مغمغمة:

- عودك طري!

وشهقت هناء كون ذلك لم يحدث لها قبل الآن؛ أجمعن ثلاثهن على تهويلها الأمر وأنه إجراء حتمي كلهن مررن به في سن التاسعة. كانت المرة الأولى التي تجري على لسانها سيرة من

فئة العيب؛ لتكتشف أنهم كن في انتظار إشعال ذلك الفتيل لتفجر كل واحدة بحكاياتها السرية نقلاً عن البنات الأكبر في العائلة.

نصحتها سامية - أكبرهن - أن تتجلد وتستعد لما هو آتٍ، استخدمت ذات التعبير:

- انشفي!

ذلك الفرج حمّال أسية؛ لا يخصها بقدر ما يخص زوجها وأطفالها الذين يخرجوا منه. فزعت آصال التي كانت تعرف ذلك للمرة الأولى - ولوقت طويل بعدها لم تنفك تراود مخيلتها مشاهد كابوسية لامرأة يتمزق فرجها ويخرج منه رأس طفل عملاق - استفاضت سامية في الشرح، وأفهمتها أنه لكي تتحول الفتاة إلى امرأة يجب أن ينفذ فيها عضو الرجل، ويجب أن يصاحب ذلك دم يقدمه العريس للناس على منديل دليلاً على بكاره عروسه؛ ليقع ناظراً آصال في هلع على عضو الحمار المربوط إلى دار هناء؛ تنفرسه غير مصدقة، مقشعة البدن. كانت آصال تفتقر بعد إلى الرغبة الجسدية، وتبدي لها ما سمعته أفعالاً متوحشة، ومبهمة، أكبر من قدرتها على الاستيعاب، لا تثير سوى اشمئزازها، مقرفة، مقرفة للغاية. والدم يعني جرماً آخر! لا تعرف لم كانت سامية تتكلم باستمتاع!

بعدما فارقت جلستهن ومشت الهويني عائدة إلى المنزل، مستغرقة في التفكير، استعادت رغبتها في التملص مما قد يربطها بجلال، وتبخرت أحلامها الطائشة في أن يخطفها على حصانه. الطهارة والشرف والزوج والأطفال؛ جميعهم يتسببون في إيلاهما، يسيلون دماءها، ويصيبونها بالجراح اللاهبة التي لم تشف من أولها كلياً بعد. ما فتئت تردد، حاسمة أمرها، مهدئة من روعها:

(أنا لن أفقد شيئاً في الزواج)

حين شارفت على بلوغ المنزل، جمدَ دمها بغتة في عروقها، وجف حلقها متحولاً إلى رمال صحراوية؛ كان قاسم مرابضاً أمام بوابة المنزل الحديد، يجلس بهدوء، يحدق فيها بثبات، يرفع أصابع كفه ويدنيها منه ببطء، يشير إليها بالتقدم منه، دون أن يحرك ساكناً. لقد أثار رعبها أكثر مما لو قفز من مكانه وجرى وراءها بهراوة! إنه يتوعد. معدتها! العصارة الهضمية كحيوان قارض يلتهم أحشاءها. ست... ستقيء! لا تحسن التقاط أنفاسها. رباها! تشعر بالغثيان، استندت إلى عمود الإنارة على الطريق وأفرغت معدتها محدقة في فتات الفطير المشلتل الشهي لأمر هناك. ثم عبرت بلا حول ولا قوة إلى النمر المترصّد.

سامها وأمها سوء العذاب! حين صعدت إلى المنزل خلفه بالكيفية العمياء، أمرها بجلب حزامه الجلدي من خزانة ملابسه؛ أحضرته طائعة ليجلدها وأمها حتى شبت النار في جسديهما. كان يجلدنهما في تأن وبلادة، لا تحركه فورة الغضب التي كانت تطيح بيديه في كل اتجاه ضرباً عشوائياً؛ عرفت فيما بعد أنه جلس في انتظارها ثلاث ساعات. لقد سرقها الوقت ليتمعن في مضاعفة العقاب؛ البنت عيارها فلت، لا بُد لها من رادع.

قال أخيراً بصوت نافذ:

- حين يبدأ العام الدراسي؛ لن تعاودي الذهاب إلى المدرسة. سأسحب ملفك. إنه عامك الأخير، أعلم ذلك، هذا يعني أنك لن تحصلي على الشهادة، هذا ما أعتمد عليه.

أية مهزلة أن يشعر المرء بسلبيته وتبعيته في سن التوق والإرادة؛ في هذه المرحلة الحافلة من العمر، التي تفتح خلالها الحياة ذراعيها على وسعهما، ليخلق كل واحد لنفسه مكاناً على سطح الأرض؛ كيف تقدّر البنت منزلتها؟ ماذا يشكل وعيها؟ حين

تتعلم أنها مسيرة أبداً، أنها لخاسرة كل معركة؟ تندفع أصال إلى كره شيئان؛ أنها ولدت بنت، ووضعتها أمها في هذه الناحية من الأرض الظالم أهلها.

كم صعب عليها امتهان نفسها الأبية وركوعها على قدمي والدها تقبلهما، بإيعاز من أمها، حتى يتراجع عن قرار إنهائه حياتها! أقسمت متذلة إنها ستكون فتاة مطيعة؛ ليتنازل أخيراً أن تستكمل دراستها شرط تحويلها منزلياً ودون اللجوء إلى الدروس الخاصة؛ إقامة جبرية كاملة في المنزل، أقصى ما تصل إليه شُرفته! قال إنها ستشكره على ذلك لاحقاً.

ما تلقته من جدها إسماعيل من حنان وعطف يغزلها بين الشوق والنقمة طوال الوقت، ويدفع بمشاعرها إلى التضارب تجاه قاسم، أحياناً تعمد الاهتمام به؛ وجوده من عدمه لا يشكل فارقاً. ثم تشعر نحوه بالعداء ولا تستطيع تخليص نفسها من الحقد الذي يأكلها حية. وكثيراً ما ترتعد فرائسها في تحويمه حولها؛ نبرة صوته الجهورية وتبريق عينيه حولها من غزال شارد حُر في الصحاري لقطة مذعورة منزوية في ركن بيت معتم. لتشعر فجأة بالهوان والاحتياج إلى الحب والرحمة، وكم أن كلمة «بابا» مُعذِّبة وأن لا كلمة أخرى أكثر فتكاً بها! ومتى سمعتها لاحقاً من بين شفتي فتاة مخاطبة والدها أو متحدثه عنه - صفا الغيبة لا تنفك تردد في معرض حديثها: بابا كيت وكيت... - تحتشد الدموع في عيني أصال لإرادياً، وتسارع كالخرقاء بالطبطقة على جفنيها لمنعها من النزول ثم تأخذ نفساً عميقاً وتقول لنفسها إنها بخير، وتفشل في تطويع شفيتها لرسم ابتسامة تبرهن على ذلك.

لشد ما حاربت للتوفيق بين عواطفها المتناقضة نحو الرجال، عمدت إلى التفريق بين شخصية الرجل الذي سبب لها دماراً

شاملاً، والرجل الذي كان بإمكانه أن يكمل من حيث انتهى الأخير - لكنها كانت أجبن من أن تدع له فرصة الإثبات أو النفي - وبين الرجل الذي طالما أجلت دوره المحوري في حياته وقدمت الشخص الأصيل الذي كان عليه؛ جدها إسماعيل، السبب في حفاظها على تماسكها النفسي والتّام كسورها الحية.

أحسن جلال الإصغاء إلى آصال طيلة ساعات متواصلة من البكاء والحكي. لم تعهد رجلاً ينصت! وما أدراك يا آصال؟ أنت لا تعرفين شيئاً عن الرجال.

- لا تتخيل ماذا فعل بي بعدما ضبطنا معاً؟ لا تتد.. تتخي.. أمسكني و...

لم يُمكنها الانفعال من البوح بأفجع أسرارها؛ راح صدرها يعلو ويهبط بسرعة مجنونة، وثوبها الفضفاض لا يخفي اهتزاز فخذيهما. لم يطمئن لنظراتها التي لم تستقر على مكان؛ فاقترب منها وأرسي كفيه على كتفيها، يضغط بثبات حتى هدأت. هامساً:
- هذا يكفي يا آصال. أنا أتفهم. نتكلم لاحقاً.

- يجب أن تعرف.. ف

- ههششش، فيما بعد. هوني عليكِ.

- أنا لا أعرف ماذا يعني أن يكون للإنسان أب. لم أحظَ بواحد لأعرف، لكن.. لا يمكن أن يكون قاسم أباً، أليس كذلك؟

زم ثغره في أسي ومضى يمسح على شعرها حتى تبعثر خصلاته المصففة منسابة في حرية على كتفيها؛ تجمدت كلها في مكانها في وجل، تحديق في جوف عينيه الغائمتين، وتُدحرج أناملها بتردد على صفحة وجهه، كأنما تتلمس حقيقته الراقدة تحت جلده. يتكشف أمامها ما يمثله بالنسبة لها، كيف سيحبها؟

تلك النار المتصاعدة في جوفها! لا تصدق كم اشتاقته في كل لحظة مضت بدونه وكل لحظة لن تدعها تمر بغيره، في كل المسافات والأزمنة التي فرقتهما حيناً وجمعتهما في حين آخر! ثابت هو في حضرة النساء، لا تهتز لفتنتهن شعرة فيه وهو الأشعر؛ في وقت آخر ستحمد الله على ثباته، لكن عندما تكون الآن واحدة من تلكم النساء ستدعو الله بغير ذلك. تجلس بالكاد الآهات الشقية في ثغرها، مستبعدة قدرته على إحصاء عدد القبلات الساكنة على شفيتها في انتظاره ليحركها من مكنها!

دنا منها حتى انعدمت المسافة بينهما. هل حق ما تراه منعكساً في عينيه اللتين يسيل منهما العسل؟ هل يقصد ما مضى يثيره في انحناءات جسدها وخطوط وجهها؟ أحاطت عنقه بكفها تستكشف جوابه، ليمسح برقة على وجنتها، وينحني نحو ثغرها يقطع الطريق على نظراتها التي ينبثق منها ألف سؤال وسؤال. اقترب أكثر فأكثر حتى توقف بنفاد صبر على بعد بوصة من شفيتها المغلقتين؛ لتنفرجا فوراً تلبيةً لنداء القبلية التي لامستها بخفة قطرة ندى الصباح.

تسلق أناملها الطريق إلى وجهها في جنون، وتلمس شفيتها وتقرصهما وهي تحديق فيه بغير تصديق؛ هذه هي قبلية الحبيب؟ كأن شفيتها لم تمسا من قبل، كأنه يقبلها للمرة الأولى! أحاط جسدها الرشيق بين ذراعيه بنزعة تملك واضحة، وتشبث بدورها بصدره العريض في قوة، لا تريد أن تفلته، وكأنه غايتها التي لم تكن تبحث عنها. بقربها منه لم يسبق لها أن كانت بتلك الحاجة واللهفة!

لقد تساءلت مراراً ماذا كان ليحدث لو أنها لم تزجره وتطرده ذاك اليوم في المستشفى؟ لو أنها لم تدّر له ظهرها وتشمخ بأنفها حين رأته مغادراً البلاد بحقيبة سفر ونقطة أخيرة على

السطر في قصتهما! لو أنها لم تتخذ ذلك الموقف البغيض منه
وترفع حائط صد يقوض زواجهما. حسنًا، لم تكن تلك القيلة
اللذيذة لتأخذ كل ذلك الوقت لتقع، وتوقعها، تطرحها أرضًا
راضية. إنها مغفلة!

غمغمت في غنج:

- جلال. لم تخبرني قط أنك تحبني!

ابتسم في استمتاع:

- أنا لا أحب الكلام.

سألته بإلحاح:

- هلا سمعت إذن؟

فشنت مسرعة عن هاتفها الذي التقطته بلهفة من حقيبتها،
مُشغلة الأغنية الوحيدة التي تحفظها عليه، لينساب أنين
الإيطالية لورا باوزيني، طارقًا المسامع والأفئدة بالحسرة
والدهشة. ليست مستمعة جيدة للموسيقى؛ لا تملك أدنًا طريفة
ولا هوى للغناء، لكنها منذ وقعت مصادفة على هذه الكلمات
العذاب والصوت الذي ينسل خلصة إلى قلبها وتطرده بعد عناء؛
انكبت على سماعها لاشعوريًا لقراءة السبع سنوات.

It's just a matter of time I'm sure.

Well, time takes time and I can't hold on!

So won't you try as hard as you can put my broken heart
together again?

هزت رأسها في تناقل مفاجئ، وتمتمت في راحة تتسرب إليها
بلا وعي:

- أريد أن أنام.

هم بحملها بين ذراعيه ليخلدها إلى الفراش، فسارعت بالتمنع:

- لا، سأنام هنا.

انفجرت شفتاه عن ابتسامة كبيرة متفهمة، وساعدها على التمدد على الأريكة، مدثرًا إياها بغطاء خفيف، فيما تشبث بكفه هامسة في إرهاب:

- هل ستردني؟

غمغم في خفوت مبتسم، وهو يتمدد إلى جوارها ويضمها إليه في حنان:

- فعلت قبل أن أمسك.

هممت في دلال:

- أريد غرفة نوم جديدة.

تنهد في راحة:

- بالطبع. أخيرًا يا آصال!

Till the day I let you go

Until we say our next hello... its not goodbye.

كان يظلمها طيف جدها منذ سقطت فاقدة الرشد حتى استفاقت في المستشفى جسدها زاهر بالرضوض والكسور. تراءى لها بشعره الأشيب الذي يفيض حكمة، ووجهه الطيب حسن القسما، وعينييه السوداوين الضيقتين - اللتين ورثتهما عنه - المفعمتين بالحب والرحمة. هدهدها جدها وأمدّها بالقوة والعطف، أكد لها أن حظها كان سيئاً لا أكثر، أنها لم تستحق أيّاً مما حدث لها، أنها كانت محبوبة في وقت ما، وكانت تستحق ذلك الحب، ويجب أن تحب نفسها كما أحبها جدها، ولا تقبل أقل من أن يحبها أحدهم بذات الطريقة؛ كذا أطلقت سراح جلال في الليلة نفسها التي قال لها فيها إن وجهها صبح ويانع كسحابة بيضاء صافية.. أول وآخر ما نطق به!

طيرته حرّاً، ورقدت في القن على نفسها. لن يحبها أحدهم كما أحبها جدها. كانت قد اكتفت من الأيدي العليا، أحسنت باغتنام الفرصة التي سنحت لها بالتخلص من قاسم، ولم ترد أن تمرر السلطة، من سيحل محل الأب الذي يتمتع بالسيادة المطلقة؟ جلال سيكون كذلك! وهي أبعد ما تكون عن الحاجة إلى أي شخص يحتل هذا الموقع في حياتها. ستفر.

لم يكن يُبقي روحية على قاسم إلا آصال؛ تحافظ على سمعة ابنتها فلا يسوؤها بين الناس ويضر فرصها في الزواج وضع أمها كمطلقة. ولما لم تعد تأمنه عليها؛ انتفت مبرراتها في الخضوع لما كانت تظنه لا يعدهو عن تحمل الرّعق العابر وبعض الصفعات واتقائها إن كانتا حسنتي الحظ؛ غير أن الأسوأ قد حدث! لن تفقد ما كانت تفقد كل شيء آخر من أجله. لتلجأ أخيراً إلى شقيقها

المستشار عبد الرحمن الذي استعان بمركزه القضائي في إقصاء قاسم.

أمنت على السر وكان كتومًا بطبعه فلم يفض به حتى لابنه، لكنه حملها نصيبها الوافر من المسؤولية؛ هي الملامة في المقام الأول؛ سمحت بالتمادي، حيث وقفت لم تفعل شيئًا، طائفة أنها تحسن العشرة أو تسدي معروفًا من نوع ما!

- الأمر لم يكن بهذا السوء في السعودية. على الأقل لم يتأذ أحد بسببي، كنت أحسب نفسي زوجة صالحة! لكن ابنتي الآن تدفع الثمن. لستُ أمًا صالحة إن لم أنه هذا الآن وللأبد.

جربت آصال ماذا كان قاسم بقادر على فعله حين يصد أحدهم في وجهه؛ أصابها ما أصابها حين جرؤت على ذلك، وفهمت أن روحية حتمًا كانت تعي ذلك فتتقيه، أو كانت غريرة سليمة النية إلى حد لا يصدق! على أي حال، التمسّت أخيرًا العذر لها، ومن ثم الشفقة فالذنب. وحزرت آصال أن أمامها الكثير لتعوض أمها. فيما مضت روحية تعفها عن ذكر والدها بسوء، حتتها على ألا تجيء بسيرته على لسانها أو خيالها، سُمعتها من سمعته، ما يمسّه بين الناس يمسّها.

- ليس من أجله بل من أجل ابنتي. هل تفهمين يا آصال؟ لن تُسرّدي به. فأى ابنة أصول تفعل ذلك؟ أنتِ فتاة مؤدبة وستيقين كذلك. وهذا أبوك، شئنا أم أبينا، أمامك وأمام الناس وأمام ربنا.

وقد عملت آصال بنصيحة روحية واكتشفت على مر السنوات التالية كم كانت أمها فطنة! منعت قصتها من التداول فلا تفلح أن تنساها يومًا! الناس يحبون الفضائح ويتفننون في إضفاء الإثارة عليها، يضيفون تفاصيل من وحي خيالهم ويقحمون وجهات نظرهم كجزء أصيل من الحكاية. جنبتها أمها أحكامهم

وادعاءاتهم؛ كانوا ليقولوا إنها منحلة وأبوها يقوم سلوكها؛ فمن ليصدق أن أباً يفعل فعلته تلك بابتته من لحمه ودمه إلا لو جاءت شيئاً نكراً طير عقله؟ كانوا ليلفقوا لها تهماً غير شريفة تسمح بعبور ضمائرهم مرتاحة ومتلذذة بالعاقبة. ستقع عليها الملامة بشكل أو بآخر؛ لم تحسن سماع الكلام، ابنة عاقلة على أقل تقدير. وكانت لتشير شفقتهم في أحسن الأحوال. لا! إنها مجرد خرقاء تعثرت متدحرجة على السلم فكسرت حوضها وذراعها وأدمت وجهها. هذا كل ما في الأمر.

سُرحت آصال بعد أسبوع قضته في المستشفى إلى بيت جدها في حي توريل، دخلته على عكازين، وقد استعادت هيئتها القديمة فيما تلبس من ثياب وكشفت شعرها، خالعة كل القيود التي تلزمها أن تكون على شاكلة معينة، غير عابئة بقواعد السلوك المفروض عليها اتباعه؛ كذا كانت تهجر المجالس دون استئذان وبطريقة تخلو من أدبيات الزيارة - حين توالى عليها - متى أصبحت ثثرة النساء لا تُحتمل. يسألن روحية عن زوجها وعن سبب عودتها لبيت أبيها، كانت آصال ترد نيابة عن أمها ودون حرج:

- صدعتن رأسي! هي زيارة أم تحقيق؟

كم استلزم صفا من محاولات حثيثة لاستعادة صديقة طفولتها تدريجياً بعدما عادت إلى جبرتها مرة ثانية! لم تعد آصال تطيق صحبة الناس تقريباً. كل شيء في تلك الفترة كان يبدو لها هراء كبيراً، تريد أن تخلص إلى نفسها وتجلس في ركن ما صامتة، الكلام يسبب لها الإجهاد والتوتر، التعاطي مع الناس يفوق مقدرتها الهشة. حزن أمها كان يبقئها بمأمن، ولم تكن داخله في حاجة إلى الكلام. لا تكتفي منه.

ما فتئت روحية تحاول التخفيف عنها، تملأ الثقب المتسع في

قلبها من الخذلان بكل ما أوتيت من الأكاذيب؛ تقول: قاسم كان أبًا مثاليًا من حيث أتى، هكذا يفلح أبناءهم، هكذا يعلمونهم الصواب والخطأ، هكذا يحبونهم، لا أب يريد الأذى بأبنائه!

تلك الفجوة الهائلة في روح أصال لم يكن مردها قاسم بذاته؛ تحزر أن أحدهما لم يكن يعني للآخر شيئًا، إنما (ماذا من المفترض أن يكون قاسم بالنسبة لآصال)؟ لو فعل غريب فعلته بها لما استغرقت في نسيانها عشر ثانية، أو لعلها ستحتاج إلى مزيد من الوقت! لكن لن تكون لها أثر الفراشة على حياتها، ستكون أقرب إلى حادث سطو أو سرقة بالإكراه أو حتى محاولة قتل. الحوادث تقع، لكن حادث كهذا؟ أقرب المقربين المتهم فيه بالأذية! الشخص الذي من شأنه ألا يسمح بشيء سيئ يحدث لها! هذا النوع من المشاعر لا يمكن التهاون فيه، تصلب الطول أو تهد الحيل، وقد ضرب قاسم الأبوة في مقتل؛ فأى أذى كان يقدر عليه بعد؟! منطق روحية يلتف حول نفسه.

لم تحاول صفا أن تخفي ولهها المفرط بالجنس الآخر؛ تراقب زملاء دراستها في كلية التربية والمعيرين صغار السن، لا تنفك تشير على قلبها بهذا وذاك، وتعلقه قسرًا بأحدهم كل حين، تنخرط في قصة خيالية تدور في مدارها، وتعود ليلًا تفضي بكل ذلك إلى أصال لتساعدها على الاختيار، غير أن الأخيرة لم تن تهكم على الرجال الذين يعجبون صفا، وربما تنصرف عنهم! تضحك وتهزأ من الحب برمته، تبدد أي إغواء محتمل بالحصول على فارس الأحلام، مستنكرة الجوارح أن تصبح يومًا في ذاك الموضوع، حد أن صفا استبد بها الفضول والشك، لتصارحها متوجسة أنها لم ترها منجذبة يومًا إلى رجل أو متلهفة على الزواج ككل البنات في أعمارهن، وهذا مخالف للفطرة!

- لا تستشعري الحرج يا آصال. هل لديك ميول مثلية؟

لتضحك آصال حتى تطفّر الدموع من عينيها مدهوشة من خيال صديقتها الجامح، مضطرة إلى مشاركتها ما يعجبها في الرجال: البشرة الحنطية والبنية الرياضية، أصحاب العوينات اللاتي تخفي عينيّن جميلتين وتوفر مصدرًا متجددًا للدهشة عند خلعهما، الشفاه الرقيقة التي لا تكاد تبين، وذاك العطف الغريب المقترن بالافتتان تجاه من يعرج قليلًا في مشيته! تبدى جلال في ذهنها بصورة عابرة، عساه الآن في إنجلترا؟ لم تتصور أن تستعيده يومًا بالشفقة. حسنًا. لقد تابع حياته ولم يعبأ بها؛ لم تكن تمامًا على خطأ. تداركت سريعًا حديثها:

- حسنًا. لا يروق لي شيء آخر بشأنهم، مجرد انجذاب غريزي لا أملك رده، وشخصي أسمى منه، لن يتخذ القرار بالنيابة عني، المهم إلام ينجذب فكري وروحي؟ لماذا أود أن أكون في علاقة طرفاها غير متكافئين، أحدهما يأخذ أضعاف ما يمنح ويتسيد على الطرف الآخر. شكرًا! أنا مكثفية تمامًا بأمي.

أفاقت آصال بغتة على صرير الباب يُفَتِّح؛ اعتدلت في جزع
ليضرب رأسها دوار خفيف، فأطرقت حتى يمر سريعًا بينما تسأله:

- أفزعني. أين كنت؟

أقبل جلال بحقائب بلاستيك عدة اتجه ليضعها في المطبخ،
مجيبًا:

- كنت أتبضع للثلاجة الخاوية على عروشها؛ البيت كان ينقصه
امرأة!

أحكمت الملاءة حول جسدها المتورد إثر ليلة حب؛ ما فتئت
تتلوى كسمكة في بحر هائج حتى سكنا معًا من فرط اللذة والرضا،
تجاوبت معه وأرشدته كيف يلبي نداءها، مفتاح المتعة يكمن في
حُسن استقبالها؛ حين تفتح لها الباب وتدعوها للدخول. لتغط
آصال بعد مرتها الأولى من المتعة في نوم سحيق، فاغرة الفم
كفرس نهر صغير شبعان.

غمغمت مدهوشة فيما تتخرج وجنتاها بالحمرة:

- أول مرة أنام بهذا العمق؛ لم أُنَبِّه لك. وأول مرة أنام
عارية!

- أتعشم ألا تكون المرة الأخيرة.

قالها بابتسامة صبيانية عابثة فضحكت بصخب، بينما استند
إلى الجدار ممسكًا بجبينه، وتابع بعينين غائمتين وإعياء مزيف:

- جمالك يصيبني بالدوار.

أسرعت إليه كطفلة تطرق صدره بقبضتها الصغيرة، وقالت
بشعر ملؤه ضحكة:

- لستُ جميلة لكني أجيد رسم وجهي، وهو الآن خالٍ من
الزينة، فكف عن المجاملة.

اعتدل في جدية:

- وهل أجاملك لو قلت أيضًا إنكِ فتاة أحلامي يا أصل؟
وإنكِ أول فتاة أحببتها، والأخيرة. أجل، لم أحب سواكِ؛ يطل
من عينيك سؤال (ومن أحببت بعدي؟)

أبرز زهرة حمراء طويلة الساق كان يخفيها في طيات ملابسه؛
لتنزعتها منه بعينين متلألأتين فرحًا؛ الورد البلدي الكائن الحي
الأسرع في تحسين مزاجها. استنشقت رائحتها الزكية متنهدة في
لوعة، فيما تابع:

- وإنكِ جميلة، الآن، وقبل عشرين عامًا؛ قبل أن تجيدي
الرسم. وجهك لا تعوزه الألوان، نضر ومتورد، شفتاك كرز،
وعيناك سوادهما جذاب. لستُ مجاملًا يا حبيبتي أبدًا.

- إذن أنت شاعر يا دكتور. حسبت أنك لا تجيد الكلام!

- إنها المرة الأولى التي أتفوه فيها بقول مماثل، وكنت أظن
هذا النوع من الكلام سخي. لم أتخيل أنه يمكنني أن أرى
الأمر على هذا النحو الشعري - تابع في استمتاع - لكنني لستُ
وحدني المغازل بيننا؛ لم يفتني أن ألحظ أنني لم أتخلص كليًا
من العرج في قدمي اليسرى، لهذا أردت أن أصبح طبيعيًا، حتى
يزيد من يتقنون عملهم واحدًا. وبنيتي لا تزال رياضية، أليس
كذلك؟ - شرع في خلع عويناته ببطء - أردت التخلص منهما لكنني
شديد التحسس من أي شيء يأتي صوب عيني، لا ليترك ولا عدسات
لاصقة. أشعر بالإطراء يا أصل. كنت منجذبة لي وحتي، لقد

أرسيّت لكِ نموذجًا.

قطع الصمت المغوي الممتد بينهما مردفًا في حزم مفاجئ:

- آصال، أتوقع أن تختلف المعاملة بيننا من الآن فصاعدًا،
وأقصدك بذلك، لأنني كنت أتقي الله في معاملتك طيلة الوقت.
تأتأت مغتظة:

- يا إلهي! ما خطبك؟ أفسدت عليّ سحر اللحظة!

قرص وجنتها في لطف:

- حبيبي، لقد سوينا الخلاف، وأنا واثق أنك ستعامليني بما
يرضي الله. لا داعي أن أذكرك بقول الرسول عليه الصلاة والسلام:
«لو كنت أمرًا لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد
لزوجها».

(إلهًا مع وقف التنفيذ؟ من شأني أن أسجد لك صباحًا ومساءً
لولا الحرمة! لأي علة هذه القسمة الضيزى؟ النفقة! ولو أنفقتُ
لاستحققتُ أنا؟ أم لبنيانك الذكوري؟ الشور أقوى قطعًا؛ فلا
أراك في شيء آخر تختلف عني! لا أظنها معاملة ترضي الله ما
تستشهد به يا جلال؛ «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»! يا
رسول الله لا أصدق أن يُبعث الطاغوت في الرجل باسم الدين
والشرع! وإن يكن؛ فليس كل الرجال مثلك يا مُحَمَّد! ليس منهم
إن كسرتُ زوجته صحن ضرثها الذي هادته به أمام أصحابه، أن
يضحك ويكتفي بكلمتين: «غارت أمكم». لأذل ناصيتها من تفعل
زوجته كعائشتك، ولا ترضى لها مذلة يا حبيبي!

ضبطت أعصابها فيما افتر ثغرها عن ضحكة مفتعلة:

- اطلب ما شئت مني يا جلال بشكل شخصي، وسألبيه لك
إرضاءً لك، بمحض إرادتي، ولو لم أرد، فسيكون إرضاءً منك لي؛

سكن ومودة ورحمة يا حبيبي، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون،
تفكر يا حبيبي، هل حقك عليّ حد العبادَة؟

انعقد حاجباه في استغراب:

- آصال! هل سنخوض بعد شجارًا كهذا؟ ستبقين معترضة
دائمًا وأبدًا - تابع مغتاظًا - آصال objection. ألا يمكنك أن تقولي
حاضر ونعم؟ أحب سماعهما من فضلك، أرتاح لهما.

عساها لم تخطئ! ترققت في عينيها دموع إحباط شديد،
مدمدة:

- في المطلق؟

هتف منزعجًا:

- لا أظلمك يا آصال، لا أجور على حقك! هذه مودة ورحمة
أيضًا يا حبيبي. وللدلالة سأمهلك الوقت الذي تحتاجينه لارتداء
الحجاب، قد أتفهم أنك غير مستعدة أو راغبة لكن لا ينازعك
هوى نفسك ويصور لك الشيطان أنه ليس فرضًا واجب تأديته.
ألست كذلك منصفًا، هه؟ - أردف في لهفة - هيا، هيا يا حبيبي
ارتدي ملابسك ولنزل حالًا. بحلول الليل ستكون لنا غرفة نوم
جديدة خاصة بنا؛ أريد أن نعجل بقدوم ولي العهد. لا تتصورين
كم أعشق الأطفال يا آصال وأتشوق لمجيء الواحد تلو الآخر.

غمرها فزع مفاجئ وكادت تهتف به أن رويدك! رويدك! ترو
قليلاً. تهتدت لمرات متلاحقة تهدئ من روعها، ثم قالت:

- أريد أن أطمئن ماما أولاً؛ تعتقد أنني في مهمة عمل في القاهرة
وقضيت الليلة الفائتة في فندق.

اتسعت عيناه في جزع وصاح بلهجة خشنة:

- استغفليتها يا آصال؟ كيف تتصرفين من تلقاء نفسك وتقدمين

على شيء دون الرجوع إليها؟

رمقته مستغربة ردة فعله بينما تجيب في سلاسة:

- لم أكن متأكدة إلام سيفضي الأمر ولم أرد أن أرفع آمالها دون فائدة - عقدت ساعديها أمام صدرها متنححة - والشيء بالشيء يذكر يا جلال؛ ثمة معلومة في غاية الأهمية غائبة عنك ويحسن أن تعرفها عني؛ لقد تعديت الخامسة والثلاثين، انقضى من عمري نصفه على أقل تقدير. هل تفهم معنى ذلك؟ تعودت أن أكون حرة في اتخاذ قراراتي وتنفيذها في ذات اللحظة دون انتظار موافقة من أحد.

انتفخت أوداجه وهو يقول:

- يبدو أننا ما زلنا نواجه نفس المشكلة يا أصال! فدعيني أكون واضحًا منذ اللحظة الأولى؛ من الآن فصاعدًا لا تتوقعي أن تمضي في حياتك دون إذني.

(بل توقع أن أقوم بالكثير من الأشياء دون مباركتك، على الأقل في البداية)

ماذا لو أرادت أن تعرج بعد عملها للسير على النيل أو تذهب للتسوق أو السينما، وربما تخرج مع صديقة؟ لا تتخيل أنها كلما فاجأتها رغبة عادية تكون مضطرة إلى الاستئذان، مع احتفاظه بحق الرفض! إنها تعتبر نفسها إنسانًا راشدًا كامل الأهلية؛ ليست طفلة ولا معاقة ذهنية ولا مصابة بالألزهايمر ليتم التشكيك في قدرتها على التصرف. ماذا لو كانت رغبة كبيرة ومهمة بالنسبة لها؟ هل بمقدوره حقًا أن يرفض؟ هو ليس في حاجة إلى إذن لممارسة الحياة فلم تكون هي بحاجة إلى ذلك؟ هذه خطوة كبيرة جدًا ومخيفة جدًا ومسيئة جدًا بالنسبة لها! غير أنها ألجمت بالكاد لسانها الجامح، لئلا ينشب شجار مبكر

على علاقتهما الوليدة، ولأنها تعلم أن الكلام لا يرسى القواعد؛
المواقف تفعل. اكتفت بمبادلته نظرة طويلة متحدية، لا تحني
رأسها ولا تعلن العصيان، ليهز جلال رأسه متنهّدًا:
- لا أستبشر خيرًا!

الفصل الرابع

التقيت مرة بامرأة عجوز، تبلغ مئة عام تقريبًا، قالت لي:
«ثمة مسألتان تحاربّ البشر بسببهما عبر التاريخ: كم تحبني؟
ومن يملك زمام القيادة؟» .

إليزابيث جيلبرت.

تطالع آصال انتفاخ بطنها في وجوم وخشية، مغرورقة العينين، واضعة يدها على ما تحسبه رأس الجنين، تكاد ترجوه الرحمة! كم ستبذل في سبيل هذه التضحية التي تؤذيها على مضض؟ حين تأخرت دورتها الشهرية المنتظمة يومًا واحدًا هوى قلبها أسفل قدميها، لم تكن مفاجأة؛ كانا يحاولان الحمل منذ رجوعهما معًا، لكن دون رغبة حقيقية منها، تعرف جيدًا ما هي الرغبة؛ لأنها ظلت توجس في نفسها رغبة قوية، تكرر كل شهر، أن تُفِلت هذه المرة وحسب!

لم تحاول البحث عن نصير لرغبتها الشاذة؛ لا تقوى على الرفض علانية وإبداء الأسباب، أكثر حياءً وجبًا من أن تفعل. لا تُفصح عن خوفها من الأبوين المحتملين للطفل، لماذا قد تندفع إلى أذية هذا المخلوق الضعيف بهذه الطريقة؟

(ما ذنب الأطفال؟ ما ذنبنا جميعًا عدا أن آباءنا كانوا غير مسؤولين ومستهترين بالأرواح، ليسوا خليقين بالتربية على نحو صحيح وعادل، يضلون طريق السلامة النفسية للأطفال؛ جلال وأنا سنصير من هؤلاء - تربية نادرة ونسل قاسم - الشجرة المقطوعة لا تطرح!)

لا تنفي آصال أنها معجونة بالتحقق وحب السيطرة. لو وجدت في نفسها رغبة في شيء أحدهم أشار عليها به قبلاً؛ في الغالب تصرف نظرها عنه؛ إنها معضلة أن ينبع التصرف من صميمها وحدها دون مؤثرات خارجية. وحين تفقد السيطرة بين يوم وليلة، وينحسر تقدمها بخطواته الثابتة المُخَطَّط لها مسبقًا

بعناية وتصميم؛ لا عجب أن تتعرض قسرياً للخوف والبؤس وإفراط في التفكير.

لا تتماهى في الأساس مع التفاني المطلق وإنكار الذات وتكريس النفس للآخرين، الأمومة بمعنى أدق؛ لم يسبق لها العهد بالتوق إلى نبتة حية تنمو في داخلها، بالأحرى تستنكر ما يمثله ذلك الكائن الصغير من استحواذ تام على حاملته؛ رحمها على مقاسه، صدرها زاده، طاقاتها البدنية والعصبية والنفسية فارغات الشحن من جراء متطلباته، مأكلا ومشربها ونومها وقضاء أي من حاجاتها وقف عليه، أحلام المنام وأحلام اليقظة رهن به؛ قد يحالفها الحظ في تحقيقهم وغالبًا لا. ذلك التخلي المطلق عن النفس والجسد لم تحسبه مقبولا أو ممكنا؛ هذا قتل عن عمد!

وقد جاء مولد إسماعيل على هيئة نذير موت، بدا هذا احتمال مُرجح لما تهتك أنسجة رحم أمه في أثناء خروجه إلى الحياة؛ لتوشك هي على مغادرتها. حمل جلال الولد سليماً معافى، فيما نُقلت آصال فاقدة الوعي إلى غرفة عمليات مجهزة للطوارئ، تمددت نازفة على الطاولة الباردة تحت الأضواء الساطعة، لا تقي وحدات الدم حاجتها إليه، كانت تفقده بمعدل أسرع من مدها به.

جرى العمل على الخياطة وتخثر الدم على قدم وساق، يتفصد الطبيب الزميل عرقاً، موظفاً خبرته وقدراته متقبلاً كل المساعدات الممكنة لإنعاشها؛ كيف يتحمل العمل في مكان واحد مع رجل أفقده أم ابنه، لأنه اقترف من الخطأ أعظمه لما فاجأها المخاض؛ فلم يجر لها أشعة سونار حديثة كانت لتنبئه بوضع الجنين الحرج والتفاف الحبل السري حول ساقه، كان يُخضعها لجراحة قيصرية دون تردد، غير أنه مضى يجذب الجنين بكل ما أوتي من قوة، غير عالم ماذا يجذب معه! ليفاجأ

بعد وضعها الصبي بتدفق الدم غزيرًا بلا توقف.

ناشد طبييها جلال لاستئصال رحمها دون فائدة ترجى؛ لينفرد بها الأول بعد إفاقتها بأعجوبة في الرعاية المركزة، ويصارحها مغتاظًا أن قرار زوجها كان غير حكيم وغير محمود العواقب، كاد يكلفهم حياتها لولا تدبير الله؛ لم يزل في عمرها بقية!

زال أثر التخدير لتعاني آصال الأمرين، متلوية كدجاجة مذبوحة تلفظ أنفاسًا عزيزة، لم تُجدِ أقوى المسكنات في إراحتها أو التخفيف من حجم آلامها، أبسط قدر من الحركة كان سكينًا ثلثة تشق الجرح وتدميه؛ تخيلت أنها لن تقوى على الوقوف على قدميها مجددًا، لن تفرد ظهرها، ولن تعود خطواتها إلى سرعتها الطبيعية. أصرت على الخروج من المستشفى رأسًا إلى بيت أمها رغم ترثياتهم المسبقة لمكوث الأخيرة معهم مؤقتًا في القاهرة، لم تطق آصال أن يجمعها وجلال مكان واحد، مشيخة النظر عنه متى مكث إلى جوار فراشها في المستشفى. ولم يمنعها، كان جلال بطبعه ميالاً إلى منح الأمور المشتعلة وقتها الكافي حتى تبرد.

مضت آصال تتعافى ببطء من جرح الجسد بمساعدة أمها، وتقطع في جرح النفس أشواطاً طويلة؛ ترى خطأ جلال أجل شأنًا من خطأ الطبيب، قامر الأول بحياتها أو إصابتها بضرر دائم في أحسن الظروف، وتعرف دافعه؛ كانت إلى الموت أقرب من الحياة، لكن كان يهيمه كيف تكون حياته معها أكثر من اهتمامه بكيف تكون حياته بدونها، لم يكن ليّمده رحمها الميت حينها بمزيد من الأطفال! أوجست في نفسها نحوه ضيقًا ووعيًا شديدتين؛ خاطرَ بكل شيء أو لا شيء. فماذا لو كان بحوزته كل شيء لكن لا يحصل منه على شيء؟

ابْتُليت آصال بنادرة عوضًا في المنصورة. تبرع نادرة في أداء

أدوار الحماوات الفاتنات، وبّختهم أولاً أن لم يسموا المولود على اسم جده المرحوم عبد الرحمن، أقسمت بأغلظ الأيمان إنها لن تناديه إلا بعبدّه، مُبدية رغماً عنها غيظاً ملحوظاً وحقداً دفيناً على جدها إسماعيل لأنها لم تكن مدلته كحفيدته الأثيرة التي ترقد أمامها. ولم تترك آصال وشأنها داسة أنفها الطويل في كل ما يخص رعاية المولود حتى ضاقت آصال وداخلها الشك والندم، لم تحسن اختيار حصنها، عادت أخيراً إلى بيتها مهزومة وتعبة ومشتتة.

تشتاق النوم كحبيب مغرق في الدلال والكيد، «لا أنام» خليق أن يكون اسماً لرواية عن امرأة لديها رضيع لا امرأة لديها ذنب. لم تفتأ تتحسر وتتوجع، مستثارة الأعصاب، منهكة القوى، خاوية، فاقدة القدرة على التحمل والأمل. لكن لا تطرف عينها عن وجه وليدها الدائري كعجين مختمر، تطالعه مدققة، مستشفة عاطفتها المتضاربة، تنظر إليه بعين لائمة مغتازة، لكن لا تني تقرب أنفها من زفيره الخارج لتشتم رائحة أنفاسه الممتزجة بطعم اللبن، تتأمل فمه الصغير المكتنز المنفرج على شكل قبلة مذهلة، وتمرر أناملها على وجنتيه الممتلئتين بالشهد؛ شهى! تنزل عليها مع لبنها روح متهافئة خلقة، تؤدّ لو تعيده داخلها رحمةً به، لتحميه من نوبات جنون أمه وضعفها، وشرور العالم.

مضى بعض الوقت وأصال آخذة في غنج النساء وبراءة الأطفال؛ الطريقة المثلى لتصويب السهام إلى الأهداف التي في حوزة الرجال، تشن هجمتها في حُلم وحكمة كأنما تترصد غزالاً، تتجنب مسببات عكارة المزاج، لا تسأل ولا تحكي ولا تطلب، تجيب وتلي وحسب، تواظب على الصباحات الرائقة، وتُبقي نفسها على أهبة الاستعداد لليالي الحُمر مهما كانت مُنهكة أو كان مزاجها معتلاً، متحينة التوقيت المثالي لإطلاق سهمها الوحيد، لتصيد به قبول جلال عودتها إلى العمل بعد توقف عنه للوضع، ولما لم تؤتِ استراتيجيتها على مدار الأيام أكلها، فلم تُرحز موقفه قيد أنملة؛ شَب الحريق في قلبها، وقامت من الرماد كعنقاء.

- قلت الظروف غير مواتية، لم يحن الوقت بعد! تحبين الرسم؟ ارسمي؛ لا يمنعك أحد، خصصي وقتًا خالصًا لك في المرسم هنا في البيت.

حامل لوحاتها الخشبي المُفرَغ له مكان بالكاد في غرفة السفرة يسميه مرسماً! «النيش» الغبي عديم الجدوى يحتل مكاناً أبرج، حاولت التخلص من قطعة الخشب تلك المقدسة لدى قومها لإفساح المساحة لكن جلال أبى؛ قد دفع ثمنه مرتين؛ عند اشتراعه ثم قيمته نقدًا في قائمة طليقته، ولن يتحمل خسارة أخرى. لا تعرف ما حاجة البيوت إلى متحف مُصَغَّر للمعروضات الزجاجية؛ كؤوس وخزف ممنوعين من الاستعمال يكبدان ثروة بلا داع! كذا ردت بانزعاج مضاعف:

- هذا ليس كافيًا، ليس مرضيًا لي.

قال بصرامة:

- وليس بمبرر للزج بالطفل إلى الحضانة في هذه السن الصغيرة،
بينما يمكن.. بل ينبغي بأمه أن تتفرغ له.

هزت رأسها محتجة:

- وعام كامل لم يكن كافيًا؟ موظفات القطاع الخاص يعدن
إلى أعمالهن بعد ثلاثة أشهر لا غير.

لوح بكفه في ضيق:

- هل تعملين في القطاع الخاص أم تمارسين عملاً حرًا؟ لا أحب
الجدل الفارغ. هل أنتِ عالمة صواريخ يا أصال؟ ليس وكأن
الدنيا ستقوم وتقعّد من دونك! ما أهمية هذا العمل على أي
حال؟ أنتِ حتى لا تتقاضين عنه الكثير.

بهتت لوهلة ثم سألته في حزن:

- لماذا تتعمد الاستهانة بشأن ما أفعله يا جلال؟

مط شفتيه غير قادر على الادعاء:

- لا توهمي نفسك يا أصال. ليس وكأنك تنقذين الحيوانات.

زمجرت فبدت أشبه بلبؤة مفترسة:

- الفن فعلاً ترف في مجتمع جاهل! أنا أنقذ الأرواح يا جلال؛
أرشدّها إلى الجمال في هذا الواقع القبيح المحيط بنا من كل
اتجاه. لا ينبغي بكل واحد في الدنيا الحصول على درجة علمية
ليحظى باحترام حضرتك وتقديرك لعمله.

لوح بكفه معيّدًا الأمور إلى نصابها:

- لا، لا، لن نعود إلى هذا مجددًا! لا تصدعيني وتجادلي
كعادتك؛ ستموتين لو لم تفعلني، أليس كذلك؟ لكن النقاش

في هذا الموضوع غير مطروح - تابع بلهجة نافذة - قلت ليس الآن، ولو زدتِ يا أصل لن تنزلي الآن ولا فيما بعد.

انتفضت مطلقه حشجة كالذبيحة:

- تعلم جيداً كم أكره صيغة التهديد. لماذا تنصب نفسك عليّ حاكمًا؟ لا تتخذ القرارات التي تخصني بالنيابة عني.

- استمعي إلى نفسك يا أصل. استمعي إلى كم أنتٍ لحوح ومجادلة ولا تطاقين!

طفرت الدموع من عينيها في غزارة، شاعرة بالذلة والمسكنة وهي تتمتم:

- أنا لا أطاق؟

زفر في حدة وباء بغضب على غضب:

- لو أنها المرة الأولى التي تبكين فيها لتأثرتُ حقًا! وصالحتك كما فعلت مرارًا وتكرارًا؛ الشيء الذي يزيد عن حده ينقلب إلى ضده كما تعرفين. وحيث إنني صرت عاجزًا عن إحصاء عدد المرات التي بكيتَ فيها سابقًا؛ فسأكتفي الآن بإفساح المنزل كله لك، سأقصد المستشفى لربما تكونين قد انتهيتِ عند عودتي.

صفع الباب خلفه في قوة، بينما هي مقعبة في جزع على الأرض. يساورها الشك والخيبة حول ما سبق له الوقوع بينهما؛ كونها عاشته كدمية خشبية متصدية له في كل كبيرة وصغيرة، العين بالعين والسن بالسن! فها هي قد حاولت جاهدة أن تتبع الطريقة الأخرى، فلمَ من شأنها أن تكون النتيجة مماثلة؟ مع فارق بسيط؛ كانا يتخانقان ويسعى إلى فراشها في الليلة نفسها!

(كنتُ حلوة ومدهشة في عينيكَ، مثيرة لرغباتك في القُرب والإخضاع والانتصار، لم تعد في حاجة إلى ذلك بعد الآن.

تكف عن الكلام معي لأيام، لا تنظر حتى في عيني، ولا تبادل
بمصالحتي بطبيعة الحال؛ أعتذر حتى ترضى عني! ألائي بت ملك
يمينك؛ لا أقوى ولا أجروء، أكتفي بالطاعة لتُمر المركب؛ كونها
تغرق «ذات الرئيسين» كما لقنتني، لا أملك غير الرد بالبكاء عجزاً
وتفغيئاً عن الرجل المشتعل في داخلي)

(المرأة الضعيفة مملّة ومنفرة، أليس كذلك؟)

ينزع عنها صراخ وليدها حاجتها إلى التوقع على نفسها. لم
يكد ينام لساعة! تسرع إلى فراشه الصغير، تحمله في لوعة وسأم،
تقربه إلى صدرها وتهدهده، وهي أحوج منه إلى ذلك. إشارة
جلال عليها بتخصيص وقت للرسم في البيت مُدعاة للسخرية!
أني لها حتى بهذا الوقت؟

تعرف أصل أنها لو غفلتُ بعض الوقت عن البيت لتحول إلى غابة من الأشجار غير المقلمة، تتشابك أغصانها مع وجهك وذراعيك وقدميك أينما ذهبت! دورة حياة النحلة أصبح جدول أعمالها اليومي في هذا المنزل. تعب دائم في معركة لا تؤدي إلى انتصار. تحاول أن تجد سببًا واحدًا وجيهاً لتقوم من مكانها وتفعل شيئًا ما دامت ستعاود العمل نفسه في الغد!

سمع جلال صرخاتها المججلة من الرواق، فارتج قلبه وأسرع إلى الشقة مهزولاً ومصدومًا مما لاقاه؛ أصل تبدو في حالة هستيرية، مشعثة الهيئة، رثة الثياب، حمرة العينين اللتين أدارتهما صوبه بطريقة بدت مرعبة، مشيرة إلى الأطباق الصغيرة الكثيرة التي تتحلق حولها، وإسماعيل على الأرض، فاتحة فاهها لتُخرج صوتًا متحشرجًا وباكيًا:

- انظر إلى كل هذا! أرز ومكرونه، لحم مسلوق وأصابع دجاج مقليه وسمك، بيض وبطاطس، هذه بسلة وتلك ملوخية، الأطفال يحبونها! انظر إلى كل هذا وقل لي لماذا لا يرضى أن أطعمه أو يأكل بنفسه؟ انظر إلى كل هذا وقل لي كيف أبقي عاقلة وهذا يتكرر ثلاث مرات يوميًا؟ بالمحايلة والاستعطاف والمراوغة والغضب والتهديد والضرب - أشارت إلى صدرها المغلول - انظر هنا، هذا الغضب والإحباط واللوعة..

قاطعها غير مصدق:

- أيتها المجنونة! هل تضربينه؟

حركت رأسها نفيًا مغتظة:

- ليس بالقدر الكافي ليشفي غليلي.

أمسكها من عضدها وأوقفها على قدميها، قائلاً بغلظة:

- توقفي هنا. هل تدريكين ماذا أنتِ فاعلة؟

دفعت يده غاضبة، وترنحت قليلاً بينما تبتعد لئلا يبقى بينه وبينها مسافة كافية لا تدفعه للإمساك بها ومقاطعتها، لديها كلام كثير تود قوله، كلام جاد رغم مظهرها الهزلي.

- ماذا تفعل أنت؟ لا تقاطعيني. هل ستسدي لي النصائح؟ احتفظ بها لنفسك. أنت متغيب لثلاثة أيام، أصبح وجودك أمراً غير معتاد. تعود متعباً لا تود أن تشارك في شيء ولا أن تتكلم في شيء ولا أن تستمع لشيء. أنا لا أريد أموالك التي تذلي بها كلما طلبت مساعدتك، لا أريدك ممولاً، كن أباً وزوجاً على قدر المسؤولية؛ أنصت حين أتكلم، وانظر معي إلى هذا المكان الذي لا يود أن يراني جالسة للحظة؛ دائماً ثمة غسيل بحاجة إلى التنظيف والكي، أدوات الطعام تتكاثر ذاتياً حتى لو طلبنا الطعام من الخارج! السجاد والستائر وسور الشرفة والمقاعد والأسرة.. كل شيء، كل شيء بحاجة إلى تسوية وتلميع وكنس ومسح؛ لا ألبث أن أنتهي من شيء حتى أبدأ في آخر وإن أنهيتها جميعاً أجد أن عليّ أن أبدأها ثانية! وأنت لا تساعد أبداً؛ ترمي ملابسك وأحذيتك دون اكتراث في كل مكان، لا تستعمل الحمام إلا وقد بقرت بطنه. لماذا لا تعفي الخادمة لمرة وتعيد شيئاً إلى مكانه؟ فرشاة أسنانك وماكيناة الحلاقة والمعجون والمعطر ومزيل العرق والمنشفة، ناهيك بأدوات الطعام، كل شيء، كل شيء حولي يتداعى، بغير جدوى مهما بذلت. أنا عديمة الجدوى! لا أحقق شيئاً. هل تتحمل أن يمر عليك يوم واحد دون أن تنجز شيئاً رغم أنك تقتل نفسك جهداً؟ أنا...

- أمرك غريب! هذا واجبك. ماذا تريدين أن تفعلي إذن بحياتك؟ أنتِ لا تعملين.

- من المسؤول عن كوني لا أعمل!

كانت قد استنفدت ما تبقى من طاقتها الهزيلة، وكادت تقع أرضاً من فرط الإرهاق والحزن واللوم. تلجلجت وحاولت جاهدة أن تستمسك بسبيل إلى الراحة، تريد التقاط أنفاسها، تريد تذكرة بأسباب بقائها بعد على قيد الحياة. قالت عازمة:

- لا بُد أن أخرج. أريد أن أسير وحدي في الشارع وأبكي كثيراً، هلا جالسته؟ إنه في عهدتك.

أسرعت إلى دولاها لتغيير ملابسها فتبعها ممسكاً برسغها بقوة، وصاح في حدة:

- ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ لن تخرجي إلى أي مكان يا أصل. توضئي وصلي ركعتي شكر لله على نعمة الزوج والطفل اللذين تتكرين لهما وتضيقين بهما.

حدقت في وجهه مصدومة. بعد كل ما قيل! قَدْ قلبه من حجر. قلق من سكوتها ونظرتها الذاهلة وحركتها الهامدة فألأن القول:

- أنتِ زوجة وأم يا أصل. وهذه حال كل النساء، إنها فترة مؤقتة ولن تلبث..

صاحت فجأة بصوت غليظ متفجر حتى إنه جفل:

- إياك! لا تقل لي هذه حال كل النساء؛ هذا لا يجعله أسهل. كلنا بلا استثناء نموت. هل هذا يجعل الموت أسهل؟ هل يجعلك أكثر رغبة فيه؟ سأنزل يا جلال وإلا سأموت بحسرتي الليلة. إنه قرارك.

- هذا ليس حلاً يا آصال - تنهد متعباً وقال مضطرباً - حسناً.
يمكنك العودة إلى العمل.

انفجرت شفاتها وبرقت في عينيها نظرة ممتنة غير مصدقة،
مسرعة إلى ضمه ودفن رأسها في صدره كقطة طال مواؤها، غير
أنه لم يبدُ سعيداً وهو يحيطها بذراعيه على مضض؛ كان يشعر
بشيء من القرف والاستياء وأنه قد لويت ذراعه، لم يحب ذلك
الشعور، ولم يتوقع أنه يستطيع الاستمرار طويلاً في التعايش
معه.

تمكنت آصال بعد محاولات عدة من إيداع إسماعيل في فراشه، مُفسّحة مكانًا لها على ساقَي زوجها، جالسة في وضع احتضان غير متبادل، جسد جلال متخشب ونظره مُحجّم عنها؛ رفعت عينها إليه منزعة، تخاطبه بحاجتها إلى إعارتها بعض الاهتمام الذي يولي مثله لعمله، بالكاد يستعملان لغة الكلام! يفتقران إلى الأحاديث التي تجرهما إلى مشاركة أحدهما الآخر عن يومه؛ جلال لا يجد ما يثير اهتمامه لدى آصال، فلا يسلم لها أذنه، ويضن عليها بما لديه (يطول شرحه يا آصال! لن يفيدك في شيء أن تعرفي). تشعر بالإهمال يزحف كأَسراب النمل على علاقتهما ويجرهما إلى سبيل لن يحبه أحدهما؛ جحر خنيق معتم.

انفجر جلال في ثورة مفاجئة مُعبّأة بالاحتقان الطويل؛ لتفزع آصال وتهب من جلستها مبتعدة عنه أمتارًا.

- ماذا عني؟ أنا آخر همك يا آصال. جف رريقي! طلبت منك صباحًا كي قميصي فنسيته، فقلت لا بأس، سألبس ما لبسته أمس، ورجعت آخر النهار فطلبت ثانية، لم تفعلني أيضًا، ففعلتُ أنا! والماء الذي أطلبه منك الآن منذ نحو نصف ساعة لو كنتُ تائهاً في الصحراء لعثرتُ على بئر!

- ها أنت تفعلها ثانية وتحول كل حوار حقيقي بيننا إلى مطالبة بحقوق نفعية، وتتجاهل ما أطلبه بدوري، بل وتقارن هذا بذاك كأنهما يحوزان الدرجة نفسها من الأهمية! تنحصر مشكلاتك في العطش؟!!

اتجهت بخطوات غاضبة سريعة إلى المطبخ، صبت كوبًا من

الماء وعادت به إليه، يستبد بها الضيق:

- ها هو كوب الماء. تفضل. هنيئًا مريئًا. أمكنك أن تحضره لنفسك أيضًا لعلمك، ولن أكون حينها مقصرة، إنها أبسط قواعد الاعتماد على النفس.

ترك يدها الممدودة إليه مُعلّقة، وقام فزًا من مقعده، يصيح ملء حنجرتِه مُغلِظًا صوته:

- هل تعلمين ما هي مشكلتي؟ أنني رجل بسيط، غاية في البساطة، لا أطلب الكثير، وأنتِ في غاية التعقيد، تطلبين أكثر مما ينبغي.

هتفت دامعة العينين، تمسد فم معدتها، توشك على القيء:

- لا ترفع صوتك هكذا؛ توصلت إليك مرارًا لا تفعل مثله، تعلم جيدًا ماذا يصيبني!

زفر جلال حانقًا، ابن سبعة؛ غضوبًا كفتيل متفجرات سريع الاشتعال، ضيق الخلق، نفسه أقصر من احتمال حماقة المراهقات، لقد كبرا كفاية ليتجاوزا هذه المرحلة! فورة الشباب خلفاها وراءهما. لكنها لا تني تبش عن المشكلات كإبرة هزيلة في كومة قش. يشك أنها تعرف كيف تستقبله دون أن تصب على رأسه وابلًا من الاتهامات: لا يهتم لسلامتها حين حاول الحفاظ على رحمها، لا يساعدها في شؤون المنزل وإسماعيل، كأنما هو مطالب بذلك علاوة على تأمينه حياتهم! كأنما لا يكفي كل الجهد الذي يبذله خارج البيت! يميته ببطء في المنزل دون ممارسة الشيء الذي تحب، يفعل كل شيء سيئ! وقد تكفل بأمر العمل وسمح لها بالعودة إليه بعد تلك الحالة الغريبة التي كانت عليها، ألا يشغلها كفاية؟ ما جدواه إذن؟! لا شيء يبدو أنه يعجبها. هل باستطاعتها ألا تكون متشكية ومتطلبة وتركه وشأنه؟

(أنت لا تتكلم معي.. أنت لا تخرج بصحبتى.. تقضي جل وقتك في العمل) هذا ليس بجديد! هذا ما هو عليه منذ البداية، لم يضحك عليها. ثم تجر عليه الآن تلك التهمة النكراء!

- منذ أكثر من عشرين عامًا، تعرضت لإساءة المعاملة لمدة... لنقل بضعة أشهر. لماذا تمضين في حياتك كأنما ما زلتِ تفعلين؟!

اتسعت عيناها مأخوذة بالصدمة، متسائلة في مرارة:

- بضعة أشهر! هل تقيس الألم بالفترة الزمنية التي استغرقها ليقع؟

- بل أقيسه بالفترة التي استمر عليها.

- حسناً. إنه مستمر، إنه ما زال واقعاً. تخيل طفلاً فقد والده وأمه حامل بعد فيه ثم ماتت وهي تضعه؛ هذا الطفل الذي لا يحمل أي ذاكرة عن والديه تراه لن يشعر باليتم طيلة حياته؟ المشاعر ليست مرهونة بزمان ولا بوجود الشخص الذي سببها من عدمه! وهذه المشاعر تجعل مني الشخص الذي أنا عليه اليوم. اقبل ذلك أو ارفضه لكن لا تنكره.

- لا أقبله إذن يا آصال؛ الشخص الذي أنت عليه اليوم يشعر بالاضطهاد طيلة الوقت، لا يعقل كلما زعقت تقولين لي أنت تذكرني بأبي! الناس كلها تفقد أعصابها وتستعمل صوته للتعبير عن غضبها حتى لا تنفجر من الغيظ. حين أغضب منك لن أكتب لك جواب عتاب! أفيقي. أنا لست مثل أبيك وأنت لست فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، أنت امرأة ناضجة، يحسن أن تتعلمي كيف تواجهين المشكلات التي تتعرض لها دون أن تحوليهما في كل مرة إلى عقدة طفولة لست مسؤولة عنها ولن أقضي عمري كله أكفر عنها! انضجي. ستحيلين حياتنا إلى جحيم

لا يطاق لو واصلت ذلك. في مرحلة ما عليكِ التوقف.

انتجت عاجزة عن ابتلاع غصة حلقها. يقف أمامها كمارد جبار لا يعرف الرحمة، يصب عليها سياط عذاب. ضغطت على الحروف بقوة، تُفخمها وتعطيها معاني عملاقة:

- عقدة طفولة! أبي حاول قتلي. هل تفهم؟ أسقطني متعمداً من الشرفة. هذا حدث جلل لا أرى كيف من الممكن تجاوزه!

- هذا ما يصوره لكِ خيالك. لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك. كم مرة سأقول لكِ ذلك بعد؟ لو أنه أمسك من قدميك كما تزعمين وألقاكِ من الشقة لسقطتِ على رأسك ومِتِ في الحال. لقد سقطتِ على قدميكِ يا أصل. أنتِ قفزتِ.

- أنت لم تكن موجوداً لتجزم! لماذا لا تريد أن تصدقني؟ هذا مؤلم أكثر.

أوشكت أن تزيج شعرها لتبدو جبهتها أمام ناظريه جلية، ناصعة، بيضاء من غير سوء؛ تتكفل عنها بإخباره الحقيقة، مؤكدة أنها لا تعرف للكذب طريقاً. تراجعت مُحَبطة في اللحظة الأخيرة عن انسياقها خلف حكايات الأطفال الشعبية؛ الآن وقد كبرت، ليست ثمة طريقة ترهن له على صدقها! لتمنعها أمها من لوك القسم بالله في فيها وهي بعد صغيرة؛ أخبرتها أن الله يفضح الكاذب بين الناس فيسود جبينه؛ لتحمس أصل لفكرة أن الحق بئس، فتسارع في أي مناسبة تتعرض فيها للتكذيب أو على الأقل للتقيرير؛ وترفع غرثها عن جبينها في ثقة، عالمة أن الله سيظهر براءتها وقولها الصدق. تقول:

- انظري إلى جبريني يا ماما، أبيض أم أسود؟

تبتسم روحية وتعرف يقيناً أن الناطق بالحق صوته قوي لا يرجف، عينه ثابتة ومُلحة. تنظر إلى جبين ابنتها وتجب:

- أبيض ناصع يا أصل. صدقت.

استطردت أصل بصوت غليظ مُشَبَّع بالحد:

- كنا نلقى الأمرين، ولو توافرت الظروف المناسبة لاستمر في البطش بنا، لجرى لنا الأسوأ، لكنك ميتة الآن بالفعل!

هز رأسه يائساً ولاذ بالفرار إلى غرفة النوم:

- أنت مُتعبة، لا تريحيني أبداً، التعاطي معك يستنزف أعصابي.

يقطع جلال الأحاديث في منتصفها، يتركها معلقة دون أن يصلح إلى وجهة يرضيان عنها، يسأم سريعاً من الجدل، ويفر من الحلبة محافظاً على الرمق الأخير من ثباته الانفعالي؛ نُصَدِّر أصل له طاقة سلبية غير عادية، عدائية وقلقة وحرون، تعشق تضخيم المواقف! تركها تكاد تنفجر من الغيظ والبكاء.

بأكثر من طريقة، لا يفضل جلال أن تخوض فيما مضى. ليست سابقة! باتت تعرف أنه يُسَكِّتها ويُغَالِطها ليس خوفاً على مشاعرها أو تخفيفاً من هول التجربة عليها، بل تطييراً ككل مما تقول؛ لا يود أن يرى رمزاً راسخاً يسقط ويهدم، تماماً كما روع العرب سقوط شمال مجرم الحرب صدام حسين، واستنكارهم إعدامه في عيد الأضحى كالخراف، رغم كل ما جنته يده؛ رمز رب البيت في مجتمع أبوي ليس بهين! ذات موقف جلال من ٢٥ يناير؛ عزيز القوم لا يُدَل! على عِوَج السُّلطة يجد القيام عليها عقوفاً! كان حانقاً ومعادياً ولم تهدأ نفسه ويرتح بالاً إلا بتسلم الجيش المقاليد؛ عادت الأمور إلى نصابها واعتلى الكبار.

حظر عليها أن تشارك للحظة في الإسقاط، ولو بإبداء الرأي، أبعدتها كلياً عن ذلك الحدث الجلل في تاريخ جيلها، وقد أحرقته رغبة النزول للتهافت ورسم الجرافيتي واقتلاع الراعي غير الأمين على رعيته. وحين صدت قمعه لصوتها، أخبرها أن دافعه

ليس عدم موافقته على توجهها، بل لأن ذلك المجال لا يليق بالنساء، ومن نزلن منهن سمحن بأن يُنال من سمعتهن وتثار حولهن شبّهات الانحلال، مدللًا بكشوف العذرية! قد نسيْتُ أن صوت المرأة في هذا البلد ليس عورة حين تزغرد في محل مصوغات وصالون تجميل وقاعة فرح؛ ليس عورة حين تتوح وبائع السوق، لكنه عورة حين يرتفع بالحب أو الغناء وحين تستعمله في السياسة والحقوق؛ مجتمع متدين بطبعه! ما ظهر من الدين ولا يهم ما بطن.

تستجمع شتات نفسها وتُهدئ من روعها رويدًا رويدًا، تعرف ماذا سيحدث تاليًا، ستعرض الصلح وإن كانت في صميمها مُخاصمته؛ لن تدعه يصيب مشاعرها ناحيته بضرر بالغ وربما دائم. لن تحتمل أن تكرهه، عدد أحبائها لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة بل هم أدنى، تحتاج إلى التشبث بالحب والتسامح، لا تريد أن تستمر في العيش في غضب ونقمة؛ يكفيها ما تغالب من مشاعر متقلبة إزاء جلال في الأوقات العادية، دون أن يكون له بالضرورة دخل مباشر فيها؛ تشعر بعاطفة جارفة حياله كأنما تحبه أكثر من أمها - حبها الأعظم - ثم في لحظات صفو عادية لا تطيقه أمام ناظريها، بدر منه ما يسوؤها أم لا! ترنو إليه هائلة بوجوده في حياتها، لا تصدق عطايا الدنيا الكريمة، لكن لا تمر لحظة وجيزة إلا وتود لو ترجع حياتها بدونه! تشعر بالتمزق وانعدام السكينة، كأن قوة نسائية قائمة بذاتها تتصارع بضراوة في الداخل، تنظم نفسها اتحادًا على كل الأشخاص من حولها، تحاول أن تبعدهم عن طريقها.. تسمع صوتًا داخليًا ممتلئًا عزيمة ومقاومة:

(لست بحاجة إلى أحد، أنت بحاجة إلى نفسك)

- غريب يا أستاذة أنك لم تتخرجي في كلية الفنون الجميلة ورغم ذلك أنتِ بارعة في الرسم، حتى اتخذته عملاً.

كانت قد فرغت من الورشة وشرع المتدربون في لملة حاجياتهم استعداداً للرحيل، ليفاجئها أحدهم بسؤاله ذاك الذي لم تغفل عن احتوائه على قدر كبير من التفخيم والتودد. استطاعت أصل من الحصص السابقة التي جمعتها بذلك الشخص أن تعرف أن طريقته في معاملة النساء فيها من المجاملة والمبالغة ما لا يُحتمل، تلحظ كيف يتحدث إلى زميلاته، وقد أدار الدفة في اتجاهها هذه المرة، غير أنه اختار تحديداً مدخل حديث محبباً إلى نفسها، فلم تستطع الإجابة باقتضاب.

- في الحقيقة، لظروف ما أخفقت في الحصول على المجموع الذي يؤهلني للالتحاق بالفنون الجميلة، فضلاً على أن ظروفنا المادية لم تكن لتسمح لي على أي حال؛ الدراسة مكلفة. اضطررت لتقديم أوراقك بكلية التجارة.. كلية الشعب! كنت بحاجة ماسة إلى العمل، اشتغلت بالمحاسبة في عدة أماكن ولم أزل بعد طالبة. قصر ثقافة المنصورة ساعد ألا تنطفئ شعلة الفن في داخلي. أدين له بفضل عظيم، بعد ذلك تمكنت من التدرب على الرسم في ورش فنية كهذه، حتى أصبحت بدوري مدربة، كهواية ونشاط فرعي إلى جانب عملي في المحاسبة الذي تركته بعد الزواج، متفرغة للتدريب، أصبح عملاً بدوام كامل.

تتهدت والتوى ثغرها بابتسامة متواضعة نسبياً، مستطردة:

- هذه قصة كفاحي لو صح تسميتها بذلك.

- قصة رائعة وملهمة كصاحبتهما.

حرك الشاب رأسه متصنّعًا التأثر، مغازلاً بطريقة بدت مخنثة:

- اسمحي لي أن أقول لك يا أستاذة إنكِ جميلة ورقيقة، وكذلك رسوماتك تتم عن الجمال والرقّة حتى لمن لا يعرف صاحبتهما، سيشعر بذلك.

- آصال!

كان جلال واقفًا على بعد متر منهما، حاد النظرات، متجهّم الوجه. ازدردت لعابها بصعوبة، ومدت يدها إلى حقيبتها دون أن ينبس أي من ثلاثتهم بكلمة واحدة. صاحبته في الطريق إلى الخارج حيث استقلا سيارته في صمت تام من الجانبين.

استهلت آصال الحديث بعد الصمت المطبق الذي رافق رحلة عودتهما إلى المنزل، سارعت بالتبرير حتى تقطع الطريق على الملامة ونذير الغضب الذي تراه ملتئمًا في عينيه.

- إنه متدرب لديّ أصغر مني سنًا، لا يزال طالبًا في الجامعة، وهذه طبيعته، مجامل للغاية ومعسول اللسان مع الكل ليس معي وحدي.

أردفت ملوحة بيديها، مشيرة إلى حملها، في محاولة أن تريح النزال من الجولة الأولى:

- وبطني المنفوخ هذا كملامح وجهي، هل تظنه لم ينتبه لذلك؟

انتفض من الغيظ وصاح بنبرة عالية أخرجتها وأدمنت عينها:

- أنت غبية! وهل أشكك في إخلاصك لي؟ أنا أثق بك ثقة عمياء، لكنكِ لم تحترميني يا آصال، عمدتِ إلى الإساءة إليّ ومضايقتي. لم أكن أعرف أن عملك هو الدردشة مع الرجال - تابع مستهزئًا

- ولم أكن لأعرف لولا أن سيارة سيادتك معطلة اليوم وفكرت أن أمر عليك لاصطحابك بدلاً من اضطرارك للمواصلات وأنت حامل. شهامتي أسدت لي معروفاً كما يبدو.

أطرقت مقرة بذنبها تستجدي رحمته وتُقصِر الشر، تمتمت مستعطفة عساها تُمنح عفوه:

- لم أقصد أن أسيء إليك البتة يا جلال. لن يحدث هذا مرة ثانية. أعدك بذلك.

هز كتفيه بلا اكتراث، وقال بلهجة جامدة:

- هذا لا يهم الآن، لأنه لن تكون هناك فرصة ثانية لحدوث ذلك. لن تستمري في هذا العمل.

هتفت مفزوعة، تكاد تصرخ من اللوعة واليأس، موقنة أنه قادر تماماً على تنفيذ وعيده في التو.

- لا! لا! أنا في أمس الحاجة إلى العمل الآن، أرجوك يا جلال لا تقصر دوري على المنزل، سأكره نفسي! هل ترضى أن تعمل حمالاً أو عامل نظافة. هذه أعمال لا يزاولها غير المضطر، فما اضطراري إلى حصر نفسي وتكريس حياتي للنظافة؟

التوى ثغره مستهزئاً:

- النظافة من الإيمان.

انتفخت أوداجها وزعقت:

- لا تفقدني عقلي! حباً بالله، البقرة تحرث الأرض وتنجب وترضع. أريد أن أقوم بشيء جدير بالذكر ليس بوسع أي كان القيام به.

مط شفتيه قائلاً بلهجة حاسمة وباردة:

- الأمر منتهٍ يا أصل، لا تراجعيني. أنا هادئ تمامًا وأقدر وضعك وإلا كان لي تصرف آخر، فكفاك كلامًا حتى لا أفقد أعصابي. لن تحيي ذلك.

فغرت فاهها مغرورقة العينين، تحديق في ظهره الذي أولاها إياه بينما يتتبع عن ناظريها. تشعر أن مبنى يناطق السحاب رفعتها عاليًا بيديها ينهار الآن أمامها ويعمي عينيها التراب المنبعث من أنقاضه. بإمكانها أن تفرض رأيها وتسير رغبتها لكنها تعلم وكلها حسرة أنها لن تفعل وإلا ستهدم المعبد فوق رأسيهما مرة ثانية وأخيرة. يجيئها بالأمر المطاع فتمثل، ولا تستطيع أن تزيد حرقًا عما قال، يطغى على رغباتها ويشكل مشاعرها كما المادة الخام. لم يسبقها دائمًا بخطوة؟ ويحفر لقدميها بين خطوة وأخرى فحًا لعلها تهوي ويتشمس عنقها من الجذور؟ لا تنسجم البتة مع انسياقها هذا خلفه، تكره ذلك الشعور الذي يتسرب إليها في حضوره، تبغض تسارع أنفاسها وازدياد معدل ضربات قلبها، تزدري الضعف الذي ينضح من عروقها أمامه.

(أحتقر مقدرتي الهزيلة.. وأحتقرني. أريد أن تفتح الشمس وجهي، وتتجمد أطرافني من الصقيع، أريد أن أقضي الأثر في صحاري إفريقيا، وأتزلج على ثلوج موسكو. لكن لا! لا أخطئ موطئ قدمي، لا أسعى إلى معرفة جديدة، لا أمارس الشيء الذي أحب، لا أخرج إلى العالم والثقافات والحضارات والمجتمعات المتباينة؛ «إنا خلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا». نحن قوم نأكل ونشرب وننام ونقضي حاجتنا وتتكاثر؛ ألا إن الحيوانات في أقفاصها لا تفعل أكثر من ذلك!)

- أرجوك يا جلال، لا تضغط عليّ. الوقت ليس مناسبًا،
وبصراحة..

استطردت مترددة، متخوفة من ردة فعله التي تحفظها عن
ظهر قلب حين تخالفه الرأي:

- يحق لي الرغبة في فعل ذلك من عدمه.

حدجها بحدة ورفع صوته محتجًا، رافضًا رفض قاطع:

- هذا ليس شأنك وحدك لتنفرد بالقرار.

عقدت ذراعيها على صدرها وأومات مؤكدة، في عينيها يلتمع
مزيح من تحدٍ واستياء:

- صحيح. فسر لي إذن لماذا تتخذ الكثير من القرارات المشتركة
وحذك مثل السفر الذي تمنعني عنه وجلوسي في البيت غصبًا
واقترارًا، وهلم جرًا. المطلوب منك أن تكون عقلانيًا ومتفهمًا،
تعرف أن الجمل كله يقع على عاتقي. يجب أن أكون على قدر
المسؤولية، وأنا لست كذلك. على الأقل انتظر حتى أتعافي من
الجراحة.

- أنا طبيب وأؤكد لك أنك معافاة تمامًا ولن يشكل الحمل أي
خطر عليك.

- لستُ ماكينة للإنجاب، لستُ آلة لفرز المواليد دون هوادة!
بعض الرحمة لن تضر.

مط شفتاه في امتعاض ونفور:

- أنتِ أصلاً لم تريدي لذاك الحمل أن يتم، ولم تكلفي نفسك عناء ادعاء الحزن. لقد كان حيًّا وقلبه ينبض! ومات. ابنك مات ولم تتأثري، لم تذرفي دمعة بينما تبكين لو احتر الجو وتعرقت!

تنحنت مبرّثة ساحتها من الذنب:

- لم أرده في ذلك الوقت. الأمر مختلف.

قد شعرت صدقًا ببعض الارتياح والامتنان لحكمة الأقدار؛ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ كان الحمل خطوة مستعجلة بينما إسماعيل لم يتم عامه الثاني بعد؛ لقصرت في حق كليهما لا محالة. هذا لا ينفي أنها كانت تجربة صعبة ومحبطة، استنزفت مشاعرهما ودماءهما وأمالها، عانت الأمرين ونالت حصتها كاملة من الألم، شقوا بطنها في محاولة لإنقاذه. جلال محق، ربما لم تشعر بالفقد؛ هي لم تملك! غير أنها تصحو مرتعبة لكابوس هاجم منامها عن أذى الحق بإسماعيل أو خاطر مفزع ينذر بالخطر والشروع التي قد يتعرض لها؛ تبسمل وتحوقل وتدعو الله أن يحفظه؛ هذا ابنها رأيته ولمسته وأحبته. لا تعرف كيف تحب غير ذلك. تستهجن قدرة جلال على حب الأجنة! كان يمضي في الحديث إلى إسماعيل وهو بعد في بطنها، يحيي الحوادث ويغني ويتلو قصار السور، وكذلك فعل مع الجنين الذي أجهض، احتفى بمقدمه وبكى كما لم تره قبلاً حين لم يأت.

تطلعت أصال إليه مليًا وواجهته بذنبه كما يواجهها:

- قد عرفتُ من نادرة أنك طلقت زوجتك الأولى لأنها كانت عاقراً. يبدو جلياً لأي غاية تزوجتني.

طالعتها بنظرة طويلة يائسة، ثم زفر قائلاً:

- أولاً، أعفتني ريهام أن أكون نذلاً لأطلقها لهذا السبب،
تعرفين أنني لا أحتمل أن تسيء امرأة إلي؛ وقد جُنت ريهام حين
اكتشفت عقمها - تابع متهمكاً بكلمات هي كالحجارة أو أشد
قسوة - ولو كان كلامك صحيحاً يا آصال ما تزوجتُ بامرأة في
سنك؛ تقتربين من الأربعين بسرعة الصاروخ! نحن نسابق الزمن.
استشاطت غضباً واحتشدت في عينيها الدموع على الرغم منها،
ثم قالت ساخرة وكلامها يقطر حقداً ولوماً:

- وما دام مضى عمري هكذا حتى كدت أهرم، لماذا لا أسابق
الزمن في الأشياء الأخرى التي أريد أن أفعلها قبل أن يداهمني
الموت؟ أريد أن أسافر خارج مصر، ألقى نظرة على العالم ثم
أعود إلى مكب القمامة هذا. لماذا لا تتعارض ظروفك المادية
مع الإنجاب وتتعارض مع كل شيء آخر؟

قبض على كفيه بشدة وهو يزوم:

- صه، اسكتي. اربطي لسانك الغبي هذا.

لم يكد يخطو مبتعداً حتى عاد إليها نافر الأوردة، يزفر
متوعداً:

- كثيراً ما تحضيني على العدول عن تفكيرتي في مسألة ضرب
المرأة.

زوجي العزيز جلال:

أكتب إليك لأنك لا تسمع سوى نبرة صوتي حين أخاطبك،
تصغى إلى كيف أنكلم لا ماذا أقول؟ تنهري وتقاطعني لأحسن
القول، وتعد كلامي في أحسن الأحوال فارغاً، ما دمت لا تستمع
فاقرأ، لعل ما أود قوله ولا أستطيع، يصل إليك!

لماذا هو أمر عادي أن تخرج عن شعورك معي في حين أنه
ليس كذلك بالنسبة لي؟ تقول: «لقد خرجت عن شعوري».
هكذا؟ ببساطة!

لمَ لا تقيم الوزن وتحسب وتفكر ألف مرة كما عودتني أن
أفعل، اتقاءً لآثر فعل أو قول يبدر مني، لمَ المراعاة حكرٌ
على نفسك وإحساسك؟ كأنما ليس لشأني ومشاعري اعتبار!
كأنما لك الحق وحدك أن تغضب وتثور وأن تعبر عن غضبك
وثورتك بشتى الطرق، لقد هددتني مؤخراً بالضرب! والله أعلم
هل ستفعلها؟!

لماذا في رأيك نزلت آية صريحة نافذة في كتاب الله «وعاشروهن
بالمعروف»؟ وقال رسول الله: «رفقاً بالقوارير»، وأوصى بالنساء
خيرًا. لأنكم قادرون على غير ذلك؛ الاستضعاف سمة أصيلة
لدى الأقوياء. هل تفهم قصدي؟ لن ترفع السلاح على شخص
أعزل، أليس كذلك؟

تتهند آصال، وتنظر بعين غير راضية إلى رسالتها ثم تقوم
بتمزيقها.

(ربما في الآخرة العليا الناس كأسنان المشط، لكن في الدنيا
الناس يكونون بنفس الدنو، لا يرفع بعضهم عن بعض العمل
الصالح بل الأرزاق. انظري من حولك يا آصال! الناس ليسوا
أيضًا سواسية. الأرزاق تفرق بين الناس؛ الأغنياء في الكفة الأثقل،

يشترون بأموالهم العلم والكراسي والجاه والعيشة الرغدة
والعزة، ويشترون نقائصهم وما لا يستحقون، لكنك حتى لو
تملكين ما يملكون وأكثر لا تطب كفتك؛ المال الذي يرفع الناس
عن الناس درجات يعجز عن رفعة المرأة، ليس بطاقة عبور لها
لكل شيء... الجنس رزق!

إضاءة الغرفة ساطعة، كقرص الشمس في منتصف الظهيرة، جلبة المارة في الشارع تصك مسامعها في وضوح يصعب معه التركيز في شيء آخر. دون مقدمات، جرّها من المطبخ بمنامة مهلهلة؛ يختار أصعب الأوقات. لو مانعت يزدريها ويقول بملء فمه: «نكدة»! تذوب في حرج عظيم؛ لم تعنَ بجسدها منذ مدة، فكم فعلت! ثم ملت؛ مجهود مؤلم سُدى! رائحة الطبخ في ملابسها تشتتها، لا تحاول أن تفك شعرها المضموم في كعكة، مستحيل أن تشعر بالإثارة الآن، ليس وكأنها معتادة أن تشعر بها في كل مرة، لكن مؤكد أنها لن تفعل هذه المرة.

كانت تواظب على ارتداء الملابس الداخلية الرفيعة التي أصابتها مؤخرًا بحكة شديدة لاهبة، وتزيل الشعر الزائد بشكل دوري معرضة بشرتها للالتهاب، لكنه نادرًا ما يخلع ملابسها، لا تأتي لها فرصة الشعور بجسدها، لا تشعر أن لها دخلًا في إثارتها. كانت مواقعتها تشعرها في البداية أنها حلوة ومرغوب فيها، تحس أنه معجب بها، متلهف عليها، يود أن يضمها ويقربها إليه، ثم لاحظت أنه لا يبدّر منه ذلك إلا في الفراش، حين يكون في حاجة إلى قضاء وطره؛ يجاري الشهوة لا العاطفة.

حتى فترة قريبة كانت ترطب شعرها بمستحضرات مستوردة وتمشطه بكثرة وتركه مغناجًا على كتفيها، لكن أصابعه لم تتخلله قط، تشك أنه يميز إن كان ملمسه حرييرًا أو خشنًا، لن يهتم. لم تن رغب حساسية صدرها ترش العطر وراء أذنيها وحول عنقها وجيدها وكتفيها؛ كانت تحضر نفسها لقبلات دافئة مسترخية وحركات أنامل بطيئة، ثم لا يمهد لها للقائه، ويتجه

كله، بكامل حواسه وأطرافه إلى مكان واحد في جسدها، مكانين على أقصى تقدير، في كل مرة؛ ينصب شبابه حول مصب غريزته. بات وزنه ثقيلاً وهي في كامل انتباهها، تشعر بلحمها يُنهش، وتسمع صوت الالتهام، تجز على أسنانها وتشعر بالقرف، وتستमित في المقاومة لئلا تدفعه عنها، تكاد تطفر الدموع من عينيها. لم يقدر ما كانت تبذله للقاءه ولم يبذل شيئاً في المقابل؛ ينتظر بدلاً أن تتجاوب بصوت عالٍ، متناسياً تقديسه المنيع لحياثها، فتشق الآهات حنجرتها غاضبة مشمئة، وتخور كبقرة تُذبح، حتى يشبع ويرتوي، ويتركها لا مستثارة ولا منتشية، مجرد وعاء يُفريغ فيه ماءه، في حال احتقن!

ولا يجب أن تدعوه إليها، يجزع، ويكشر عن أنيابه إن كانت البادئة! لا تعرف ما علة ذلك؟ وقاحة ربما أو قلة حياء في نظره! لم يصم فطرة طبيعية في النساء كما الرجال؟ يشعرها بالعار من غريزة إنسانية وترجمة طبيعية للحب. تذكر المرة الأولى التي أنكر عليها حقها ذلك كأنما هي مومس يشمئز منها؛ طالعها غير مصدق وهتف بما أجهز على رغبتها وأبكاها لأيام حسرة ومذلة:

- لم يكد يمر وقت طويل على آخر مرة!

هو وحده يقرر متى تكون المرة التالية.

فرغت أصال من المقاومة، استنزفت حتى الرmq الأخير، تود الراحة والإذعان، تشعر برغبة صادقة في الاستسلام، كغريق يُنزل ذراعيه المتشبثين بالنجاة وتكف قدماه عن الحركة، ويترك جسده للأمواج تتقاذفه والبحر يبتلعه إلى الأعماق، يهبط، ويغوص حتى يلمس القاع.

وصل العمل المنزلي بها إلى حد الهوس، تأمر جلال بغلظة

أن امسح قدميك، لا تلمس هذا، ضع ذلك في مكانه، لا تجلس هنا، تطرده أحياناً من المنزل لتنظف. فقدت بهجة الحياة، لم تعد تجدها ذات مغزى، جافة، قاسية، غير عادلة أو مرضية؛ ما تقوم به كله بغير جدوى، مجهودها ووقتها وأملها مكرس لما هو عام وتافه وزائل؛ يختفي أثره والتعب الذي استلزمه؛ الغرفة تتسخ والملابس تتسخ والأطباق تتسخ، والطبخ ينفد!

يبدو وجهها منهمكاً، حاجبها منعقدان، ثغرها ملوي، ولسانها معقود. مُنهكة، دائمة التأهب، تغلق النوافذ، تطرد الضجيج والهواء الذي يصحبه الذباب في النهار والناموس في الليل، الشمس كذلك تأكل قماش الأرائك وتضوّع الغبار؛ لا مكان لها في المنزل، تحكم إسدال الستائر. تكيف البيت الجامد صيفاً وتدفعه في الشتاء.

تبلغ حالة من الفراغ الذهني، ملل، رتابة، آلية، والكثير من فترات الانتظار؛ تنتظر البواب يحضر لها طلباتها من البقالة والخضري والجزار، تنتظر الطعام حتى ينضج، تنتظر المائدة تُرفع حتى تغسل الأطباق، تنتظر الملابس المتسخة تتكوم حتى تغسلها، ثم تنتظر الغسيل حتى يجف لتطويه، تنتظر الليل يرخي سدوله حتى تنام، وتنتظر الصباح يهل لتصحو، وتعاود التنظيف والطهو والغسيل والانتظار...

- لو رأي جلال بصحبتك تشربين الأرجيلة يا راندا لمنعني من الخروج معكِ وربما معرفتك كذلك. هل يعرف زوجك بشأن ذلك؟

فركت أصال يديها، متلفتة حولها في توتر. تشعر أنها طفلة مجرمة لو رآها ولي أمرها لمنحها علقه محترمة. فيما نفثت راندا الدخان في وجهها باستمتاع، وهزت كتفيها بلا مبالاة، مجيبة:

- صولا. أنا أذخن السجائر أيضًا، لا يمكن إخفاء ذلك. وفي الحقيقة لو اضطررتُ إلى الإخفاء فثمة مشكلة!

رفعت أصال حاجبيها بانبهار وهتفت غير مصدقة:

- ألا يمانع؟

حركت راندا رأسها نفثًا؛ لتخفض أصال صوتها فجأة بينما تتابع كأنما تبوح بسر خطير:

- تعرفين أن التدخين مضر وحرام؛ فلو أرداك أن تقلعي عنه ستكون لديه حجة معقولة.

قطبت راندا: ليس عليّ أن ألبّي لأحد متى طلب.

لوحت أصال مؤكدة على بداهة ما تقول:

- إنهم لا ينظرون للأمر بهذه الطريقة؛ لن يطلب، سيأمر.

اعتدلت راندا في مقعدها نافية:

- عمن تتحدثين بالضبط؟ تعميمك في غير محله؛ عماد يحترم

مساحتي الشخصية. عزيزتي، لو منحت أحدهم هذه الفرصة؛ أن يملي عليك أفعالك، لن يتوقف عند حد الضار والحرام، ستشمل وصايته كل شيء، يجب أن تثقي في رجاحة عقلك - تابعت في سخرية - أنت مخلوقة بواحد لعلمك - عقدت حاجبيها مفكرة - بالمناسبة يا صولا، لماذا قد يمنعك جلال عني؟ قلق على صحتك! يخشى عليك من التدخين السلبي أم قلق على سمعتك؟ يخشى عليك من جارتك المدخنة المنحرفة التي ستؤثر عليك بالسلب وتجرك إلى الرذيلة؟

أطلقت راندا ضحكة صاخبة بينما أطرقت أصال مديرة بصرها في وجوه المحيطين المتطفلة، متممة في لهجة متواطئة تحمل المسايرة بقدر ما تحمل الرفض:

- انظري إليهم كيف ينظرون إليك. هذا شيء لا يحتمله جلال.

ألقت راندا نظرة عابرة على الجلوس المحققين بها، ولاكت الكلام ممتعة:

- لا ينظرون بهذه الطريقة للمرأة المدخنة وحسب؛ ينظرون إلى العاملة وربة المنزل والمطلقة والآنسة والأرملة، لأمر البنين وأمر البنات والعقيم، للمتقبة والمحجبة والسافرة والمسيحية - غمزت بعينها - والزانية والعاهرة! ينظرون للمرأة في كل حالاتها؛ فيم تهكم نظرتهم إذن؟

- إننا جزء منهم.

- لا. إننا جزء مما نؤمن به! لعلك لا تؤمنين بالتسلط والتوجيه؛ تؤمنين بالحرية، أليس كذلك؟

سألها أصال في تردد:

- هل أنت حرة؟

- ألسنتِ كذلك؟

سكتت آصال مفكرة لبرهة ثم أجابت بثقة معدومة:

- لا أعرف! الوضع ليس بهذا السوء لكن...

- ترددك في الإجابة يعني العكس.

- أريد أن أشعر أنني محبوبة.

زفرت في ضيق، وقاتلها بلهجة منسكرة روعت راندا التي هبت
ثائرة تجلس بالكاد على حافة المقعد.

- أنى لكِ فيما لا تعطين الفرصة لأحد ليشعرك بهذا بينما
أنتِ في ذلك القمقم. أنا الوحيدة التي تقضين معها الوقت
بخلاف زوجك وابنك؛ لأن بابي شقتينا في وجه بعض ليس أكثر.
لا تتمتعين بترف الاختيار يا مسكينة! وهذه المرة الأولى التي
تخرجين فيها بصحبتى لأن والدتك تجالس إسماعيل! لحسن
حظك أنني لستُ نعجة كالبقية. اسمعي يا صولا، لو أن مشاعر
زوجك ناحيتك مشروطة فتأكدي أنه لا يحبك. وشخص لا يحبك
لا تتنازلي عن قيد أنملة من أجله.

شطبت آصال صفا تلقائياً من حياتها وقد أضحت كل حوارات
الأخيرة -بعد وضعها ولديها التوأم - تمر في خط إنتاج الدواجن
والبيض؛ لتفتح ذراعيها إلى راندا وتتلقى نفحة من الحياة التي
خلفتها وراءها. راندا تساعد على إمدادها بالنفس اللازم
للمقاومة، تشعر أنها حية من خلالها؛ ولم تكن راندا على
الأرجح لتعير اهتماما إلى آصال لولا ذلك البريق في عيني الأخيرة
الذي ما يفتأ يخبو ويضيء كل حين.

راندا فتية، مشاغبة، شغوف، صهباء ذات شعر غجري
وهيئة بوهيمية، تحظى بنمط الحياة الذي تريده، تعمل في شركة

متعددة الجنسيات للتسويق والإعلانات، متزوجة منذ خمس سنوات غير أن سكان البناية يحسبونها عروسًا جديدة لأن رحمها وبيتها خاليان من الأطفال؛ تؤجل هذه الخطوة إلى ما لا نهاية، تقول إنها ربما لا تقدم عليها حتى. ليست متأكدة، تترك هذه القرارات رهناً للمشاعر، وهي لا تشعر أنها تريد ذلك بعد ولا تعرف مستقبلًا.

لا تعرف أصل أحدًا يشبه جارتها الجديدة إلا ربما ما كانت هي عليه قبل أن تتحول إلى نعجة ممن أشارت راندا إليهن، ولا تنفي أنها تشعر أحيانًا ببعض الغيرة والحسد، وتود لو تقعد راندا عن عملها وتنجب وترضع الأطفال كبقرة حلوب! تتفهم الآن إشارة النساء المُلحة إلى بعضهن البعض بالزواج والإتيان بالمزيد من الأطفال؛ «متى سنفرح بك؟ شدي حيلك!» يستحسنَ شعور أن كلهن سواء، يحققن على الحرة ذات الشغف والإرادة.

صارت عادة لدى جلال في المرات التي يحمو فيها الوطيس
وتشتد وطأة الحوار بينه وأصال، أن يضع حدًا لذلك بجملة
وحيدة أثيرة:

- ستقلب الليلة غمًا. أعرف ذلك.

- لن نسمح بهذا!

تمكن منها الانزعاج لاستباقه الأحداث بصورة سيئة قد لا
يصلان إليها. لكنه كرر:

- أرى بوضوح إلى أين ستنتهي بنا الليلة.

ساورها الشك أنه يتعمد وضع هذه النهاية؛ لم يقل ذلك
لمرة إلا وتوؤل فعلاً الليلة إلى ما تنبأ به، ليتخلص منها بضعة
أيام ربما، إجازة! يميل إلى الصمت والتجاهل الذي يعقب ذلك؟
إذن.. هل يحبها؟ يبدو أسعد كلما كانت عنه أبعد. لا تحب
طريقته في مبادلتها الحب، بل إنها توشك على التسليم بأنه لا
يحبها، لم يحبها، أو لم يعد يحبها، مشاعره حيالها لن تخرج
عن هذا النطاق. كيف لا يعني الحب له ما يعنيه لها؟ كيف
يختلفان في ترجمة شعور واحد لهذا الحد؟ هل يرجع ذلك إلى
النوع أم الطبع؟

باحث له بشكوكها وحيرتها فاستنكر فكرتها الخيالية عن الحب
التي لا تمت للواقع بصلة، وهاجم الروايات العاطفية والأعاني
والمسلسلات التركية والهندية التي توجه الوجدان الجمعي
للنساء، وتجبر شركاءهن على النفاق والتحايل، نصحتها ألا ترفع

سقف توقعاتها حيث لا يعد شيئاً بعد ذلك يرضيها.

- لا تلوميني على مخيلتك الواسعة.

قال لها ذلك ضاحكاً باستهزاء؛ لتغمض عينيها متمالكة أعصابها، آخذة نفساً عميقاً يمددها بالقدرة على التغاضي وعبور الحواجز.

- لم يزل لدي أمل أن تنتهي الليلة على نحو آخر.

ومضت في تلطيف الأجواء بالغنج والتقبيل، غير أنه لم يقبل يدها الممدودة بالسلام؛ نحاها عنه ظاناً في قلباتها دعوة جنسية، أعرض بترفع:

- لا أظن ذلك! - ألقاها في وجهها بطريقة جارحة - أنا متعب وأريد أن أنام. ألا تقدرين؟ لأنك لا تبذلين مجهوداً!

(مجهود! يعمل ويدرس ويبحث ويسافر لكنه يقف عند عتبة هذا البيت ولا يود أن يمد يداً فيه، لعله يرى فيه فندقاً للمبيت مزود بمطعم وخدمات بائعة هوى توفر عليه المجهود المصاحب للمتعة!)

يهاجمها كأنها تهمة أن تطلب منه وتنفيها عن نفسها كأنها جاءت شيئاً نكراً! لقد أرادت أن يتفاهما وحسب. لكن ماذا لو كانت تقصد ذلك فعلاً؟ وقد سألته:

- هل القبلية مقصورة على أوقات الرغبة؟ أنا أشعر بحاجة إلى ملامستك والقرب منك طوال الوقت دون أن يفضي بنا ذلك بالضرورة إلى الفراش.

ألم يقل لها قديماً إنها أخطأت حين لم تشر عليه بما يجب عليه فعله؟ ها هي تتدارك خطأها فلم لا يجدي ذلك نفْعاً؟ بل ويسوؤه. لقد قالت! أفصحت عن الحرج والاحتياج الذليل

في نفسها إليه، ولم يجد ردًا غير أنه ليس بالوقت المناسب لمناقشة مثل هذه الأمور.

كيف باستطاعته أن يجنب كلامها ويدفع تفكيره في اتجاه آخر؛ يلومها وهو يحسب كم من الوقت سيحطى به في نومه ليصحو باكراً ويغادر لعمله، يغادر تلك التي قالت كلاماً لا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً - كما أشار عليها سابقاً بأن الطلب شرط الإجابة - تلك التي كانت تشحذ عناقاً قوياً في تفهم، وإحساس منه بالتقصير، لكنه زاد على الحرمان ذلة حين رفضها لينام ويعمل. لم تلاحظ قبل ذلك أنها التي دائماً ما تطلب منه احتضانها دون أن يبادر بذلك، «ضمني.. احتضني»، كلمات لصيقة بلسانها، منتهى البؤس! إنها شحادة مقرفة تشمئز من نفسها. تستجدي الحنان والتفهم وهو بعد يضمن عليها رغم ذاك التذلل. يضمها مكرهاً!

تنظر آصال بعين الدهشة إلى الحاضر؛ لم تتوقع ما آل إليه حالهما بعد الرجوع الدراماتيكي إلى بعضهما، تلك الانعطافة المفاجئة التي قاما بها على شفا جرف قبل أن يهويا مباشرة.. لم تشفع لهما! ماذا حل بهما؟ لم تفت ثلاثة أعوام بعد وكأنهما أنهيها حكماً بالمؤبد! لم تتوقع قط أن يحدث لها ذلك. قصة الحب الكبيرة تصغر يوماً فيوماً، والمشاعر التي صارت السنوات وبقيت؛ تتناثر يميناً ويسرة، تكاد تندثر تماماً كأن لم تكن، تساؤلات مؤرقة تلح وإحساس بالندم يتعمق ولربما يبتلع كل شيء.

كان الجنس يحل كثيراً من المشكلات العالقة بينهما دون الحاجة إلى مباحثتها أو إعادة الكلام حولها، وتوجيه الاتهامات وتصفية الخلافات وما إلى ذلك، كان بمثابة خاتمة نظيفة لكل ما سبق؛ ينهي ويقلب الصفحة لبداية جديدة، تبيت نازلاً تصبح

رمادًا! يوثق ويؤكد على ما يهم حقًا وما هو موجود بداخل كل منهما من حب ورحمة ورغبة في المواصلة مع هذا الشخص بالذات، أما ولم يعد كذلك، فإن الهفوات والأخطاء والخلافات المستمرة الناجمة عن اختلاف الطبائع وأهداف الحياة تأخذ في التراكم على هيئة جدران مشيدة عن عمد، مسلحة بالغضب والفتور والتصيد وعدم القدرة على التسامح والبدء من جديد.

كل نشاط ممتع في الحياة يحتاج إلى أكثر من شخص واحد لتأديته، يحتاج إلى رفقة؛ هذا شيء قاتل وغير منصف للوحيدين والمنبوذين أمثال آصال.

تتكالب الهواجس فوق رأسها لترى أيها الأقوى التي ستسقطها أولاً. لم تعد تحتمل الشعور بأنها ستنفجر في أي لحظة! الفجوة تتسع فيما بينها وجلال، تغيبه عن المنزل زاد إلى حد غير معقول، لم يعد نائباً صغيراً في السن لينام في المستشفى! فضلاً على أنه يطيل السهر خارج المنزل في الليالي التي يعود فيها إليه، ويؤثر الصمت والانفراد بنفسه، لا يرغب في الحديث إليها، لم يعد كلامه معها يزيد عن الجفاء والتوعد، والمشاحنات على أتفه الأسباب، لم تعد تؤتي محاولات الصلح ثمارها، نادراً ما يكونان متصافيين. جرت العادة أن يأخذ كل منهما جانباً وإسماعيل ضائع بينهما.

لا ترغب في الإحاطة باحتمالية أن ثمة أخرى في حياته؛ ما حدا بها إلى التفتيش في أغراضه، غير أنها لم تجد دليلاً، لعلها تخلق خيالاته لها لأنها لا تضع يدها على سبب للوقية بينهما، تشك في أن ما يجري بينهما مجرد فتور من الزواج، أو حقيقة كونهما يريدان أشياء مختلفة.

- هل تزوجت عليّ أم أنك تعبت فحسب؟

كان يهم بالخروج في أوج أناقته؛ ليستدير إليها مشدوهاً، تقف أمامه عاقدة ذراعيها على صدرها، وعاقدة العزم كذلك على نبش الجراح المتقيحة. مرت بسمه عابثة على شفثيه وماتت

هناك. تنهد بينما يتخذ مقعدًا ويستعد لمحادثة طال أمد تأجيلها. أشار إليها بالجلوس قبالة، شبك كفيه أمامه وهو يقول في هدوء يغلب عليه الاستنكار:

- تصرفين بالطريقة نفسها التي تكرهين أن يعاملك أحد بها؛ الأحكام الجاهزة التي تصنف الأفراد وتضعهم في خانات محفوظة، فما دمت رجلًا فأنا إذن أخون! يمكنني التصرف بنفس الطريقة معك والمجتمع يقف في صفي في الكثير من هذه الأمور. لتعامل إذن بصورة عادلة.

شعرت بحمل ثقيل ينزاح من على كاهلها. ابتسمت بعفوية بينما تقول بدلال مختلط بالتشكي:

- أي عدل فيما أصبحت عليه؟

- ماذا عنك؟ أصبحت أنانية وغير مطيعة في كل شيء أطلبه منك. جف رقيقي معك.

اتسعت عيناها مصدومة، لا يعقل أن يكون هذا هو السبب. كان يلح عليها أن يسافرا لتأدية العمرة ويعرجان على قاسم تطلب وده كي لا تكون ابنة عاقلة لأبيها. هي العاقلة! ولم يزل يستعجل الإنجاب ولا تفك تمدد الوقت الذي تحتاجه لتصير مستعدة. لقد كادت تموت في المرة الأولى ومات جنينها في المرة الثانية. وفي المرتين سُقَّت ونزفت وماتت من الألم.

مغرور! يرى أن يطلب فتجيب في الحال، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى. عددت على أصابعها في حرقه:

- والحجاب الذي فرضته عليّ؟ والورشة التي منعتني عنها؟ وأحلامي في المعرض والمرسم التي سحقتها؟ والحمل المستعجل بعد إسماعيل دون رفيق بي، وتريد أن أعيد الكرة بعد!

- لم يبدُ متأثراً وهو يطم شفتيه بلا اكتراث:
- ليست تضحية عظيمة! كل الناس تفعل كذا.
- دفت وجهها بين كفيها مُحَبَّطَة:
- ما لنا بالناس؟ ما الضير في أن نسن حياتنا بالشكل الذي يرضي كلينا ولو خالفت سنتنا سنن الأولين والآخرين؟
- زفر حانقاً:
- ومن قال إني راضٍ؟ أنا تعيس.
- تبني سعادتك على حسابي وتدعوني أنا نية؟
- نظر لها بعين لائمة وقال بلهجة تقريرية:
- يفترض أن تكون سعادتك من سعادي.
- أنت تلوي ذراع الكلام ليعاكس الإحساس الطبيعي للإنسان؛ تُصوِّر الألم والإرهاق والإجبار سعادة! الشخص الذي يتلذذ بالتضحية بنفسه من أجل الآخرين شخص مريض. لستُ ماسوشية.
- نظر إليها شزراً:
- النعمة النسوية مجدداً!
- تنهدت في ملل واستياء:
- لأنك تعيق تفكيري في أي اتجاه آخر.
- قام جلال من مكانه قائلاً في حزم وبلهجة لا تقبل النقاش:
- طيب. لقد أجلت هذه الخطوة لأقصى حد، وكنتُ نبيلاً لآخر درجة. لكنك لم تتركي لي خياراً آخر؛ سأصحبك غداً إلى المستشفى رغمًا عن أنفك - تابع بقرف - ستزيلين هذا الشيء

الذي يجعلك قادرة على الوقوف في وجهي.

تبدو آصال سابحة في وعاء مملوء بالماء، مرفوع على النار؛ تحاول جاهدة التكيف مع الارتفاع التدريجي لدرجة حرارة الماء. حين يقترب الماء من درجة الغليان؛ ستعجز عن التكيف، وتقرر القفز خارج الإناء للنجاة بحياتها؛ ستحاول دون جدوى! قد فقدت كل قوتها خلال عملية التأقلم، وسرعان ما ستموت! ليس الماء المغلي هو الذي جنى عليها، بل عدم معرفتها التوقيت المناسب لاتخاذ قرار القفز خارجًا متى صار التأقلم مميتًا؛ فلا تستمر حتى يُقضى عليها.

يجب أن تقرر متى تقفز قبل أن تخور قواها.

هكذا عرفت أنها صمدت أطول مما ينبغي؛ حين دلف جلال إلى المنزل مفسحًا مجال الدخول لقاسم، واجهها الأول بابتسامة رزينة كأنما أعد لها مفاجأة سارة. قد اتصل بها قبل ساعة وأخبرها أن تعد العدة لاستقبال الضيف الذي بصحبته. تسمرت فاغرة الفم متسعة العينين، تتحاشى النظر إلى قاسم الذي وخط الشيب فوديه وامتلأ رأسه بالشعر الأبيض، غزت التجاعيد وجهه لكنه لا يزال يضج بالعنفوان والصحة والجسد الفارع دون انحناء.

راحت تحديق في جلال بصدمة جلية، ترتعد، تغرورق عيناها وينسال الدمع على خديها بغزارة، تتصاعد حموضة معدتها، تشعر بالغثيان، وتكاد تقىء!

- تفضل يا عمي، خطوة عزيزة، إسماعيل سيطيير فرحًا لرؤيتك. سيعود من الحضانة بعد قليل.

كان جلال مستمراً في الترحيب بقاسم، غامراً بعينه إلى أصال أن لا يصح وجومها وتخشبها، يدعوها خفية إلى أن تلقي التحية على والدها وتُحسن استقباله في بيتها! ومضى يشكر قاسم على قبوله دعوته إلى مصر لوضع حد لهذه القطيعة التي حرّمها الله!

تتطلع أصال إلى جلال غير قادرة على التصديق، مخذولة، مُحطّمة. لا يعرفها البتة! ليس لديه أدنى فكرة عن الشخص الذي يشاركه الحياة تحت سقف واحد. قد ناضلت كثيراً من أجل الاحتراف بالشئ الجميل بالغ الضالة بينهما، لكن ليس ثمة جمال، قد تجلى بقبّحه، يكاد يعمي بصرها القبح الذي ينشره حوله، لم تعد تستطيع النظر إليه، تؤلمها عيناها.

أطرقت تستنشق دمعها، وتبلل شفيتها بلسانها، مستجمعة ما تبقى من قوتها الهزيلة. لا ترهب قاسم كطفلة قليلة الحيلة، لن تخاف أن تُضرب وتُسحل وتُقتل، لن تُرمى من الشرفة في قطعة أرض مهجورة ويفلت المجرم من العقاب؛ البناية عامرة بالسكان وصوتها سلاح. لا تعول على جلال، لم يحمها في المرة السابقة، فر ككلب جبان وترك الخراف لقمة سائغة في فم الذئب، بل أرشده إلى مكانها هذه المرة.

عضت على شفيتها السفلى لبرهة ثم زفرت في حرقه، وقالت بصوت مشروخ:

- كيف بلغت بك الوقاحة أن تأتي بقدميك إليّ؟ تدخل بيتي وتجلس بأريحية كأنك لم تجن شيئاً! ألم أقل لك أن تخرج من حياتي إلى الأبد أم أن جلدك ثخين لا تحس ولا تفهم؟!

برقت عينا قاسم الذي كان قد اتخذ مجلسه للتو؛ ليهب واقفاً يرتج جسده من الغضب، يبين من قبضتيه المغلقتين صراعه أن يسحقها بينهما بلا رحمة، بينما زعق جلال وسارع بتقويض كتفيها:

- آصال، اخربي. أنتِ تكلمين أباك!

صرخت، نافرة الأوردة، محتقنة الوجه:

- لا تقل أبوك. هذا أب يندى له الجبين! رمى لحمه وهج؛
لم تكفه محاولات قتلي بمشرط القابلة وتكسير عظامي، أراد أن
يميتني أيضًا من الجوع والحاجة. لقد باع بيته الذي كان يؤوينا
قبيل سفره! تركنا في العراء. سيحاسبك الله حسابًا عسيرًا يا
قاسم، سيجحملك في النار.

التهم قاسم الصالة بخطواته الواسعة، أمسك بمقبض الباب
ملقيًا عليها نظرة مشمئة كارهة، وهو يدمدم بقرف:

- لا تزالين فاجرة وعينك بجحة. قلت لك يا دكتور ليس لي
بنات في مصر.

- أرجوك يا حاج، إنها...

- لا تحاول. لستُ باقيًا عليها لأتحمل سفالتها - طالعها شامئًا
- الله يرحمك يا رجولة!

صفق قاسم الباب في وجهيهما بعنف، ليتحول جلال إلى آصال
كذب جبلي يعوي، قد أهاتته وخسفت به الأرض، وتناولت
على والدها أيما تناول؛ خرجت على الدين والتقاليد وأبسط
قواعد احترام الذات والآخرين التي تربي عليها.

كانت مستغرقة في النظر إليه بازدراء زامة الشفتين، فيما
يتقدم ناحيتها وقد انتفخت أوداجه، جازًا على أسنانه، يتوعدها
بالتأديب والضرب، متلفظًا بالكثير من السباب في أثناء ذلك؛
لتنفض آصال وتزيح الغبار عن حنجرتها، يهز صوتها الرنان
أركان البيت:

- وتجرؤ بعد! أحسن خطابي وإلا سأسيء خطابك بالمثل. كأنما

هو حق متاح لك أن تضربني وتتنازل عنه عن طيب خاطر
ولكرم في أخلاقك! هذا التعالي والمغالاة في تقديرك لنفسك على
حسابي لمجرد أنني امرأة هو ما يكرهني في نفسي ويحقرنني في
النوع الذي أنتمي إليه.

- مقهورة يا عيني! انظري إلى غيرك لتحمدي الله على النعمة
التي ترفلين فيها.

تطاير الرذاذ من فمها من فرط الانفعال:

- العلاقات الإنسانية ليست هي التي تنظر للدين منها لترضى
بل تنظر للسامي منها لتقتدي به. كونك أقل سوءًا من الآخرين
لا يعني أنك أحسن، وقد أثبت اليوم أنك في مثل سوئه.

طوح كفه الغليظة على وجهها الأبيض المحمر من الصراخ،
زافراً بارتياح:

- تستحقين الضرب. يسعدني أنني أخيرًا أقدمت على ذلك.

رفعت عينيها إليه مذهولة، مأخوذة من شدة الصفعة، ثم
ألقت نفسها عليه وأخذت تضرب صدره بقبضتيها الضعيفتين:

- طلقني يا جلال، طلقني، طلقني.. طلقني حالاً.

- أنتِ طالق.

تلفهما الصدمة بإحكام، يخيم هدوء من نوع غريب على
المكان، يشتد الصمت بينهما، وتبقى النظرات المشدودة ويذهب
كل شيء آخر. يذهب كل شيء آخر كأنه لم يكن يومًا. الطلاق
لم يكن يومًا جدليًا ككل شيء آخر في حياتهما، كانت تحته عليه
فيفعلها بلا تردد، يرميها بالكلمة بعنف كرة الإسكواش وتلقاها
بصمت الحائط الذي تُضرب عليه.

الفصل الخامس

لا يهم أي امرأة ستصيرين لأنكِ ستتمنين دومًا لو أنكِ الأخرى.
إليف شافاق

(لعلك تتساءل يا إسماعيل في صحوك ونومك، في الوصال والخصام، في حبك وكرهك لي في آن؛ أي ذنب اقترفت ليبتليك الله بي؟

ولعل نقمتك عليّ ستبلغ أوجها الليلة عندما تعرف لم أرسلت في طلبك المستعجل؛ تقطع المسافة البعيدة إلى المنصورة متأففاً، لتُدرِك أنني أخلفت وعدي لك؛ قد حذرتني أنك لن تريني وجهك مجدداً إن فعلتُ، قايضتني أن تزورني كل سنة مرة بشرط ألا أطلب المزيد)

حواس إسماعيل يقظة؛ إذ يماطلها في المجيء! لكنه يجيء في نهاية المطاف. مُضطراً، مدفوعاً بالشفقة وأحاييل الأم العجوز.

تفتح أصال الباب على مجيء ابنها المتردد، تحتضن تخشبه بين ذراعيها، وترحب بحضوره المُكره عليه. يجلس على بعد مدروس منها، مواجهاً استجداءها قُربه بتباعد مقصود منه.

كانت أصال تعد العدة لاستقباله منذ وقت ليس بالقليل، تستملهه، وصبراً تستجديه، تود أن يدعها تنهأ به قليلاً. إنها فرصتها الأخيرة وقد يضيعها التسرع! والضياع صار كل ما عليه حياتها، وما قد تنتهي إليه؛ فلا تتعجله.

ستحي له عن أشياء يجهلها، وأخرى يعرفها، لكنه ليس حقاً عليماً بها. ستمر له وتلتمس العذر. وعندما تكف عن الكلام، ولا يعد يصير بإمكانها فعل شيء آخر؛ تبتهل: لعله لن ينفذ تهديده، لعله يجيب مطلبها.

لم يكن قاسم يسمح لابنته المراهقة بإغلاق باب غرفتها،
مؤرباً أبداً. من ليطره إذن؟ إنه مشرع أساساً للدخول دون
استئذان. تنحنح جلال ملقياً التحية وهو لا يزال خلف الباب؛
لتهب آصال فزعة تلقي عليها أقرب قطعة ملابس التقطتها من
الدولاب، وتقف مستنفرة وسط الغرفة، تلف عباءة كيفما اتفق
حول شعرها ونصفها العلوي بينما يكشف سروال منامتها عن
قدميها الحافيتين. تجيب تحيته مرتبكة. وقف بمحاذاة الباب
وعيناه العسليتان تخترقان زجاج عويناته إلى قلبها الذي راح يهدر
كما كينة قديمة صوتهها يصم الآذان، محولاً بياض وجهها إلى
حمار صارخ. كادت تنسى أن لأحد مثل ذلك التأثير المدهش
عليها. كأنها حية!

سألها لماذا تضع العباءة عليها بهذا الشكل؟ ولما لم تحر
جواب ونظرت إليه دامعة العينين، خفض بصره حرَجاً وقال إنه
وجد باب الشقة مفتوحاً ولا أحد يجيبه بالداخل، فاضطر إلى
أن يجد طريقه بنفسه. أشارت إلى السقف وبالكاد خرج صوتها:

- ماما تطعمم الطيور على السطح.

- لقد جئت لأطمئن عليك. إجازة طويلة، هه؟ ولم تخرجي
للقائنا حين جئتُ وأبي للترحيب بعودة والدك من السفر، عمتي
أخبرتني يومها أنك نائمة. انتظرت أن تفتح المدارس أبوابها بفارغ
الصبر، ثم انتظرتك أمام المدرسة عدة مرات! وأخيراً اضطررت
إلى سؤال إحدى زميلاتك عنك، كادت تفضحني في الشارع لأنني
جرؤت على التحدث إليها! تحسنين اختيار رفقتك.

غمز بعينه وابتسم لها فابتسمت بدورها رغمًا عنها، وضجت قسماتها بالحياة إثر أول حوار حقيقي بينهما، لِيُشَبَّه وجهها بسحابة، تحولت في غمضة عين إلى زعابيب!

- ما هذا! ماذا تفعل معها وحدكما في غرفتها يا حثالة؟ قد هيات لك عمتك الجو! اخرج حالاً يا صعلوك من بيتي ولا تطأه بقدمك القذرة ثانية.

شده قاسم من ثيابه وألقى به خارجاً. يطارده متوعداً على السلم. كادت تبول على نفسها! ألقت عنها العباءة وخرجت مسرعة من الغرفة محاولة الهرب إلى السطح حيث تحتمي بأمرها، لكن قاسم سد عليها الطريق كغول أسطوري محمر العينين، عائداً إليها بخطوات تهتز لها الأرض من تحتها.

- وأنتِ يا فاجرة؟ لا رجاء فيكِ! أنتِ فضيحة.

طالتها يداه؛ أمسكها من شعرها لتكاد تخرج عيناها من محجريهما طافحتين بالدموع، تنزل كفه الضخمة على وجهها فتدمي شفيتها. تراجع عنها ليركلها بقدمه في بطنها، وهو يقول بغم مُزِيد:

- سأخرجك من المدرسة اليوم وأزوجك غداً وأخلص من شرك. لا، ليس حبيب القلب. سأزوجك بفلاح يعزق الأرض ويعود إليك بوسخه من الطين والعرق لتنظيفه كل يوم حتى مماتك.

قامت كالملسوعة من سقطتها، وأخذت تتقهقر، والجزع والغضب على ملامحها يحيلان براءتها إلى وجه عجوز متغضن، متراجعة بظهرها حتى سور الشرفة. نهاية المطاف. نهاية كل شيء! لتصرخ بعزم، بكل القوة التي تملك والتي طفت تنبش طريقها إلى السطح كأنما كانت تغرق!

- لا، لا، لا.... لن تفعل بي هذا! لماذا عدت؟ لماذا عدت؟ أنا

أكرهك. أمقتك. جِل عنا، جِل عنا بلا رجعة...

تحشرج صوته المجرّج وأخذت تسعل في قوّة، بينما كور قاسم قبضتيه وانتفخت أوداجه، معاوذاً الهجوم عليها، لتصيح مستنجدة.

- لا تقرب مني! ماذا تريد بعد؟ اعمل معروفًا واخرج من حياتنا.

- آه يا مقصوفة الرقبة!

كانت آصال شوكة في قدمي قاسم تجرحه أينما ذهب، وكان هو غصة في حلقها كلما ازدردت لعابها؛ يمكنه أن ينتزعها فيمشي دون ألم، ولم يكن باستطاعتها ذلك نحوه.

ترقد آصال على سرير المستشفى المعدني كالجماد، مقيدة الحركة، مكمة الفم، لا تبس بحرف بينما قاسم ينفرد بها، يحقنها بالسم المتدلي من لسانه كحية رقطاع. يروح ويجيء في الغرفة ساخطًا:

- العمر يجري وأنا بطولي لا سند لي. من يتولى تجارتي؟ من يحمي ظهري؟ أمك الأشبه بالخرقة لم تستطع أن تنجب لي إلا بنتًا واحدة، المهزلة أني تزوجت عليها أخرى تنجب لي الولد؛ ولمدة عشر سنوات لم تحسن غير إضافة خمس أخريات إلى رصيدي! لكنك لا تشبهين بناقي.

بصق على جانب في ازدراء. قال «بناقي» وليس إخوتك، قاصدًا أنها ليست واحدة منهن، وقد أمّن على مقصده متعمدًا إغاظتها:

- لسن قبيحات اللسان والخلقة مثلك؛ جميلات كالبدر، معسولات الكلام. أحسنت أمهن تربيتهن.

تهدد بصوت عالٍ فيما احتشدت في عيني آصال كتائب لا حصر لها من الدموع؛ تقف على استعداد للانهمار الوشيك، متأوهة من النغزات المؤلمة في قلبها. تابع بلا اكتراث، مُؤمِّمًا الحطب اللازم لئلا تنطفئ جذوة الحريق المستعر في جوف ابنته:

- لم أكن لأضطر للعودة لهذه المخربة لولا الشديد القوي؛ تحتم عليّ اقتفاء أثر عائلة نساؤها ولادة للصبيان، ولم يخذل الله مسعائي - أردف في ظفر - الثالثة حامل في الولد، لستُ باقيًا من أجل سواد عينيكَ، لم أكن لأعرضها لخطر السفر؛ نتظر أن تضعه بين أهلها، ثم نعود من حيث أتيت. أعود بالولد.

اقتحمت روحية غرفة المستشفى بعد تغييبها لإجراء مكاملة متعجلة. دلف عبد الرحمن في أثرها؛ ران على المكان هيبة ووقار في حضرته، ولاد قاسم بالصمت، مضى ينظر إلى صهره في توجس وترقب، فيما استرعت زوجته انتباهه حين صاحت فجأة والشرر يتطاير من عينيها الطيبتين للمرة الأولى:

- ساقاضيك يا قاسم. والله لأحبسك.

عقد قاسم حاجبيه مصعوقًا من ردة فعل زوجته العنيفة وعلو صوته على غير عادتها، لم تكن روحية تحسن أن تتنفس في حضوره! التفت إلى آصال التي تلالأت الدموع في عينيها فجأة بالتشفي والغل، بادلها نظرتها بأخرى متوعدة وهو يجز على أسنانه:

- أيتها المعتوهة! لقد اختل توازنك. ما ذنبي أنا؟

هتفت روحية في شراسة وكمد:

- ذنبك! لقد أعدمتها العافية. ضرب كان ليفضي إلى موت لولا ستر ربنا، انظر إليها. لا تستطيع أن تحرك ساكنًا. ورميتها من الشرفة كذلك يا عديم الرحمة. هذا شروع في قتل.

تطير الرذاذ من فمه وهو يقول مؤكِّدًا في انفعال:
- قلت اختل توازنها. وليس ثمة شهود على ما تدعيه هذه
الكاذبة، كلمتها مقابل كلمتي.
صاحت روحية في تحدٍ وتصميم:
- سأشهد ضدك يا قاسم.
حدق قاسم في أخيها هائفاً في استنكار:
- زور يا سيادة المستشار!
تكلم عبد الرحمن أخيراً بصوت رخيم متزن:
- كفى! حفاظاً على سمعة البنت يا قاسم؛ كما دخلنا
بالمعروف نخرج بالمعروف.
افتعل قاسم ضحكة وتهد في راحة:
- بسيطة. أنت تسدي لي صنيعةً يا سيادة المستشار. أختك
طالق بالثلاثة بشرط أن تخط تنازلاً عن مستحقاتها وكذلك نفقة
ابنتها الملعونة.
بكت روحية قهراً واحتجاجاً:
- يا مفترى يا ناقص!
نادى عبد الرحمن شقيقته محذراً ومال عليها هامساً:
- رفقاً بالبنت.
وأردف وهو يشد قامته ويتقدمهما لإخلاء الغرفة:
- فضلاً دعونا نتابع حديثنا في الاستقبال، آصال بحاجة إلى
الراحة. سلامتك يا بنتي.
لم يفت قاسم أن يدير بصره إلى آصال قائلاً في شماتة:

- ما صدقت أن أتخلص من عبئكما.

علا صوت أبويها واشتد الجدل بينهما حتى اضطر عبد الرحمن إلى جذبهما بالقوة وسيرهما أمامه خارج الغرفة؛ ليدلف جلال إليها كقط متلصص؛ قد جاء بصحبة والده لكنه بقي مترصدًا في الرواق مختبئًا من قاسم. كانت آصال تتنفس الصعداء مغلقة عينيها بشدة على مآقيها. بنيان مرصوص داخلها يتساقط كالحجارة، أطرافها أحد من نصل السيف، تنغرس في قلبها الهش وتدميه.

هاله منظرها وشمله التوتر حتى وخزته عيناه، يكاد ينفطر منهما الدمع؛ كانت في هيئة لا تُحسد عليها، مجبرة في أماكن عدة، صفحة وجهها لم تعد بيضاء من غير سوء؛ ملأى بالكدمات والخدوش، ثغرها منتفخ ومدمى. لقد انخلع قلبه حين سمع بما جرى لها. أراد أن يطمئن على سلامتها ويبرر لها نذاته وفراره كفار مذعور من بين يدي قاسم دون أن يتصدى له ويذود عن محبوبته. لم تكن لتتعرش على الدرج بينما تهرب من والدها لو أنه حال بينه وبينها.

انتبهت آصال إلى الأزيز الذي يصدره حذاؤه الجلد على أرضية المستشفى المصقولة، لترفع عينيها إليه وقد تبدلت السكينة والانكسار اللذين كانت عليهما؛ كانت لتحن لو أن بإمكانها ذلك! بدت متأذية إلى أقصى درجة، تجلى الرفض في عينيها في أبهى صورته، لم يفهم لِمَ أحالتها رؤيته إلى نمرة شرسة مسلسلة تكاد تنقض عليه بأسنانها! لم تمهله الفرصة للدفاع وتقديم فروض الأسف والاستسماح. صاحت بعصية:

- نعم! ماذا تريد أنت أيضًا؟ لا أريد أيكم، كلكم سواء.

تغلب على مفاجأة استقبالها له وسارع بالاقتراب منها، يبحث عن مكان آمن في جسدها يضع يده عليه ليهديها دون أن يوجعها:

- آصال! اهدئي. ما خطبك؟

ردت في استهانة:

- ما لك أنت؟! لا تتدخل، إياك أن تلمسني، ابتعد عني. اخرج،
هيا اخرج. قمت بالواجب مشكورًا.

تشبعت عيناها فجأة بالعزيمة:

- سأعيش. وحياتك لأعيش كل دقيقة في عمري كما يحلو لي، أنا
سأمر وأنهي، لن أتمكن أحدًا مني.

قال في إشفاق:

- آصال. أنتِ في حالة صدمة يا حبيتي.

صرخت منفعة:

- لستُ حبيبة أحد. لستُ حبيبتك ولستُ حبيبي - تابعت
مهدة - وسأقول لخالي إنك تلاحقني وتغري بي، سأقول إنك
حاولت تقبيلي عنوة. اتق شري يا جلال. لا أريدك. ألا تفهم؟!

تجمد جلال في وقفته، يتطلع إليها في جزع وانزعاج. متسائلًا في
دهشة: ماذا ألمَّ بها؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ لتمتد يدها إلى زر
أبيض معلق إلى جوار الفراش:

- سأستدعي التمريض!

رفع كفه مستسلمًا، تلفح الصدمة وجهه كشمس صيف حارقة،
يتراجع بظهره إلى باب الغرفة، مُحَرَّجًا ومغاضبًا.

- هذا يكفي. أنتِ مجنونة!

زفرت مستمتعة:

- هذا شأني.

- بالتأكيد.

همهم في تحفز وهو يصفق الباب خلفه بينما تشيعه بثبات.

ترك جلال الشقة لئلا تعود طليقته إلى المنصورة فيبقى ابنه قريباً منه، واستدعى عمته للعيش معهما. يرسل نفقة آصال ومصاريف إسماعيل بانتظام دون أن يُطلب منه، ويمر بسيارته حين يفرغ من عمله، ينتظر ابنه داخلها ريثما يُنزله له بواب العمارة، لينطلق بها ويقضي مع الصغير بعض الوقت في الخارج، وفي طريق العودة يوسعه أحضاناً وقلبات ويترك بعضهم لها بين ذراعيه؛ كلما اقتربت من إسماعيل تشتم رائحة أبيه، فيحضر في التو كاملاً في خيالها وتراه رأي العين. تدمع عيناها ويختلج قلبها. هل يود أن تتجنبه فتضطر إلى تلافي ابنها، إمعاناً في مضاعفة العذاب؛ البعد عن كليهما! أم أنه يرسل تحياته إليها ويذكرها بقربه. ماذا يريد بعد منها؟ لماذا لا يتركها وشأنها؟ قد تعبت في قربه وبُعده. غير أنها مسحت عبراتها مرة وللأبد حين جاءتها نادرة تمصص شفاها وتقول شامته، مسدية النصائح ومدعية الإشفاق:

- لو كنتِ امرأة شاطرة لحاوطتِ زوجك وحافظتِ على بيتك. أنتِ الخسرانة؛ ها قد راح وتزوج بنت بنوت في العشرينات وأنتِ بعد في عدتك.

أخرستها آصال وهي تصيح في عصبية وتنفث النار في وجهها كتنين مجري مجنح:

- بيتك من زجاج يا نادرة! أليست حسناء امرأة خائبة بدورها؟ قد تزوج زوجها أخرى عليها أيضاً. اسمعي. لا داعي لنغمة المرأة المسؤولة عن كل صغيرة وكبيرة، بسببها الدنيا تبقى وردية أو

كحلاً! هذا افتراض غير سليم، وكثيراً ما يكون العكس بالعكس. في الغالب في مجتمعنا الذكوري الرجل متصلب الرأي لا يحس ولا يُعقل ولا يسمع لواحدة يعتبرها ناقصة عقل ودين - تابعت مزدرية - الهم طائلي وطائلك يا ست نادرة.

اجتهدت آصال للصق الشرخ الكبير الذي صدع روحها وأصاب مشاعرها في مقتل؛ قالت لنفسها أن افعلي كل ما يلزم لتعودي إلى ما كنت عليه قبل ثلاث سنوات.

- ستبلغين أربعين سنة وبدل السعي إلى الحج أو العمرة تخلعين الحجاب؟ خافي ربك.

قد قامت بجمع كل الأقمشة التي كان جلال يجبرها على لف رأسها بها كالكرة، وشحتها في صندوق إلى جمعية خيرية مُطلقة سراح شعرها، قاطعة الطريق على أي محاولة لروحية تثنيها عما اعتزمت؛ اكتسبت مناعة ذاتية ضد التهيب والترغيب. ثم أعادت الاتصال بمسؤول ورشتها الفنية تستأنف عملها، متوصلة كذلك بسهولة إلى فرصة عمل ذات راتب مجزٍ يعيلها هي وأمها؛ نظراً لخبرتها الطويلة في العمل بالبنوك والمحاسبة وتوسط راندا لها لدى قاعدة معارفها من ذوي العيار الثقيل العاملين بالمجال ذاته.

ساء روحية النهج الذي مضت آصال تتبعه مع إسماعيل؛ موجودة معه على مدار الساعة لكنها لا تمنحه شيئاً من وقتها أو اهتمامها. لا تحاول كفاية. ليست ملتزمة بالعمل الجاد الذي تستلزمه تنشئة طفل لا يعيش بين أبويه.

والأدهى أنها أضحت مهووسة بدرجاته وتحصيله منذ بدأ الذهاب إلى المدرسة، ترفع صوتها عليه وتعنفه ليذاكر بينما

تنشغل عنه بالتلفاز، والهاتف الذي أصبح ملتصقًا بيدها تدرش مع راندا وتلج إلى مواقع التواصل الاجتماعي، دون مراعاة لميل الولد فطريًا في هذه السن الصغيرة إلى المتعة واستثقال الجهد. وحين تنقصه درجة أو درجتان عن العلامة الكاملة في أي مادة؛ تصرخ بهياج:

- أبوك طبيب! جراح كبير. هل تريد أن يعيب عليّ ويقول إنني أملتُ بختك وخيبت رجاءه فيك؟

حتى أيام إجازته تخيره بين المذاكرة أو توضيب حجرته والمساعدة في شؤون المنزل، لا تسمح له باللعب مع أبناء الجيران أو النزول إلى الشارع، تنهر روحية إذا تدخلت وتوسطت له، تدافع بإصرار:

- ما هو غير مسموح للبنات غير مسموح له، لا يحسب أن عضوه الصغير سيمنحه امتيازًا!

وعندما يلح عليها الولد محاولاً أن يثير شفقتها نحوه، تزجره بحدة:

- لا أريدك شوارعياً. تعلم أن تمكث في المنزل تجالس والدتك وجدتك ومن ثم زوجتك وأولادك.

ولا تنفك تعدد له المشاق التي تكبدها في ولادته وتربيته، رافعة يدها إلى السماء في سأم ونقمة:

- يا رب أموت حتى أرتاح من هذه العيشة.

فتقف لها روحية مؤنبة:

- أنتِ أم. أدي الأمانة دون تبرم أو معاييرة. هذا واجبك. تراكِ لا تمنين على رؤسائك بعملك! هل تستدرين عطفه أم تكسرين عينه؟ إنكِ تدفعينه لكره نفسه وكرهك حين يجد موتك راحة

لكِ منه! لن يشعر بالذنب ويسترضيكِ، في مرة من المرات
سيؤمن على دعائك على نفسك. هل هذا ما تريدينه؟

اعتاد إسماعيل ألا يفضي إلى أمه بشيء مما يجيش في صدره أو
يمر في خاطره، بات يلجأ إلى جدته الرؤوم؛ إذ جاء يوماً إلى آصال
متشكياً من لؤم زملائه في المدرسة واعتدائهم عليه بالضرب،
فلم تحنْ عليه أو تنبرِ للدفاع عنه ضد المتنمرين، بل زمجرت
وأكدت لائمة أنه المخطئ، بلا نقاش:

- ماذا فعلت؟ لن يقوموا بأذيتك من الباب للطاق!

كان يسمع أحلى الكلام من جدته ووالده وزوجته الجديدة،
يقومون بتشجيعه والإغداق عليه بالحب والتدليل، بينما تشك
أمه في قدراته، تسمم بدنه بقيقح الكلام؛ ظانة أنها تحفزه! لا
تفتأ تعلق عليه إحباطاتها ومخاوفها، تشتكي إليه بينما لا تسمع
منه، تعاتبه في استجداء وتملل:

- من سيشعري؟

ولسان حال إسماعيل: من سيشعري أنا! لا يجيد تصنع
الاهتمام بما تقول طيلة الوقت فتدفعه بعيداً وتصبح كارهة:

- أنت سيئ وقاس. عاق.

يشعر أنه يتحول تدريجياً إلى ذلك.

لا تنفك تضربه. اضطرها إلى ذلك! تقول إنه قد استثار
أعصابها، إنها خائفة على مستقبله، تريده الأفضل. لا تريده
على شاكلة الرجال من حولهم.

- تحاول أن تكون قويّاً؟ قل أي، قل أي وإلا لن أعتقك من بين
يدي.. ضربة في قلبك!

تقسم إنها تحبه، وتفعل ذلك لأنها تحبه؛ تُصوّر له الضرب

فعل حب! ثم سرعان ما تأخذه بين أحضانها مهددة، وتتمتم:
- ربنا يهديك ويهديني.

تُمْسِكُ روحية يد ابنتها في نوبات غضبها وتخلي طريق الهرب
لإسماعيل، توقفها عند حدها، باللين مرة والشدة مرات.

- أمسكي أعصابك يا آصال؟ هل مددتُ يدي يومًا عليك؟ وكنتِ
أعند منه ألف مرة. تُحملين الولد فوق طاقتيه. تريدين أن تثبتِي
لجلال أنكِ سوبر ماما وابنك فلتة. تضربينه لأنك ضعيفة قليلة
الحيلة، تظنين نفسك قوية وبمئة رجل، غداً يكبر الولد ويفوق
طوله طولك وتطنحك عضلاته لو أراد. تُرسين فيه العنف يا
بنتي وتعلمينه أنه من المقبول أن نضرب ما دمنا نقدر! انظري
ماذا فعل فيكِ الضرب والإهانة؟ هذا ولد. لا تكسريه وتشرخي
رجولته!

تعرض آصال في تحفز:

- رجولته! كفانا تمييزًا. هويته إنسان وليس رجلًا.

تضرب روحية كفاً بكف في أسي بالغ:

- وهل هذه معاملة تليق بإنسان! لقد ضربك جلال مرة
واحدة فطُلقتِ منه على الفور، أُنِي لإسماعيل الطلاق منك؟ فيمَ
تختلفين إذن عن قاسم؟!

لم تكن عظة روحية لتؤثر على نحو كبير في آصال، تنفي
أن ثمة مقارنة بينها وقاسم؛ تخلص إلى فراشها، تغص في البكاء،
متمتمة:

- أنا أم صالحة، أنا أم صالحة. أنا أحبه، لا أريد أن أؤذيه،
أقوم بهذا لمصلحته.

ولا يغمض لها جفن قبل أن تطيب خاطر ابنها وتصالحه. هل

فعل قاسم هذا يومًا؟

- هل سامحت ماما؟

تمسح على شعره وتسأله فيومئ على أي حال.

كان يسامحها وهو بعد صغير، لكنه لم يعد منذ اخشوشن
صوته وازداد طوله وقسا قلبه ونما له شارب أخضر زغبي.

تعرق إسماعيل بغزارة وتسارعت نبضات قلبه فيما تشد أمه حاسوبه المحمول من على مكتبه وتفتحه متوجسة، ملقية نظرة واحدة كانت كافية لتشهق:

- هذا ما تفعلون فيه! لا تفكرون في شيء آخر، لا تكثرثون لمشاعرنا. تبًا لكم جميعًا.

احتقن وجه الشاب غيظًا وصاح بغلظة متنصلًا من لوم أمه له:

- ألن تكفي عن اقتحام غرفتي دون استئذان؟

قطبت غاضبة، ألا يكف هذا الولد الشقي عن استدعاء الضرب؟! قبل أيام تناول عليها بالكلام إثر اكتشافها علاقته السرية بفتاة في مثل عمره، زميلته في كلية طب الأسنان؛ أمرته أن ينتبه لدراسته ويصرف نظره عنها، محذرة:

- لا أريدك أن تتسبب في كسر قلبها، ما زلتما مراهقين، لن تنجح القصة. سأبارك لك عندما تصير رجلًا قادرًا على معرفة ما تريد.

ليجيب في حقن:

- لا تتدخل من فضلك. لست بحاجة لمباركتك مشاعري.

صفعته يومها رغم الألم الساري كالنار بيدها، أخذت تدلكها دون أن ينتبه، متغلبة على آلامها؛ لا تريد أن تبدو أمامه شائخة عاجزة عن تأديبه. غزت الدهشة وجهه لبرهة ومن ثم

حل الوجوم، لبث في مكانه لا يرفع عينًا إليها ومضى منذئذ لا يحاورها أو يرد سلامها حين يخرج ولا يعود قبل أن يغلبها النوم. لتشعر نوعًا بالندم وتقرر تطيب خاطره؛ وتدلف إلى غرفته مبتسمة تقيض عيناها حبًا ولهفة، فتضبطه يعتدل بسرعة في مقعده ويرفع سحاب سرواله فيما يغلق حاسوبه المحمول!

هَمَّت بصفعه ليُمسك يدها هذه المرة بقبضة من حديد، معتصرًا إياها حتى تأوهت وجحظت عينيها من الألم، مدللًا على قوته:

- لن أسمح لكِ بتكرارها. لم أعد صغيرًا أو طيعًا، أقدر تمامًا على الدفاع عن نفسي.

اغرورقت عيناها وهي تشد يدها متوجعة، غير مصدقة. ألقت نفسها تهزول مسرعة قدر الإمكان إلى غرفتها، تود لو كان باستطاعتها الركض والارتقاء على الفراش كمراهقة عنفها والدها! ارتجت نوافذ المنزل إثر صفق إسماعيل لباب الشقة خلفه. هو المخطئ، وهو المُعتدي، وهو الغضبان!

لم يعد إسماعيل تلك الليلة، ولم تحاول الاتصال به؛ تشعر بالغدر واليتم والوحدة. (أين أنتِ يا ماما؟ أين السبيل إلى حضنك؟) لم تعتد بعد غيابها ليغيب عنها بدوره آخر الأحبة! ورد إلى هاتفها اتصال من جلال قرب منتصف الليل، ردت في وجل. الطبيب المحترم يلقتها محاضرة عن فن معاملة الأبناء. لو كانا أنجبا بنتًا وأخطأت لقال «أكسر للبنت ضلعًا يطلع لها أربعة وعشرون»!

- الولد كبير يا آصال، ينبغي التعامل معه باللين لا بالشدة. إنه يمر بمرحلة حرجة لكن طبيعية لمن في مثل سنه - تابع ضاحكًا - لقلقْتُ لو لم يفعل ذلك.

وجرو أن ييوج لأبيه أيضاً بفعلته الشنعاء! رفعت حاجبيها مشدوهة واعترت ثغرها بسمة اعتراضية؛ كان جلال يجبرها هي المرأة البالغة المتزوجة أن تغمي عينيها حين تجيء قبلة على الشاشة - وإن كانت سريعة خالية من الشهوة كلصق طابع بريد - ويسمح للمراهق بذلك! كأن النساء مخلوقات من جماد، آلات معدنية منزوعة الشعور، بينما الرجال مخلوقون من الأهواء!

- سبحان مغير الأحوال! كيف تتساهل في أمر كهذا؟ أعجز عن فهمك بصراحة.

اكتست لهجته بطابع حاد على الفور:

- اسمعي. لم نزل نتحدث في ما يخص إسماعيل وحسب. لا دخل لكِ بي، أنتِ لم تفهميني قط لتفعلي الآن.

تهدد بصوت عالٍ وقال بلهجة تقريرية شابتها الاستهانة والتفريع:

- إسماعيل الآن بحاجة إليّ. لن تستطيعي السيطرة عليه أو توجيهه ولا حتى مصاحبته، أنا سأعتني به وأحرص على أن يكون بخير. لقد انتهى دورك يا أصل. لا أقول إنكِ قمتِ به على أكمل وجه؛ إسماعيل يشتكي مُر الشكوى، وفي الواقع لا يريد أن يستمر في العيش معك. سيبيت لديّ الليلة لكني لن أتمكن من دعوته للإقامة معي؛ زوجتي لن تشعر بالراحة في البيت بوجود شاب في مثل عمره.. لذا لي رجاء...

تردد في الطلب فوضعت يدها على قلبها متخوفة، ليستطرد بعد هنيهة:

- هل يمكنك أن تتقلي لشقة المنصورة وتُخلي الشقة لإسماعيل - تابع مُحرجًا - مصيره يتزوج فيها ولن تقيمي معه وعروسه على أي حال.

ازدردت لعبها بصعوبة، تذرف الدمع بسخاء، ويرتج قلبها رجًا
مدويًا. جاهدت لتومئ وتقول بصوت مهزوز:

- كما تشاء. إنها شقتك وقد طالت إقامتي فيها، لقد كنتُ
حاضنة له ولم أعد كذلك.

ومع كلماتها الأخيرة نشجت وارتعد صوتها وظهر عليه أثر
البكاء، ليمط جلال شفّتيه أسفًا:

- معذرة يا آصال. لم أكن أحب أن تصل الأمور إلى هذا الحد.
تنهدت بينما تمسح وجهها الذي أصابته قنبلة دمعية هائلة
الحجم:

- لا عليك يا دكتور.. حصل خير.

تولج آصال المفتاح الصدى في القفل، تفتحه بشق الأنفس، تدفع الباب فيُصدِر صريراً مزعجاً. تدلف إلى الشقة المترية، تضيء العتمة الغالبة على أركانها، تشعل كل الأنوار، تُبقيها كذلك، تنفض مقعداً قماشياً؛ تسعل بشدة، يكتم التراب أنفاسها، تسرع إلى الشرفة والنوافذ تفتحها على مصراعيها، ثم تجلس ويدخلها وحشة خانقة، يرقد الخوف تحت جلدها متيقظاً، تجفل من أدنى حركة أو صوت يتناهى إلى سمعها.

ستعيش هنا وحيدة، منبوذة، لا أحد يحبها، لا أحد يريد أن يكون بالقرب منها. لا أحد يساندها ويشد عضدها؛ لمّ من شأنها أن تستمر في العيش؟ بل وقد عادت إلى جيرة نادرة سليطة اللسان متحجرة الدماغ! عادت إلى الشقة التي لم تقض ليلة واحدة إلا ونفس أمها يتردد فيها؛ لم تستطع أن تقضي هنا الليل حين جاءت للمرة الأخيرة قبل سبع سنوات؛ دفنت أمها إلى جوار خالها، ليسوقوها بعدها غصباً إلى شقة نادرة كي تستقبل المعزين، فطردتهم وعادت إلى القاهرة، تُثقلها الخسارة والشُّكل، قابضة على يد إسماعيل في تملك وارتجاع.

صبيحة ذاك النهار المشؤوم صحت على نداء ابنها، نفضت أثر النوم وألقت نظرة عابرة على هاتفها، السابعة صباحاً؛ لا بُد أن إسماعيل يستعد للنزول، روحية تبدأ يومها بصلاة الفجر وتوقظ حفيدها في ميعاد المدرسة، تعد له شطائر الجبن بالطماطم والبيض المقلي بالسمن البلدي، وتقبله داعية أن تصحبه السلامة، بينما تأخذ هي قسطاً أطول من النوم وتذهب إلى عملها في تمام التاسعة.

خرجت إلى الصالة ملهوفة تبحث عنهما، أعاد إسماعيل النداء عليها في عصبية وإلحاح، لتهرول إلى غرفة أمها حيث كان منكفئاً على الأخيرة. طالعها بعينين متخوفتين.

- لم توقظني كعادتها، قلتُ غلبها النوم. سمعت صوتاً مخيفاً يخرج من غرفتها، ماذا بها؟ قدماها جامدتان كالثلج، ولا تنفك تُصدر هذه الأصوات ولا تجيبني!

لطمت أصال على خديها، آخذة في الولولة:

- ماما؟ ماما؟ ردي عليّ. ماما! أجيبيني..

تلمست صدق ابنها؛ جسد أمها ثقيل وبارد، جست نبضها، لا يكاد يُحس! علت حشرات روحية، لينتفض قلب أصال كطائر مذعور من دوي السلاح، انقضت على هاتفها تستدعي جلال على وجه السرعة. لم تفت عشرون دقيقة على اتصالها إلا وكان حاضراً يغطي وجه عمته بالملاءة بعدما كفت الروح عن النزاع وصعدت إلى بارئها؛ سقطت أصال فاقدة الرشد، وحين أفاقت تحت تأثير المهدئ الذي حقنها جلال به، بدت هامدة كجثة، لا تعي شيئاً مما يجري حولها؛ ثمة سيدة تُغسل أمها، إسماعيل يتلو سورة يس بينما تغرق الدموع وجهه في صمت، وجلال يرتب مع نادرة عبر الهاتف إجراءات الدفن في مقابر العائلة.

تشارك جلال وبواب العمارة في حمل أصال إلى سيارة الأول في طريقهم إلى المنصورة. تركز رأسها إلى النافذة المغلقة، شبه مغيبة عن الوعي، الرؤية مشوشة، الأصوات مختلطة، الإحساس مُخدر. إسماعيل ينهنه إلى جوارها على المقعد الخلفي فيما ينظر إلى الشاحنة التي تسبقهم وتحمل في داخلها نعش جدته. جلال يقود السيارة متممًا بآيات من القرآن المنبعث من المسجل بصوت الشيخ محمد رفعت، تجلس نورا زوجته إلى جانبه متشحة بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، لا

يبين منها غير عيين خضراوين كالزمرّد. في أحشائها جنين، وعلى فخذيهما ولدين بفارق ضئيل في العمر. شرعت أصل تقيق، تفتح عينيها على اتساعهما، تحق في مرآة السيارة خفية، تلتقي أعينهم، فيهيأ لها أنه مشتاق وعنده لوعة، لسان حاله يقول: «هذه المرأة التي تحمل أطفالى وودت لو كانت أنت! أريد ابنة منك تشبهك أنت».

أثابها نشيج ابنها إلى رشدها؛ راحت تحدّجه بجزع، علام يبي؟ ثم جعلت تتلف حولها في حيرة: أين هي؟ أي كارثة حلت ليجمعها مكان واحد بكل هؤلاء؟! تلجم لسانها وماتت الكلمات التي همت بالتفوه بها حين توقف جلال بالسيارة وترجل ليساعد قائد سيارة تكريم الإنسان في تنزيل حمولته. هالها رؤية النعش تتسابق أيدي الرجال لتحمله.

- يا لهوى!

شق صراخ نادرة وجدانها بينما ارتمى ابنها بين ذراعيها منفجراً في البكاء؛ لتدفعه بعيداً بحركة حادة وتضع رأسها بين فخذيها محاوطة أذنيها بكفيها، لا تريد أن تسمع أو ترى. تنهافت إلى حضن روحية حيث تدفن رأسها في راحة ولا تشعر بشيء.

تمتت نورا في إشفاق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. شدي حيلك يا حبيبتى.

حدق إسماعيل في أمه بضيق لبرهة، ثم سارع بالنزول والعدو خلف أبيه، متشبّطاً بجانبه محاوطةً خصره بذراعيه، ليحنو عليه جلال ويربت على ظهره شاداً من أزره.

- يلا يا أختى. انزلى يا أصل، ستفوتك الجنازة! ادفني أمك واقربى الفاتحة على روحها.

قربت نادرة وجهها من نافذة السيارة وخبطت بعنف على الزجاج تعيد كلامها؛ ليرتج جسد أصال وتضغط أكثر فأكثر على أذنيها.

أنزلت نورا زجاج السيارة الأمامي ونادت على نادرة، مشيرة إلى أصال أنها بعد في حالة صدمة وإنكار، لتمصص نادرة شفيتها ممتعضة وتمضي في طريقها، تقف بين الجمع المتجمهر تشاهد التربي يهيل التراب على عمتها في مثاها الأخير.

لم تكن بها علة! آلام الشيخوخة لا تعجل بالوفاة بين ليلة وضحاها. كيف يخطفها الموت دون سابق إنذار للأحبة؟ ليتحينوا ساعة الفراق ولا ينزل الخبر على رؤوسهم كالصاعقة. كانت سليمة معافاة ليلة أمس، وجهها بشوش، ابتسامتها ناصعة، وعيناها تفيضان بالحب والرحمة والسلام. توضأت وصلت العشاء ثم خلدت إلى النوم؛ لتنازع سكرات الموت فجراً ثم تلفظ أنفاسها الأخيرة وتفيض روحها!

قد عاشت روحية تعسة، بائسة، عثرة الحظ، لم يعرف الفرح سبيلاً إلى قلبها المسكين. عاشت تفي بالعهد لرجل واحد بينما هي ليست على ذمته؛ لأخذ ابنتها بقوة القانون لو تزوجت، بناته يحتجن خادمة تعفيهن أعمال المنزل! واحد من شروطه المحجفة لإطلاق سراح روحية التي لم تكن بحاجة إلى تهديد لتُحجم، لما أقدمت على ذلك، واضعة ابنتها فوق أي اعتبار؛ ليشيخ قلبها الخاوي على عروشه طوال العمر، وتنتهي صلاحية أنوثتها، تتعفن في غلافها الذي لم يُفتح لمرة واحدة!

اندثر عمرها هباءً؛ لعاشت روحية قبل أن تموت لولا أصال! غير أنها لم تشك أو تحملها الذنب ولو مرة واحدة. تساءل أصال في جنون: أنى لأمها تلك المقدرة الضخمة على الرضا

والتسامح والعيش في سلام دون أحقاد وضغائن؟ لم يهددها شيء رغم كل الخطوب التي مرت عليها! ماتت راضية. كيف لا تحسن هي أن تكون مثلها؟ لم تطلع البنت لأُمها!

أي حياة في انتظارها بلا روحية؟ أي حياة؟! انقسم ظهرها من بعد أمها. قد انهذ حيلها، لا تقوى على الوقوف على قدميها أو رفع رأسها عن الفراش الذي تتمدد فوقه في وضع الجنين. لم تزل عاجزة عن التصديق والتصرف. ما أحلاه الوهم! ستدخل أمها عليها الآن تمسح على شعرها وترقيها وتهدي من روعها، ستحمي إسماعيل من جنونها وتناولها. ستبقى لها الدرع الآمنة والصدر الحنون.

دلف أحدهم إلى الغرفة، لترتعش عيناها المنتفختين بفعل البكاء، ثقيلتان ككرتين من الحديد، تعجز عن فتحهما لترى، تهمهم بلهفة رضيع:

- ماما.. ماما؟

جلس جلال على حافة الفراش، يهز رأسه في إشفاق، يقول بصوت رخيم:

- آصال. الناس بالخارج يريدون تعزيتك. انهضي كلي لقمة حتى!

لاكت السؤال بين شفيتها ببطء كأنما تهذي:

- آآ..ك.. لل!

تملاً أنفها رائحة طبخ وشواء! تتصاعد نار محرقة في جوفها تنهب الطريق إلى حلقها وعينيها. اتقد وعيها الكامن في الحزن؛ تبدل إلى الغضب في لمح البصر. قوة مفاجئة سرت في جسدها كالسحر حولتها من حال إلى حال، رفعت رأسها محدقة في جلال

بعينين مفترستين، توشك على الانقراض، صارخة على حين غرة
أجفلته:

- ناس؟ وأكل! أين هي؟ أين هي؟

هبت من الفراش تتوعد نادرة، تمتلئ عروقها بالأدرينالين من
جراء الحنق والكمد. حانت ساعة الانتقام، لتمزقها بأسنانها!
كانت نادرة تُخرج طاجن البط من الفرن وتقلب الأرز في إناء على
النار حين هجمت أصال على المطبخ كريح صرصر عاتية.

- يا حيزبون! ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

خطفت أصال من بين يديها الطاجن الزجاجي الساخن، لسع
راحتها لتفلته بعنف مصوبة إياه على الحائط، ليخلف رنيئاً
مدويّاً فيما يتشظى لقطع بالغة الصغر ويعرق الأرض السمن
المتساقط من البط كالزبد، حملت أصال كذلك حلتى الأرز
والبازلاء وألقت بمحتوياتهما في سلة القمامة مزمجرة، مصدرة
أصواتاً متوحشة. تسمرت نادرة متسعة العينين عن آخرهما، لا
تحسن الكلام للمرة الأولى! فيما حاول جلال تقييد حركة أصال
دون جدوى؛ أكسبها الانهيار قوة متوحشة، بدت فاقدة أي قدرة
على التعقل، كأنما أصابتها عدوى من كلب مسعور! خرجت إلى
الصالة التي ران عليها صمت مطبق؛ تكاد تُسمَع دبة النملة.
الجلوس مشربو الأعناق يتبادلون النظر في توجس، مناشدين
بعضهم البعض المشورة. ماذا عساهم يفعلون؟ لتوفر عليهم
أصال العناء حين صفقت بيديها كمن يهش مجموعة من
الدجاج إلى العشة.

- لا أظنكم جئتم تملأون بطونكم! سعيكم مشكور يا جماعة.
كلّ يعود من حيث أتى.

كأنما كانوا محجوزين وأخلت سبيلهم! أطلق كلّ ساقيه للريح،

وتهاوى جلال على أحد المقاعد إلى جانب زوجته، يدفن رأسه المتجهم بين كفيه، متنهّداً بصوت عالٍ في يأس، مؤثراً الصمت؛ لا فائدة تُرجى. قد جرب مراراً! عادت أصال إلى القاهرة في اليوم نفسه، ملتصقة بابنها لا تفارقه كظله، تقاسمت معه حجرته، وضعت فراشها إلى جوار فراشه، مراقبة صدره يتحرك في نومه، تتنفض من نومها مذعورة تتأكد أنه لا يزال يتنفس.

صحت في اليوم التالي أصابع كفيها متورمة، منضغطة في وضع معين، لا تستطيع تحريكها، لتحسن حالتها آخر النهار، تكرر ذلك لأيام متتالية، إلى حد أعجزها عن الإمساك بفرشاة أو قلم! أخذت رقبته كذلك تشنّج حركتها، تصيبها بآلام غير محتملة، من ثم مفاصل قدميها وركبتيها. شخص الطبيب أعراضها بروماتيزم نفسي وأوصاها بالراحة التامة وتناول المسكنات والأدوية، غير أنها راحت تهش معدتها الضعيفة وتصيبها بالقيء والغثيان، فتمتنع تلقائياً عن الأكل لينخفض ضغط دمها وتُصاب بالدوار. أوقفت الدواء محاولة ممارسة حياتها بشكل طبيعي، إلا أن محاولاتها الصبائية في معاندة المرض باءت بالفشل، واضطرت إلى ترك الرسم إلى غير رجعة!

انتاب إسماعيل ارتياح غامر على الرغم منه، قد حلت أمه عنه؛ تعود من عملها في المحاسبة منهكة مستنزفة القوى، لولا الاحتياج الدليل للقامة العيش ما بارحت البيت. تخلد إلى الفراش في ساعة باكراً، تنام كجثة هامدة، بينما يطيل إسماعيل السهر خارج المنزل دون أن تبين ذلك أو يقضي الوقت في غرفته دون رفقتها التي كانت تجثم على أنفاسه.

وها قد حلت عنه للأبد، ليعش مرتاحاً هانئاً في بعدها عنه، وتنتهي هي محطمة الفؤاد، مخذولة، عاطلة، مسحوقة الأحلام،

شائخة قبل الأوان، ميتة على قيد الحياة.

فرغت آصال من الحكي والتشكي، تمسح دموعها مطيلة النظر إلى إسماعيل بعينين مستعظمتين كقطعة شريدة بحاجة إلى مأوى ويد حانية، راجية الرحمة والود والغفران. كانت على يقين من أنه سيأخذها بين ذراعيه أسفًا على ما جرى لها ومتسامحًا فيما بدر منها، غير أنه لم يبدُ متأثرًا أو متعاطفًا، تجاوب مع ما سمع بطريقة أخرى؛ كان مشحونًا بالغضب والنقمة والاستياء، كأنما دفاعها أثاره ضدها. هز رأسه بغير رضا وقال أخيرًا بلهجة اتهام:

- كما كنتِ تعبئة من عاداتنا وتقاليدها التي لا تعجبك كان بابا متعجبًا من خروجك عليها وعدم مراعاتك لطبيعة النشأة والدين. أشار إليها مزدريًا:

- ما زلتِ تكشفين شعرك! ألا تستحين؟ على أقل تقدير احترمي سنك، أنتِ في الخامسة والخمسين، واحترمي ابنك الذي أصبح محط سخرية الناس؛ يسألونه عن ميعاد صلاتك المقبلة في الكنيسة!

اتسعت عينا آصال جزعًا، متشبثة بحافة مقعدها، كأنما كانت تكلم حجرًا، هذا الشبل من ذاك الأسد. كلهم سواء! استطرد إسماعيل منفعلًا:

- وما قلتِه لا ينفي أو يبرر أيًا مما فعلتيه معي. بل على العكس يضيف إليك تهمة جديدة؛ لقد كررتِ ما فعل فيكِ بحذافيره، لم تتعظي! وجهت انتقامك ضدي! كنتِ بلا حول

ولا قوة وعمدتِ إلى أذيتي كما تأذيتِ. كيف أتفهم شيئًا كهذا؟
وكيف أغفره؟ هل استطعتِ مسامحة جدي؟ قولي. هل تمكنتِ
من تجاوز كل أفعاله في حقك؟

هبت من مكانها هاتفة في زعر:

- لا، لا، لم أسامحه، لم أسامحه يومًا.

هز كتفيه ومط شفثيه بلا مبالاة:

- ذات شعوري نحوك. لذا لا يمكن أن نعود للعيش معًا.

اقشعر جلدها، تكاد تموت ربًّا.

- أتوسل إليك يا إسماعيل. لا أستطيع الحياة دونك.

قام واقفًا استعدادًا للمغادرة، وقال في حزم:

- تستطيعين. لن تموتي بدوني.

رددت في هلع ممسكة بساعده:

- سأموت، سأموت.

قاطعها في استياء وألم ممض:

- أرجوك! دعيني أذهب. لا تلوي ذراعي؛ لا تتصر في بنفسي
الطريقة التي تصرف بها الكل معك على حد قولك. أنا تاركك.
أعجز عن مسامحتك. دعيني أذهب، دعيني أنسى. لعلي أرتاح.
أشقيتني!

تمتعت ملتاعة:

- أردتُك مختلفًا.

لاحت على شفثيه ابتسامة جامدة:

- وتحققتُ أمنيّتك. أنا مختلف؛ جرحك فيّ يميزني عنهم! حولتني إلى شخص متردد وجبان ومعقد؛ هل ثمة مخرج من هذه الحلقة المفرغة؟ كيف أمحو أترك عن نفسي فلا أعيد التاريخ نفسه متسببًا في كارثة جديدة؟!

هتفت في حرقه، تعض أناملها ندمًا، مُحاولَة احتضانه:

- ماذا فعلتُ بك يا ضي عيني! أنا آسفة يا حبيب ماما. لقد أخطأت في حقك مرارًا دون قصد. أعدك ألا أتدخل في حياتك، لن أفرض نفسي عليك، لن أملي عليك أمرًا، لن أرفع صوتي أو يدي عليك، لن أوجه لك كلمة واحدة، اتركني فقط أعيش في سلام إلى جوارك.

- فات أوان ذلك.

قالها بلهجة قاسية وأفلت نفسه من بين ذراعيها؛ لترفع حنجرتها بالعويل كالذئاب فيما يلتهم درجات السلم نزولًا.
- يا إسماعيل! يا بني. يا ضي عيني. لا تتركني. ساموت يا بني.

وبينما يتردد صدى توسلاتها في البناية، وتسمعه نادرة في الطابق الأول فتمر نغزة مؤلمة في قلبها لاشعوريًا؛ كان إسماعيل يدير محرك السيارة ويخرج من شارع توريل للمرة الأخيرة.

قد عاشت بعد الطلاق لسنوات تسير على هدى من قلبها؛ ليست في حاجة إلى إذن للحياة، تروح وتجيء وتعمل وتنطلق بصحبة راندا، لكن أحلامها ظلت محلك سر، لا تتقدم قيد أنملة، تتقلص لضيق ذات اليد! حتى تهدم الجدار الوحيد الذي كان يقوض سقوطها المدوي بموت أمها؛ لتذروها الرياح كرفات روحية. دائمًا ما كانت أصال هشة؛ ذرة هواء كفيفة

بإيقاعها أرضًا، لا تملك جذرًا متينًا يمتد تحت الأرض يقوّم وقفعتها ويثبت قدميها. لا نبتة فتية تنمو في تربة عجوز! روحية كانت أقوى وجذعها صلب لكن دون أحلام تقض مضجعها! كذا ماتت راضية.

قاسم وجلال والأرض التي أنجبت أمثالهما من الرجال وأمثال نادرة من النساء؛ أرادوا أن تكون على شاكلتهم، مادة يعبئونها في قالب نسخ يرضون عنه، لا ترى ولا تسمع ولا تنطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحون به! قد خرجت عن طوعهم، سلسلة بعاطفتها، كأن لم تخرج! أقامت الحد على ابنها لئلا يكون على شاكلتهم لتتحول إلى واحدة ممن حاربتهم عمرها كله، تسير الناس على هواها ضد رغباتهم. ماذا تكون هي لتحكم على الآخرين، تأمر وتنهى كما الإله بغير أن تملك عدله وحكمته ورحمته وقدرته؟!

تكومت على قبر روحية تناجيهما، متورمة العينين، محتقنة الوجه. تناديهما بأعلى صوتهما، تجتذب انتباه زائري المقابر، مثيرة استهجان بعضهم لغرابة ما تفعل وتطير البعض الآخر من الحمة، مروعة أبناء الغفير، دافعة أصغرهم إلى الانخراط في البكاء على صدر أمه.

خفت الجلبة الصادرة عنها رويدًا حتى اختفت، ولم يعد يُسمع صوت من المرأة الخمسينية التي كانت تنوح وتولول بهستيرية، تنادي أمها كطفلة تائهة! ليصرف كل انتباهه إلى مسعاه، وتترك أصال دون عين مُستطلعة.

يكاد يكون الهواء شحيحًا! تحديق في فضاء المقبرة المفتوح بعينين مذهولتين، تلهث بقوة، تعب الهواء دون جدوى، أنفاسها تتردد على صدرها بثقل. ثمة غصة متحجرة في حلقها لا تحسن كيف تزدردها. تتعرق، شاعرة بالغثيان والبرد الشديد،

ألم رهيب يسري في كتفها اليسرى وأسفل رقبتها.
لا تقدر على الاستنجاد بأحد، لا تريد كذلك. فلتمت ويرتاح
الجميع! ستستمر الحياة دونها، وبالكيفية نفسها!

أيا قاسم، أنت الكسرة لكونك أنت بالذات ولست بآخر
سواك، أنت فقدي من يوم خلقت إلى يوم أبعث.. بغير عودة.

بينما أنت يا جلال الفرحة التي جاءتني على مضض، ولم
تهنأ في مقامي فشدت الرجال عني، أنت الحاكم بأمر لا أأتمر
به؛ فأسقطك عني رغم الخيبة، أنت خيبي، وعودتي إلى نفسي
سالمة، إلا من قلبي الشاغر بعدك.

أما أنت يا إسماعيل. كلك أنا وكلي أنت، أنت الروح المفارقة
بدني عندما شئت نفسك الخروج عليّ.

وأنا.. العوج في نفسي، روحي في اعوجاجي الذي حاولتم
ثلاثكم تقويمه، فانكسرت. تدرجت ككرة صغيرة فتية من أعلى
قمة ثلجية، أفتت بفعل الانحدار والبرد والزخم، في طريقي
نزولاً إلى قعرة هائلة الحجم.

تمت

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشاب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. إبعث لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 - 0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 / 01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتّابنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:



Kayan.publishing



kayan_publishing



Kayanpublishing



kayanpubishing



+KayanPubishing



KayanPublishing